كليلة ودمنة

عبد الله بن المقفع



كليلة ودمنة

كليلة ودمنة

تأليف
عبد الله بن المقفع



كليلة ودمنة

عبد الله بن المقفع

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٥٨٥٧
تدمك: ٥ ٦٣ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ +   **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

المحتويات

ابن المقفع

١٠٦هـ–١٤٢هـ/٧٢٤م–٧٥٩م

هو عبد الله بن المقفع فارسي الأصل، كان اسمه قبل إسلامه روزبه وكنيته أبو عمرو، فلمَّا أسلم سُمِّي عبد الله وكُنِّي بأبي محمد، ويعود لقبه بابن المقفع إلى أن أباه داذويه كان متوليًا خراج بلاد فارس من قِبَل الحجاج، فأخذ بعض أموال السلطان؛ فضربه الحجاج على يديه فتقفعتا، فلُقِّب بالمقفع.

نشأ ابن المقفع في ولاء بني الأهتم، وهم أهل فصاحة وبلاغة؛ فكان لهذه النشأة تأثير عظيم فيه، وفيما وصل إليه من درجة رفيعة في الأدب، كتب لداود بن هبيرة، ثمَّ لعم المنصور عيسى بن علي بن عبد الله زمن ولايته على كرمان، ثم لأخيه سليمان بن علي أيام ولايته على البصرة.

وكان في أثناء ذلك أن خرج عبد الله بن علي والي الشام على ابن أخيه المنصور، فطارده المنصور، فلجأ إلى أخويه سليمان وعيسى في البصرة؛ فطلبه المنصور فأبيا أن يسلِّماه إياه إلا بأمان يمليان شروطه، فرضي المنصور بذلك وعهد إلى ابن المقفع بكتابة الأمان فشدَّد فيه على المنصور تشديدًا أحفظه عليه، وجعله يضمر له الشر. ثم عزل المنصور عمه سليمان عن البصرة وولَّى مكانه سفيان بن معاوية، فطفق ابن المقفع يسخر منه ومن أنفه الكبير؛ فنقم عليه، وذات يوم دخل ابن المقفع إلى دار سفيان ولم يخرج منها؛ فقد قتله سفيان، ويقال إنه كان للمنصور رأي في قتله.

كان ابن المقفع مشهورًا بذكائه، وسعة علمه حتى قيل فيه: «إنه لم يكن في العجم أذكى منه». وكان كريمًا جوادًا، وافر المروءة، وقد اشتهر بحبه للصديق، وقد اتَّهمه حُسَّاده بالزندقة، ولكن لا شيء في كتبه يثبت هذه التهمة عليه.

آثار ابن المقفع الأدبية كثيرة جمع فيها أدب الفرس إلى أدب العرب، ومن أشهر مؤلفاته «كليلة ودمنة»، وقد نقله عن الفارسية، وهو كتاب يرمي إلى إصلاح الأخلاق وتهذيب العقول، ومنها الأدب الكبير والأدب الصغير.

لابن المقفع أسلوب خاص به: هو السهل الممتنع، وإننا نجد في هذا الأسلوب أفكارًا منسقة وقوة منطق، وألفاظًا سهلة، فصيحة ومنتقاة، قوية المدلول على المعاني، ونجد فيه من البلاغة أرفع درجاتها، وقد كان يوصي بالابتعاد عن وحشي الألفاظ ومبتذل المعنى، فيقول مخاطبًا أحد الكُتَّاب: «إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة فإن ذلك العيِّ الأكبر» وقد ساد أسلوبه واحتذاه بلغاء الكُتَّاب، وظل سائدًا حتى ظهر أسلوب الجاحظ.

وابن المقفع على كونه في تفكيره أعجميًا يتعصَّب لآداب قومه وعلومهم، فلا يُرَى في كتبه من العربية إلا اللغة، وقلَّما استشهد بشعر أو مثل أو حكمة، أو أشار إلى وقائع العرب وآرائهم، فإن فضله عظيم على العربية؛ فهو أول مَنْ أدخل إليها الحكمة الفارسية الهندية والمنطق اليوناني وعلم الأخلاق وسياسة الاجتماع، وأول مَنْ عرَّب، وألَّف، ورفع في كتبه النثر العربي إلى أعلى درجات الفن.

باب مقدِّمة الكتاب

قدَّمها بهنود بن سحوان ويُعْرَفُ بعلي بن الشاه الفارسي. ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة[١] لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سمَّاه كليلة ودمنة وجعله على ألسن البهائم والطير، صيانة لغرضه فيه من العوام، وضنًا[٢] بما ضمَّنه عن الطغام[٣] وتنزيهًا للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها[٤] إذ هي للفيلسوف مندوحة[٥] ولخاطره مفتوحة، ولمحبيها تثقيف.[٦] ولطالبيها تشريف، وذكر السبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس برزويه رأس أطباء فارس إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة.

وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند حتى حضر إليه الرجل الذي استنسخه له سرًا من خزانة الملك ليلاً مع ما وجد من كتب علماء الهند.

وقد ذكر الذي كان من بعثة بزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب، وذكر فيها ما.

يلزم مطالعه من إتقان قراءته والقياد بدراسته والنظر إلى بطان كلامه، وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه.

---

[١] البراهمة: عُبَّاد برهمة من آلهة الهنود.

[٢] ضناً: بخلاً.

[٣] الطغام: الأرذال.

[٤] عيونها: خيارها.

[٥] مندوحة: سعة.

[٦] تثقيف: تهذيب.

وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرًا، وقد ذكر السبب الذي من أجله وضع بزرجمهر بابًا مفردًا يُسمَّى باب برزويه الطبيب، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره، وآن مولده إلى أن بلغ التأديب، وأحب الحكمة، واعتبر في أقسامها، وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب.

ذو القرنين وملك الهند

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب «كليلة ودمنة» أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لمَّا فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم.

فلم يزل يحارب مَنْ نازعه ويواقع[٧] مَنْ واقعه ويسالم مَنْ وادعه[٨] من ملوك الفرس وهم الطبقة الأولى حتى ظهر عليهم وقهر مَنْ ناواه، وتغلَّب على مَنْ حاربه فتفرَّقوا طرائق[٩] وتمزَّقوا حزائق؛[١٠] فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته.

وكان على الهند في ذلك الزَّمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس يقال له فور؛ فلمَّا بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته واستعدَّ لمجاذبته وضمَّ إليه أطرافه[١١] وجدَّ في التألب[١٢] عليه وجمع له العدَّة في أسرع مدَّة، من الفيلة المعدَّة للحروب والسباع المضراة[١٣] بالوثوب، مع الخيول المسرجة، والسيوف القواطع، والحراب اللوامع.

فلمَّا قرب ذو القرنين من فور الهندي وبلغه ما قد أعدَّ له من الخيل التي كأنها قطع الليل، مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم، تخوَّف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجَّل المبارزة.

---

[٧] يواقع: يحارب.

[٨] وادعه: صالحه.

[٩] طرائق: أي فرقًا.

[١٠] حزائق: قطعًا.

[١١] أطرافه: أطراف الرجل؛ أبواه وإخوته وأعمامه، وكل قريب محرم.

[١٢] التألب: التجمُّع.

[١٣] المضرَّاة: المعوَّدة.

وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة؛ فرأى إعمال الحيلة والتمهُّل، واحتفر خندقًا على عسكره وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع به، فاستدعى المنجمين وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه؛ فاشتغلوا بذلك.

وكان ذو القرنين لا يمرُّ بمدينة إلاَّ أخذ الصُنَّاع المشهورين من صُنَّاعها بالحذق من كل صنف؛ فنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدَّم إلى[١٤] الصناع الذين معه أن يصنعوا خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري، إذا دفعت مرَّت سراعًا، وأمر إذا فرغوا منها أن تُحْشَى أجوافها بالنفط والكبريت وتلبس وتقدَّم أمام الصف في القلب، ووقف ما يلتقي الجمعان تضرب فيها النيران، فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولَّت هاربة، وأوعز إلى الصناع بالتشمير[١٥] والانكماش[١٦] والفراغ منها؛ فجدُّوا في ذلك وعجَّلوا وقرب أيضًا وقت اختيار المنجمين؛ فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بما يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته؛ فأجاب جواب مُصرٍّ[١٧] على مخالفته مقيم[١٨] على محاربته.

فلمَّا رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته وقدَّم فور الفيلة أمامه، ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان، فأقبلت الفيلة نحوها ولفت خراطيمها عليها، فلمَّا أحسَّت بالحرارة ألقت مَنْ كان عليها وداستهم تحت أرجلها ومضت مهزومة هاربة لا تلوي على شيء[١٩] ولا تمرُّ بأحد إلاَّ وطئته. وتقطع[٢٠] فور وجمعه وتبعهم أصحاب الإسكندر وأثخنوا فيهم الجراح، وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إلينا وأبق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على الفناء. فإنه ليس من المروءة أن يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فابرز إلي ودع الجند فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد.

[١٤] يتقدَّم إلى: أي يأمرهم ويوصيهم.
[١٥] التشمير: الجد.
[١٦] الانكماش: الإسراع.
[١٧] مصرٌّ: مستمرٌّ.
[١٨] مقيم: ثابت العزم.
[١٩] لا تلوي على شيء: لا تقف ولا تنتظر.
[٢٠] تقطَّع: تفرَّق.

فلمَّا سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته[٢١] نفسه إلى ملاقاته؛ طمعًا فيه، وظن ذلك فرصة، فبرز إليه الإسكندر فتجاولا[٢٢] على ظهري فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة ولم يزالا يتعاركان.

فلمَّا أعيا[٢٣] الإسكندر أمره ولم يجد فرصة ولا حيلة أوقع ذو القرنين في عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر؛ فالتفت فور عندما سمع الزعقة وظنَّها مكيدة في عسكره، فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه أتبعها بأخرى فوقع إلى الأرض.

فلمَّا رأت الهنود ما نزل بهم وما صار إليه ملكهم حملوا[٢٤] على الإسكندر فقاتلوه قتالاً أحبوا معه الموت، فوعدهم من نفسه الإحسان ومنحه الله أكتافهم[٢٥] فاستولى على بلادهم وملَّك عليهم رجلاً من ثقاته وأقام بالهند حتى استوسق[٢٦] له ما أرد من أمرهم واتفاق كلمتهم، ثم انصرف عن الهند وخلَّف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجهًا نحو ما قصد له.

دبشليم الملك وبغيه

فلمَّا بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغيَّرت الهنود عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلَّفه عليهم وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملِّكوا عليهم رجلاً ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم[٢٧] واجتمعوا يملِّكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم. فملَّكوا عليهم ملكًا يقال له «دبشليم» وخلعوا الرجل الذي كان خلَّفه عليهم الإسكندر.

فلمَّا استوسق له الأمر واستقرَّ له الملك طغى وبغى وتجبَّر وتكبَّر وجعل يغزو مَنْ حوله من الملوك، وكان مع ذلك مؤيدًا مظفرًا منصورًا فهابته الرعية.

---

[٢١] دعته: ساقته.

[٢٢] تجاولا: دار أحدهما حول الآخر.

[٢٣] أعيا: أعجز.

[٢٤] حملوا: كرُّوا.

[٢٥] منحه الله أكتافهم: سلَّطه عليهم.

[٢٦] استوسق: انتظم.

[٢٧] يستقلهم: يحتقرهم.

فلمَّا رأى ما هو عليه من الملك والسطوة عبث بالرعيَّة، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتوا فمكث على ذلك برهةً من الدَّهر.

بيدبا الفيلسوف

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يُعرَفُ بفضله ويُرجَعُ في الأمور إلى قوله يقال له «بيدبا».

فلمَّا رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية فكَّر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه ورده إلى العدل والإنصاف؛ فجمع لذلك تلامذته وقال: أتعلموا ما أريد أن أشاوركم فيه؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشرِّ ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض[٢٨] أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل، ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا أن كنا في أنفس الجهال أجهل منهم، وفي العيون عندهم أقل منهم، وليس الرأي عندي الجلاء[٢٩] عن الوطن.

ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة ولا يمكننا مجاهدته[٣٠] بغير ألسنتنا ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لما تهيأت لنا معاندته، وإن أحسَّ منا بمخالفته وإنكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا.[٣١]

وتعلمون أن مجاورة السَّبع والكلب والحيَّة والثور على طيب الوطن ونضارة العيش غدر بالنفس.

وإن الفيلسوف لحقيق[٣٢] أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصِّن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور، ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب.

ولقد كنت أسمع أن فيلسوفًا كتب إلى تلميذه يقول: إن مجاورة رجال السوء والمصاحبة لهم كراكب البحر، إن هو سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف، فإذا

[٢٨] نروِّض: ندِّرب.

[٢٩] الجلاء: الانتزاح.

[٣٠] مجاهدته: مقاومته.

[٣١] بوارنا: هلاكنا.

[٣٢] لحقيق: لجدير.

أورد نفسه[٣٣] موارد[٣٤] الهلكات ومصادر المخوفات عُدَّ من الحمير التي لا نفس لها؛ لأن الحيوانات البهيمية قد خصَّت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه، وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها موردًا فيه هلكتها، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها مالت بطبائعها التي ركبت فيها، شحًا بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه. وقد جمعتكم لهذا الأمر لأنكم أسرتي ومكان سري وموضع معرفتي وبكم أعتضد[٣٥] وعليكم أعتمد، فإن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له. على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود.

مثل القنبرة والفيل

والمثل في ذلك أن قنبرة[٣٦] اتخذت أدحية[٣٧] وباضت فيها على طريق الفيل، وكان للفيل مشرب يتردد عليه. فمرَّ ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطئ عش القنبرة وهشَّم[٣٨] بيضها وقتل فراخها.

فلمَّا نظرت ما ساءها علمت أن الذي نالها من الفيل لا من غيره. فطارت فوقعت على رأسه باكية ثم قالت: أيها الملك لِمَ هشَّمت بيضي وقتلت فراخي وأنا في جوارك؟ أفعلت هذا استصغارًا منك لأمري واحتقارًا لشأني؟

قال: هو الذي حملني على ذلك.

فتركته وانصرفت إلى جماعة الطير فشكت إليها ما نالها من الفيل.

فقلن لها: وما عسى أن نبلغ منه ونحن طيور؟

فقالت للعقاعق[٣٩] والغربان: أحب منكن أن تصرن معي إليه فتفقأن عينيه فإني احتال له بعد ذلك بحيلة أخرى.

---

[٣٣] أورد نفسه: أحضرها المورد.

[٣٤] موارد: جمع مورد، وهو الطريق إلى الماء «وهو هنا مجاز».

[٣٥] أعتضد: أستعين.

[٣٦] قنبرة: نوع من العصافير.

[٣٧] أدحية: عشًا.

[٣٨] كسر.

[٣٩] العقاعق: جمع عقعق وهو طائر على قدر الحمامة.

فأجبنها إلى ذلك وذهبن إلى الفيل، فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه إلا مما يقمه[٤٠] من موضعه.

فلمَّا علمت ذلك منه جاءت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة فشكت إليها ما نالها من الفيل. قالت الضفادع: ما حيلتنا نحن في عظم الفيل وأين نبلغ منه؟ قالت: أحب منكن أن تصرن معي إلى وهدةٍ[٤١] قريبة منه فتنققن[٤٢] فيها وتضجحن، فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهوي فيها.

فأجبنها إلى ذلك واجتمعن في الهاوية، فسمع الفيل نقيق الضفادع وقد جهده العطش فأقبل حتى وقع في الوهدة فاعتطم فيها. وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه وقالت: أيها الطاغي المغترُّ بقوته المحتقر لأمري كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عند عظم جثتك وصغر همتك؟

بيدبا يستشير تلامذته

فليشر كل واحد منكم بما يسنح[٤٣] له من الرأي. قالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل والحكيم العادل، أنت المقدَّم فينا والفاضل علينا، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك؟ غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير[٤٤] والذنب فيه لَمَنْ دخل عليه في موضعه، والذي يستخرج السمَّ من ناب الحية فيبتلعه ليجربه على نفسه فليس الذنب للحية، ومَنْ دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته، وهذا الملك لم تفزعه النوائب ولم تؤدبه التجارب ولسنا نأمن عليك من سورته[٤٥] ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يجب.

فقال الحكيم بيدبا: لعمري لقد قلتم فأحسنتم لكنَّ ذا الرأي الحازم لا يدع أن يشاور مَنْ هو دونه أو فوقه في المنزلة، والرأي الفرد لا يكتفى به في الخاصة ولا ينتفع به في

---

[٤٠] يقمه: يأكله عن وجه الأرض.
[٤١] وهدة: ما انخفض من الأرض.
[٤٢] النقيق: صياح الضفادع.
[٤٣] يسنح: يعرض ويخطر.
[٤٤] تغرير: أي تعريض النفس للهلكة.
[٤٥] سورته: حدَّته.

العامة، وقد صحَّت عزيمتي على لقاء دبشليم، وقد سمعت مقالتكم وتبيَّن لي نصيحتكم والإشفاق عليَّ وعليكم، غير أني قد رأيت رأيًا وعزمت عزمًا وستعرفون حديثي عند الملك ومجاوبتي إياه، فإذا اتَّصل بكم خروجي من عنده فاجتمعوا إليَّ.

وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة.

دخول بيدبا على الملك

ثمَّ إن بيدبا اختار يومًا للدخول على الملك، حتى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مسوحه[٤٦] وهي لباس البراهمة وقصد باب الملك، وسأل عن صاحب إذنه[٤٧] وأُرشِد إليه وسلَّم عليه وأعلمه وقال له: إني رجل قصدت الملك في نصيحة. فدخل الآذن على الملك في وقته وقال: بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا، ذكر أن معه للملك نصيحة، فأذن له فدخل ووقف بين يديه وكفَّر وسجد له واستوى[٤٨] قائمًا وسكت.

وفكر دبشليم في سكوته وقال: إن هذا لم يقصدنا إلاَّ لأمرين: إمَّا أن يلتمس منا شيئًا يصلح به حاله، وإمَّا لأمر لحقه فلم يكن له به طاقه، ثم قال: إن كان للملوك فضل في مملكتها فإن للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال، وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان متى فُقِدَ أحدهما لم يوجد الآخر، كالمتصافيين[٤٩] إن عُدِمَ منهما أحد لم يطب صاحبه نفسًا بالبقاء بعده تأسفًا عليه، ومَنْ لم يَسْتَحْيِ من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم على غيرهم ويصنهم عن المواقف الواهنة وينزههم عن المواطن الرذلة[٥٠] كان ممَنْ حُرِمَ عقله، وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعُدَّ من الجهال.

ثم رفع رأسه إلى بيدبا وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتًا لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغيتك فقلت: إن الذي أسكته هيبة ساورته[٥١] أو حيرة أدركته، وتأملت عند ذلك في

---

[٤٦] مسوحه: جمع مسح وهو ثوب من شعر.

[٤٧] صاحب إذنه: حاجبه.

[٤٨] استوى: نهض.

[٤٩] المتصافيين: المتوادين.

[٥٠] الرذلة: الرديئة.

[٥١] ساورته: غالبته.

طول وقوفك وقلت: لم يكن لبيدبا أن يطرقنا[٥٢] على غير عادة إلاَّ لأمر حرَّكه إلى ذلك؛ فإنه من أفضل أهل زمانه، فهلا نسأله عن سبب دخوله. فإن يكن من ضيم ناله كنت أولى مَنْ أخذ بيده وسارع في تشريفه وتقدَّم في البلوغ إلى مراده وإعزازه. وإن كانت بغيته عرضًا من أعراض الدُّنيا[٥٣] أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب، وإن يكن من أمر الملك ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت في أمر عقوبته، على أن مثله لم يكن ليجترئ[٥٤] على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك، وإن كان شيئًا من أمور الرعية يقصد فيه أن أصرف عنايتي إليهم نظرت ما هو. فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير والجُهَّال يشيرون بضده. وأنا قد فسحت لك في الكلام.

فلمَّا سمع بيدبا ذلك من الملك أُفرِخَ[٥٥] عنه روعه وسُرِّي[٥٦] ما كان وقع في نفسه من خوفه وكفَّر[٥٧] له وسجد ثم قام بين يديه وقال:

> أول ما أقول إني أسال الله تعالى بقاء الملك على الأبد ودوام ملكه على الأمد[٥٨] لأنه قد منحني الملك في مقامي هذا محلاً جعله شرفًا لي على جميع من بعدي من العلماء، وذكرًا باقيًا على الدَّهر عند الحكماء.

ثم أقبل على الملك بوجهه مستبشرًا به فرحًا بما بدا له منه وقال: قد عطف عليَّ الملك بكرمه وإحسانه والأمر الذي دعاني إلى الدخول على الملك وحملني[٥٩] على المخاطرة في كلامه والإقدام عليه نصيحة اختصصته بها دون غيره، وسيعلم مَنْ يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غاية فيما يجب للمولى على الحكماء، فإن فسح في كلامي ووعاه عني فهو حقيق بذلك، وإن هو ألقاه فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني.

---

[٥٢] يطرقنا: يأتينا.

[٥٣] أعراض الدنيا: حطامها ومتاعها.

[٥٤] يجترئ: يتشجع.

[٥٥] أفرخ: ذهب.

[٥٦] سري: زال.

[٥٧] كفَّر: خضع.

[٥٨] الأمد: المدى.

[٥٩] حملني: أغراني.

قال الملك: يا بيدبا تكلَّم مهما شئت فإنني مصغٍ إليك ومقبل عليك وسامع منك حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره وأجازيك على ذلك بما أنت أهله.

قال بيدبا: إني وجدت الأمور التي أُختصَّ بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء وهي جماع ما في العالم، وهي:

> الحكمة والعفة والعقل والعدل. والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل، والحياء والكرم والصيانة والأنفة[٦٠] داخلة في باب العفة، والصدق والإحسان والمراقبة[٦١] وحسن الخلق داخلة في باب العدل.

وهذه هي المحاسن وأضدادها هي المساوئ. فمتى كملت هذه في واحد لم يخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من دنياه ولا إلى نقص من عقباه[٦٢] ولم يتأسف على ما يُعِنِ التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يدهش عند مكروه. فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق،[٦٣] وحلة لا تخلق[٦٤] جدتها، ولذَّة لا تصرم[٦٥] مدَّتها. ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام فإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبته والإجلال له، ولعمري إن الملوك لأهل أن يهابوا ولا سيما مَنْ هو في المنزلة التي جلَّ فيها الملك عن منازل الملوك قبله. وقد قالت العلماء الزم السكوت فإن فيه السلامة، وتجنَّب الكلام الفارغ فإن عاقبته الندامة.

---

[٦٠] الأنفه: الترفُّع عن الدنايا.

[٦١] المراقبة: مخافة الله.

[٦٢] عقباه: آخرته.

[٦٣] الإملاق: الفقر أي لا يفتقر صاحبها.

[٦٤] لا تخلق: لا تبلى.

[٦٥] تصرم: لا تنقطع.

بيدبا الفيلسوف

وحُكِي أن أربعة من العلماء ضمَّهم مجلس ملك فقال لهم: ليتكلم كل منكم بكلام يكون أصلاً للأدب، فقال أحدهم: أفضل خلة[٦٦] العلماء السكوت. وقال الثاني: إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله. وقال الثالث: أنفع الأشياء للإنسان أن لا يتكلم بما لا يعنيه. وقال الرابع: أروح[٦٧] الأمور للإنسان التسليم للمقادير.

واجتمع في بعض الزَّمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدون عنه على غابر الدَّهر. قال ملك الصين: أنا على ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. قال ملك الهند: عجبت لِمَنْ يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه وإن كانت عليه أوبقته.[٦٨] قال ملك فارس: أنا إذا تكلَّمت بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها. قال ملك الروم: ما ندمت على ما لم أتكلم به قط ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيرًا. والسكوت عند الملوك أحسن من الهذر[٦٩] الذي لا يرجع منه إلى نفع. وأعضل[٧٠] ما اُستُضِلَ[٧١] به الإنسان لسانه. غير أن الملك أطال الله مدَّته لَمَّا فسح لي في الكلام، وأوسع لي فيه كان أولى ما أبدأ به من الأمور التي هي غرضي أن تكون ثمرة ذلك له دوني، وأن أختصه بالفائدة قبلي. على أن العقبى[٧٢] هي ما أقصد في كلامي له. وإنما نفعه وشرفه راجع إليه وأكون قد قضيت فرضًا وجب عليَّ فأقول:

> أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك وشيَّدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا[٧٣] البلاد، وقادوا الجيوش، واستجاشوا[٧٤]

[٦٦] خلة: خصلة.

[٦٧] أروح: تفضيل من الراحة.

[٦٨] أوبقته: أهلكته.

[٦٩] الهزر: سقط الكلام.

[٧٠] أعضل: أقبح.

[٧١] استضل: حُمِلَ على الضلال.

[٧٢] العقبى: العاقبة.

[٧٣] مهدوا: أصلحوا.

[٧٤] استجاشوا: جمعوا.

العدَّة، وطالت لهم المدَّة، واستكثروا من السلاح والكراع[٧٥] عاشوا الدُّهور في الغبطة والسرور، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر واستعمال الإحسان إلى مَنْ خولوه[٧٦] والرفق بمَنْ وُلُّوه وحسن السيرة فيما تقلَّدوه، مع عظم ما كانوا فيه من غرَّة[٧٧] الملك وسكرة الاقتدار.

وإنك أيها الملك السعيد جده الطالع كوكب سعده قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدَّتهم، فأقمت فيما خُوِّلت من الملك وورثت من الأموال والجنود، ولم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت وعتوت[٧٨] وعلوت على الرعية وأسأت السيرة وعظمت منك البلية. وكان الأولى والأشبه[٧٩] بك أن تسلك سبيل أسلافك وتتبع آثار الملوك قبلك وتقفو[٨٠] محاسن ما أبقوه لك وتقلع عما عاره لازم لك وشينه[٨١] واقع بك، وتحسن النظر برعيتك، وتسنُّ لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره، ويعقبك[٨٢] الجميل فخره، ويكون ذلك أبقى على السلامة، وأدوم على الاستقامة. فإن الجاهل المغترَّ مَنْ استعمل في أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق.

فانظر أيها الملك فيما ألقيت إليك، ولا يثقلن عليك. فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به، ولا التماس معروف تسوقه إليَّ ولكني أتيتك ناصحًا مشفقًا عليك.

---

[٧٥] الكراع: الدواب.

[٧٦] خولوه: ملكوه.

[٧٧] غرَّة: الاسم من الاغترار، بمعناه.

[٧٨] عتوت: استكبرت.

[٧٩] الأشبه: أي الأليق.

[٨٠] تقفو: تتبع.

[٨١] شينه: عيبه.

[٨٢] يعقبك: أي يورثك.

بيدبا في السجن

فلمَّا فرغ بيدبا من مقالته وقضى مناصحته أوغر[٨٣] قلب الملك فأغلظ له في الجواب؛ استصغارًا لأمره وقال: لقد تكلَّمت بكلام ما كنت أظن أن أحدًا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله ولا يقدم على ما أقدمت عليه. فكيف أنت مع صغر شأنك وضعف منتك[٨٤] وعجز قوتك! ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك عليَّ وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدَّك، وما أجد في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بكم، فذلك عبرة وموعظة لَمَنْ عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم. ثم أمر به أن يُقْتَلَ ويُصْلَبَ.

فلمَّا مضوا به فكَّر فيما أمر به؛ فأحجم عنه ثم أمر بحبسه وتقييده.

فلمَّا حُبِسَ أنفذ الملك في طلب تلامذته ومَنْ كان يجتمع إليه فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار؛ فمكث بيدبا في محبسه أيامًا لا يسأل الملك عنه ولا يلتفت إليه ولا يجسر أحد أن يذكره عنده.

حتى إذا كان ليلة من الليالي سهد[٨٥] الملك سهدًا شديدًا وطال سهده. فمدَّ إلى الفلك بصره وتفكَّر في تفلك[٨٦] الفلك وحركات الكواكب؛ فأغرق الفكر فيه فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك والمسألة عنه. فذكر عند ذلك بيدبا وتفكَّر فيما كلَّمه فيه. فارعوى[٨٧] لذلك وقال في نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيَّعت واجب حقه وما حملني على ذلك إلاَّ سرعة الغضب وقد قالت العلماء: أربعة لا ينبغي أن تكون في الملك: الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتًا، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده[٨٨] والكذب فإنه ليس لحدٍ أن يجاوره، والعنف في المحاورة فإن السفه ليس من شأنها، وإني أتى إليَّ رجل نصح لي ولم يكن مبلَّغًا فعاملته بضد ما يستحق وكافأته بخلاف ما يستوجب. وما كان هذا جزاؤه مني، بل كان الواجب أن أسمع كلامه وأنقاد لما يشير به، ثم أنفذ لساعته مَنْ يأتيه به.

[٨٣] أوغر: ملأه غيظًا.

[٨٤] منتك: إحسانك.

[٨٥] سهد: طار نومه.

[٨٦] تفلك: استدارة.

[٨٧] ارعوى: رجع عن رأيه.

[٨٨] ذات يده: ميسرته.

تولية بيدبا على جميع المملكة

فلمَّا مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألست الذي قصدت إلى تقصير همتي وعجَّزت رأيي في سيرتي بما تكلَّمت به آنفًا؟ قال له بيدبا: أيها الملك الناصح الشفيق والصادق الرفيق، إنما نبأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك ودوام ملكك لك. قال له الملك: يا بيدبا أعد عليَّ كلامك كله ولا تدع منه حرفًا إلاَّ جئت به. فجعل بيدبا ينثر كلامه والملك مصغٍ إليه. وجعل دبشليم كلَّما سمع منه شيئًا ينكت[٨٩] الأرض بشيء كان في يده، ثم رفع طرفه إلى بيدبا وأمره بالجلوس وقال له: يا بيدبا إني قد استعذبت كلامك وحسن موقعه في قلبي وأنا ناظر في الذي أشرت به وعامل بما أمرت.

ثم أمر بقيوده فحُلَّت وألقى عليه من لباسه وتلقَّاه بالقبول. فقال بيدبا: أيها الملك إن في دون ما كلَّمتك به نُهية لمثلك. قال: صدقت أيها الحكيم الفاضل، وقد وليتك من مجلسي هذا إلى جميع أقاصي مملكتي. فقال له: أيها الملك أعفني من هذا الأمر فإني غير مضطلع بتقويمه إلاَّ بك، فأعفاه من ذلك.

فلمَّا انصرف علم أن الذي فعله ليس برأي. فبعث فردَّه وقال: إني فكرت في إعفائك مما عرضته عليك فوجدته لا يقوم إلا بك ولا ينهض به غيرك ولا يضطلع به سواك فلا تخالفني فيه؛ فأجابه بيدبا إلى ذلك.

وكان عادة أهل ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرًا أن يعقدوا على رأسه تاجًا ويركب في أهل المملكة ويطاف به في المدينة، فأمر الملك أن يُفعَلَ ببيدبا ذلك؛ فوُضِعَ التاج على رأسه، وركب في المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف يأخذ للدنيء من الشريف، ويساوي بين القوي والضعيف، وردَّ المظالم ووضع سنن العدل، وأكثر من العطاء والبذل، واتصل الخبر بتلامذته فجاءوا من كل مكان فرحين بما جدَّد الله له من جديد رأي الملك فيه. وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيدًا يعيِّدون فيه، فهو إلى اليوم عيد يعيِّدونه في بلاد الهند.

ثم إن بيدبا لَمَّا أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم تفرَّغ لوضع كتب السياسة ونشط لها؛ فعمل كتبًا كثيرة فيها دقائق الحيل، ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن

---

[٨٩] ينكت: يضربها بقضيب أو نحوه حال التفكُّر.

السيرة والعدل في الرعية؛ فرغبت إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه، وانقادت له الأمور على استوائها، وفرحت به رعيته وأهل مملكته.

ثم إن بيدبا جمع تلامذته فأحسن صلتهم ووعدهم وعدًا جميلاً. وقال لهم: لست أشك أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم إن بيدبا قد ضاعت حكمته وبطلت فكرته إذا عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغي، فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري وأني لم آته جهلاً به؛ لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب.

فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء.

والواجب على الملوك أن يتَّعظوا بمواعظ العلماء، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل؛ فوجدت ما قالت العلماء فرضًا واجبًا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من سنة[٩٠] سكرتهم. كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردُّها إلى الصحة.

فكرهت أن يموت أو أن أموت وما يبقى على الأرض إلا مَنْ يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه. فإن قال قائل إنه لم يمكنه أن يكلمه خوفًا على نفسه قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به والانزعاج[٩١] عن الوطن شديد؛ فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرًا. فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده، وكان من ذلك ما أنتم معاينوه. فإنه يقال في بعض الأمثال: إنه لم يبلغ أحد مرتبةً إلا بإحدى ثلاث: إمَّا بمشقة تناله في نفسه، وإمَّا بوضيعةٍ[٩٢] في ماله، أو وكسٍ[٩٣] في دينه، ومَنْ لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

وغن الملك دبشليم قد بسط[٩٤] لساني في أن أضع كتابًا في ضروب الحكمة. فليضع كل واحدٍ منكم شيئا في أي فن شاء وليعرضه عليَّ لأنظر مقدار عقله وأين بلغ من الحكمة فهمه.

---

[٩٠] سنة: نوم.

[٩١] الانزعاج: التحوُّل والانتقال.

[٩٢] وضيعة: خسارة.

[٩٣] وكس: نقصان.

[٩٤] بسط: أي أطلق.

قالوا: أيها الحكيم الفاضل واللبيب العاقل، والذي وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل والأدب والفضيلة، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط، وأنت رئيسنا وفاضلنا وبك شرفنا وعلى يدك انتعاشنا، ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت.

ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانًا يتولى له ذلك بيدبا ويقوم به.

ندب الملك بيدبا لوضع الكتاب

ثم إن الملك دبشليم لَمَّا استقرَّ له الملك وسقط عنه النظر في أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا، صرف همته إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده؛ فوقع في نفسه أن يكون له أيضًا كتاب مشروح ينسب إليه وتذكر فيه أيامه كما ذُكِرَ آباؤه وأجداده من قبله.

فلما عزم على ذلك علم أنه لا يقوم[٩٥] إلا بيدبا. فدعاه وخلا به وقال له: يا بيدبا إنك حكيم الهند وفيلسوفها. وإني فكرَّت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي، فلم أر فيهم أحدًا إلاَّ قد وضع كتابًا يذكر فيه أيامه وسيرته وينبئ عن أدبه وأهل مملكته. فمنه ما وضعته الملوك لأنفسها وذلك لفضل حكمة فيها، ومنه وما وضعته حكماؤها، وأخاف أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة لي فيه ولا يوجد في خزائني كتاب أُذكَر به بعدي وينسب إليَّ كما ذكر مَنْ كان قبلي بكتبهم، وقد أحببت أن تضع لي كتابًا بليغًا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها على طاعة الملك، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرَّعيَّة، فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما تحتاج إليه في معاناة الملك، وأريد أن يبقي لي هذا الكتاب ذكرًا على غابر الدُّهور.

فلمَّا سمع بيدبا كلامُه خرَّ له ساجدًا ورفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جدُّه، علا نجمك وغاب نحسك ودامت أيامك، إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركه إلى عالي الأمور وسمت به نفسه وهمته إلى أشرف المراتب منزلة، وأبعدها غاية، وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك وأعانني على بلوغ مراده. فليأمر الملك بما شاء من ذلك فإنني صائر[٩٦] إلى غرضه مجتهد فيه برأيي.

---

[٩٥] يقوم: لا يكون.

[٩٦] صائر: منتهٍ وواصل.

قال له الملك: يا بيدبا لم تزل موصوفًا بحسن الرأي وطاعة الملوك في أمورهم. وقد اختبرت منك ذلك واخترت أن تضع هذا الكتاب وتعمل فيه فكرك وتجهد فيه نفسك بغاية ما تجد إليه السبيل، وليكن مشتملاً على الجدِّ والهزل واللهو والحكمة والفلسفة.

فكفَّر له بيدبا وسجد وقال: قد أجبت الملك أدام الله أيامه إلى ما أمرني به وجعلت بيني وبينه أجلاً.[٩٧] قال: وكم الأجل؟ قال: سنة. قال: قد أجلتك. وأمر بجائزة سنية تعينه على عمل الكتاب؛ فبقي بيدبا مفكرًا في الأخذ فيه، وفي أي صورة يبتدئ بها فيه وفي وضعه.

كيفيه وضع الكتاب وترتيبه

ثم إن بيدبا جمع إليه تلامذته وقال لهم: إن الملك قد ندبني إلى أمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم. وقد جمعتكم لهذا الأمر، ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب والغرض الذي قصد فيه. فلم يقع لهم الفكر فيه.

فلمَّا لم يجد عندهم ما يريده فكَّر بفضل حكمته أن ذلك أمر إنما يتمُّ باستفراغ العقل وإعمال الفكر، وقال: أرى السفينة لا تجري في البحر إلاَّ بالملاحين؛ لأنهم يعدلونها، وإنما تسلك اللجة[٩٨] بمدبرها الذي تفرَّد بإمرتها. ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق.

ولم يزل يفكِّر فيما يعمله في باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه مع رجل من تلاميذه كان يثق به؛ فخلا به منفردًا معه بعد أن أعدَّ من الورق الذي كانت تكتب فيه الهند شيئًا، ومن القوات ما يقوم به وبتلميذه تلك المدَّة وجلسا في مقصورة وردَّا عليهما الباب، ثم بدأ في نظم الكتاب وتصنيفه، ولم يزل هو يملي وتلميذ يكتب ويرجع هو فيه حتى استقرَّ الكتاب على غاية الإتقان والإحكام، ورتَّب فيه خمسة عشر باباً، كل بابٍ منها قائم بنفسه، وفي كل باب مسألة والجوابُ عنها، ليكون لِمَنْ نظر فيه حظ من التبصرة والهداية، وضمَّ تلك الأبواب كتابًا واحدًا وسمَّاهُ كتاب «كليلة ودمنة».

ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهوًا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمَّنه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة

---

[٩٧] أجلاً: موعدًا.

[٩٨] اللجة: معظم الماء.

نفسه وأهله وخاصته، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته وأولاه[٩٩] ويحضُّه على حسن طاعته للملوك ويجنبه ما تكون مجانبته خيرًا له، ثمَّ جعله باطنًا وظاهرًا كرسم سائر الكتب التي برسم الحكمة؛ فصار الحيوان لهوًا وما ينطق به حكمًا وأدبًا.

فلمَّا ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق. كيف يكون الصديقان وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة، وأمر تلميذة أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه[١٠٠] في أن يجعله لهوًا وحكمة، فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة أفسدها واستجهل حكمتها.

فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك حتى فتَّق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين. فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم، وكانت الحكمة ما نطقا به؛ فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو وعلموا أنها السبب في الذي وضع لهم، ومالت إليه الجُهَّال عجبًا من محاورة بهيمتين ولم يشكوا في ذلك واتخذوا لهوًا وتركوا معنى الكلام أن يفهموه ولم يعلموا الغرض الذي وضع له؛ لأن الفيلسوف إنما كان غرضه في الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تتأكد المودَّة بينهم على التحفُّظ من أهل السعاية[١٠١] والتحرُّز ممَنْ يوقع العداوة بين المتحابين ليجرَّ بذلك نفعًا إلى نفسه.

فلم يزل بيدبا وتلميذه في المقصورة حتى استتمَّ عمل الكتاب في مدَّة سنة.

عرض الكتاب على الملك وأهل المملكة

فلمَّا تمَّ الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد فإذا صنعت؟ فأنفذ إليه بيدبا: إني على ما وعدت الملك فليأمرني بحمله بعد أن يجمع أهل المملكة؛ لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم.

فلمَّا رجع الرسول إلى الملك سرَّ بذلك ووعده يومًا يجمع فيه أهل المملكة، ثم نادى في أقصى بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب.

---

[٩٩] أولاه: أي حياته.

[١٠٠] شرطه: اشترطه.

[١٠١] السعاية: النميمة.

فلمَّا كان ذلك اليوم أمر الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره وكراسي لبناء الملوك والعلماء وأنفذ فأحضره.

فلمَّا جاءه الرسول قام فلبس الثياب التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهي المسوح السود وحمل الكتاب تلميذه.

فلمَّا دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم وقام الملك شاكرًا، فلمَّا قرب من الملك كفَّر له وسجد ولم يرفع رأسه. فقال له الملك: يا بيدبا ارفع رأسك فإن هذا يوم هناء وفرح وسرور، وأمره الملك أن يجلس. فحين جلس لقراءة الكتاب سأله الملك عن معنى كل باب من أبواب الكتاب وإلى أي شيء قصد فيه؛ فأخبره بغرضه فيه وفي كل باب، فازداد الملك منه تعجبًا وسرورًا، فقال له: يا بيدبا ما عدوت[١٠٢] الذي في نفسي وهذا الذي كنت أطلب فاطلب ما شئت وتحكَّم، فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجدِّ[١٠٣] وقال: أيها الملك أمَّا المال فلا حاجة لي فيه، وأمَّا الكسوة فلا أختار على لباسي هذا شيئًا. ولست أخلي[١٠٤] الملك من حاجة. قال الملك يا بيدبا ما حاجتك فكل حاجة لك قبلنا[١٠٥] مقضية! قال: يأمر الملك أن يدوَّن كتابي هذا كما دوَّن آباؤه وأجداده كتبهم. ويأمر بالمحافظة عليه؛ فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به فالملك يأمر أن لا يخرج من بيت الحكمة.

ثم دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز. ثم إنه لمَّا ملك كسرى أنوشروان وكان مستأثرًا[١٠٦] بالكتب والعلم والأدب والنظر في أخبار الأوائل وقع إليه خبر الكتاب، فلم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلطَّف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقرَّه[١٠٧] في خزائن فارس.

[١٠٢] عدوت. جاوزت.

[١٠٣] الجدِّ: بمعنى السعادة.

[١٠٤] أخلي: أي أعفيه.

[١٠٥] قبلنا: عندنا.

[١٠٦] مستأثرًا: منفردًا.

[١٠٧] أقرَّه: أثبته.

الفصل الأول

باب بعثة الملك كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز برزويه بن أزهر الطبيب إلى الهند في تحصيل هذا الكتاب

الحمد لله الذي بيده مفاتيح غيبه وإليه منتهى كل علم وغاية، الدَّال على الخير المسبب كل فضيلة. ألهم عباده كل ما يقربهم إليه من نوافل[1] الخيرات، ونوامي البركات، لما أمر الله تعالى عباده من العلم والحكمة إذا أمرهم بالشكر له ليستوجبوا بذلك المزيد منه ويسارعوا فيما يرضيه عنهم، تبارك الله رب العالمين.

كسرى أنوشروان

وقد جعل الله لكل مسبب علة ولكل علة مجرى يجريها الله تعالى به على يد عبد من عبيده ويقدرها له على أيام دولته وأيام غمره، وذلك أن ما كان من علم انتساخ هذا الكتاب ونقله من أرض الهند إلى مملكة فارس إلهام ألهمه الله تعالى كسرى أنوشروان للبعث في نقله ونسخه؛ لأنه كان أكبر ملوك الفرس، وأكثرهم حكمة، وأسدهم رأيًا، وأرشدهم تدبيرًا، وأحبهم للعلوم، وأبحثهم عن مكامن العلم والأدب، وأحرصهم على الخير وتقرُّبه إلى الله تعالى وإلى اقتناء ما يزينه بزينة الحكمة من طالبي الأدب والعلم في معرفة الخير والشر، والنفع والضرِّ، والصديق والعدوِّ.

[1] نوافل: جمع نافلة؛ وهي ما يستحسن عمله ولا يجب.

ولم يكن يعرف ذلك إلاَّ بنور الله تعالى في سياسته عبيده وبلاده لإقامة رعيته وأموره، وهو الملك المعظَّم في قومه كسرى المتزين بزينة البهاء الفاضل الماجد الرشيد السعيد الذي لم يعد له أحد ممَنْ مضى قبله من ملوك الفرس، النَّاقد البصير الكامل الأدب، المعينة له نفسه على التماس فروع الحكم، المستعين بنور العقل وجودة الفكر، الذي اختَّصه الله تعالى بهذه النعمة السابغة حتى أذعنت له الرَّعيَّة وطاعت لسلطانه البرية، وصفت له الدنيا ودانت له البلاد، وانقادت له الملوك وركنت إلى طاعته وخدمته ومناصحته وذلك منحة من الخالق جلَّ وعلا قسمها في دولته وجمَّله بها في أقطار مملكته.

فبينما هو ذات يوم في عنفوان دولته وشمخها وعزَّة مملكته وقعسها[٢] إذ أخبره بعض جلسائه أن عند بعض ملوك الهند في خزائنه كتابًا من تآليف الحكماء وتصانيف العلماء واستنباط الفضلاء، وقد فصلت له غرائب من عجائبه الموضوعة على أفواه البهائم والطير والوحش والهوام وخشاش[٣] الأرض، مما يحتاج إليه الملوك لسياسة رعيتها ونظام أمور ممالكها وتدبيرها؛ فدعته الحاجة إلى اقتناء هذا الكتاب لكمال ملكه وأنه بعدمه ناقص وبتحصيله كامل، وباتباعه يحصل على رضا الخالق جلَّ وعلا وانقياد المخلوق له وزجره عن المعاصي التي يتبعها شرار[٤] الخلق ويتجنبها أصفاهم جوهرًا وأجودهم طبعًا وأنبغهم حسبًا.

إيفاد برزويه إلى الهند لنسخ الكتاب

وإنه لَمَّا عزم على ما أراد من أمره وهمَّ باقتنائه ونسخه قال في نفسه: مَنْ لهذا الأمر العظيم والخطب الجسيم والأدب النفيس الذي به تتكمَّل الفضائل، ولم تتزين به ملوك الهند دون ملوك فارس؟ وقد هممت أن لا أدع مشقة ولا صعوبة ولا مخاطرة حتى أبذلها في طلب هذا الكتاب حتى أصل إلى نسخه واقتنائه على ترتيب منافعه وعجائبه من أقوال الحكماء ووضع العلماء، ليقع[٥] لنا استنباطه دون سائر الملوك من أحاديث معجبة

[٢] قعسها: منعتها وعزَّتها.

[٣] خشاش: الحشرات مطلقًا.

[٤] شرار: أشرار.

[٥] يقع: يثبت.

وفضائل محكمة يكاد العقل يمدُّ يدًا إلى اجتناء ثمرها، ويفتح فمًا للذيذ مذاقها، ويتعلق بوثيق[٦] حبلها؛ إذ يروض[٧] النفس بالعدول عن مساوئها، ويعدل بها عن تتبع أهوائها.

فلمَّا فحص كسرى رأيه السديد وعزمه الرشيد فيما صمم عليه وهمَّ به قال: الأمر في ذلك جليل والخطب عظيم والشقة[٨] بعيدة والمسافة طويلة شاقة، ولا بد من أن ننتخل[٩] من أهل الكتابة أصلبهم عودًا[١٠] وأجودهم عزمًا وحزمًا. وهذا يوجد إمَّا في كتاب الديوان وإمَّا في الطب الخاص؛ لأن الخاص والعام تجمع مسالكهما جميع الفضائل والأدب وفنون العلم ومحض[١١] الحكم في أناة وتوءدة[١٢] وبلوغ الأغراض لملوكها بحسن الحيل وجودة الذهن وكمال المروءة وكتمان السر وإظهار أضدادها.

فلمَّا تمَّ عزمه وانتظم سأل وزراءه أن يتقدَّموا ويجتهدوا في تطلب رجل كامل عالم أديب، قد جمع الفضائل بحذافيرها[١٣] ونُسِبَ إلى الكمال من أهل الصنفين المذكورين، إمامًا كاتبًا نحريرًا[١٤] أو طبيبًا فيلسوفًا ماهرًا قد أدَّبته التجارب، عارفًا بلسان الفارسية خبيرًا باللغة الهندية، يكتبهما جميعًا، حريصًا على العلم، مجتهدًا في الأدب، مواظبًا على الطب أو الفلسفة فيأتوه به.

فخرج أهل مشورته ووزارؤه مسرعين، فبحثوا عمَنْ هذه صفته فوجدوه وظفروا به، فإذا هو شاب جميل الوجه كامل العقل والأدب ذو حسب وصناعة وشريفة يُعرَفُ بها وهي الطب، وكان ماهرًا في الفارسية والهندية، وهو برزويه بن أزهر الفيلسوف، وكان من فضلاء أطباء فارس؛ فأُحْضِر بين يدي الملك كسرى فخرَّ ساجدًا وعفَّر[١٥] وجهه طاعة للملك.

---

[٦] وثيق: محكم متين.
[٧] يروض: يثقِّف ويهذِّب.
[٨] الشقة: السفر.
[٩] ننتخل: أي نختار.
[١٠] أصلبهم عودًا: أحذقهم طبعًا.
[١١] محض: خالص.
[١٢] توءدة: تأن.
[١٣] بحذافيرها: بأسرها.
[١٤] نحريرًا: عالمًا متقنًا.
[١٥] عفَّر: مرَّغ.

فشرح له الأمر بمحضر من وزرائه وخواصه وأهل مملكته وقال له:

أيها الحكيم الفاضل، إني تقدَّمت إلى وزراء دولتي وأهل نصيحتي أن ينظروا لي رجلاً كامل الفضل قد جهد نفسه في طلب العلوم واقتناء الفضائل، كاتمًا لأسرار الملوك، أطلعه على ما انطوى عليه ضميري وأوصله إلى مكنون[١٦] سري، فيأخذ ذلك بقبول وإقبال وسياسة وإذعان، ويظهر الخدمة ويمحض[١٧] المهنة ويبذل الاجتهاد في بلوغ الملك مناه وأمله، ويميِّزه على سائر ملوك الدول ليصل إلى مطلوبه. ويتكافأ على ذلك بما يبقى في عقبه[١٨] باذلاً نفسه فيما لسلطانه.

وقد ذكر عنك فضائل كثيرة وحكم شريفة أنت بفراستك أهل لها وينبوع تصدر عنك. فكن عند رجاء الوزراء والأصفياء فيك، وأنزل نفسك هذه المنزلة التي تُخيِّرت لها، وأنفق من سعة[١٩] وتسبب بأسباب[٢٠] من صفا جوهره وطاب عنصره، وارتفع بعلمه وحلمه وطاعة بارئه بطاعة سلطانه التي أمر باتباعها ونهى وزجر عن الخروج عنها، فإني قد اخترتك لما بلغني من فضلك وعلمك وعقلك وحرصك على طلب العلم حيث كان، وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم، وقصَّ عليه قصته وما بلغه عنه، وقال له:

تجهَّز فإني مرحِّلك إلى أرض الهند؛ فتلطَّف في ذلك بعقلك وحسن أدبك ونافذ رأيك لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم وحكمائهم تامًا كاملاً مكتوبًا بالفارسية فتستفيده أنت وتفيدنا إياه، وما قدرت عليه من كتب الهند ما ليس في خزائننا منه شي فاحمله معك، وقد أمرنا أن يطلق لك من أموالنا ما تختار وتحتاج إليه، فإذا نفد ما تستصحبه فاكتب إلينا نمدُّك بالمال وإن كثرت فيه النفقة. فإن جميع ما في خزائننا مبذول لك في طلب العلوم وهذا

[١٦] مكنون: مستور.

[١٧] يمحض: يخلص.

[١٨] عقبه: ولده من بعده.

[١٩] أنفق من سعة: أي توسَّع في إنفاق المال.

[٢٠] تسبب بأسباب: أي توسَّل بوسائل.

الكتاب. فطب نفسًا وقر[٢١] عينًا وعجِّل في ذلك ولا تقصِّر في طلب العلوم، واعمل على مسيرك إن شاء الله تعالي.

قال برزويه: أيها الملك عشت دهرًا طويلاً سعيدًا، وملكت الأقاليم السبعة في خفض[٢٢] ودعة[٢٣] مؤيدًا منصورًا، إنما أنا عبد من عبيدك وسهم من سهامك فليرم بي الملك حيث شاء من الأرض، من بعد أن يأذن الملك أدام الله أيامه في غبطة وسرور أن يعقد لي مجلسًا قبل سفري يحضره الخواص؛ ليعلم أهل الطاعة والمملكة ما استخصني به الملك ورآني أهلاً له ونوِّه باسمي[٢٤] فليفعل ذلك منعمًا على العبد الطائع.

فقال الملك: يا برزويه قد رأيتك لذلك أهلاً، وأجبتك إلى ما طلبت وأذنت لك فيما سألت، فافعل من ذلك حسب ما تراه موافقًا لك منوهًا باسمك.

ثم خرج برزويه من بين يدي الملك فرحًا مسرورًا. وأعد له الملك يومًا أمر أن يُجْمَعَ له فيه أهل مملكته وخواص أمراء دولته، ثم أمر أن يُنْصَبَ له منبرٌ فنُصِبَ ورقي عليه برزويه ثم قال:

> أمَّا بعد فإن الله، تبارك وتعالى، خلق خلقه برحمته ومنَّ على عباده بفضله وكرمه، ورزقهم من العقل ما يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدُّنيا ويدركون به استنقاذ[٢٥] أرواحهم من العذاب في الآخرة، وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومنَّ به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء، والذي لا يقدر أحدٌ في الدُّنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلا بفيضه من الخالق المبدع الواحد الأحد.

[٢١] قر: يُكنَّى بقرَّة العين عن السرور والغبطة.

[٢٢] خفض: سعة عيش.

[٢٣] دعة: سكينة.

[٢٤] نوِّه باسمي: ارفعه.

[٢٥] استنقاذ: إنجاء.

وكذلك طالب الآخرة الزاهد المجتهد في العمل المنجي به نفسه من عماية[٢٦] الضلال لا يقدر على إتمام عمله وإكماله ولا يتمُّ له ذلك إلا بالعقل الذي هو السبب الموصل إلى كل خير، والمفتاح لكل سعادة، والمبلغ إلى دار الخلود. فليس لأحد عنه غنى ولا بغيره اكتفاء.

والعقل غريزي مطبوع ويتزايد بالتجارب والأدب، وغريزته مكنونة في الإنسان كامنة فيه كمون النار في الحجر؛ فإن النار طبيعتها فيه كامنة لا تظهر ولا يُرَى ضوؤها حتى يظهرها قادح من غيرها، فإذا قدحها ظهرت طبيعتها بضوئها وحريقها، وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتعضِّده[٢٧] التجارب. فإذا استحكم كان أولى بالتجارب؛ لأنه هو المقوي لكل فضيلة والمعين على دفع كل رذيلة فلا شيء أفضل من العقل إذا منَّ الله تعالى على عبده وأعانه على نفسه بالمواظبة على طرق الأدب والعلم والحرص على ذلك. ومن رُزِقَ العقل ومُنَّ به عليه وأعين على صدق قريحته بالأدب حرص على طلب سعد جدِّه[٢٨] وأدرك في الدنيا أمله وحاز في الآخرة ثواب الصالحين؛ فالعقل هو المقوي للملك على ملكه. فإن السوقة[٢٩] والعوام لا يصلحون إلا بإفاضة ينبوع العدل الفائض عن العقل لأنه سياج الدولة.

وقد رزق الله ملكنا السعيد كسرى أنوشروان من العقل أفضل الحظ وأجزله[٣٠] ومن العلم أجمله وأكمله، ومن المعرفة بالأمور أصوبها، وسدَّده[٣١] من الأفعال إلى أسدِّها[٣٢] ومن البحث عن الأصول والفروع إلى أنفعه. وبلغه من فنون اختلاف العلم وبلوغ منزلة الفلسفة ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله، وكان هو القابل لذلك بجودة المادة القابلة لانطباع الصور؛ فبلغ بذلك الرُّتبة القصوى في الفضل على مَنْ مضى من الملوك قبله. حتى كان فيما طلب وبحث عنه وسمت إليه نفسه من العلم أن بلغه عن كتاب بالهند من كتب فلاسفتها وعلمائها مخزون عند ملوكهم. علم أنه أصل كل أدب، ورأس كل علم، والدليل

---

[٢٦] عماية: ضد الهداية.

[٢٧] تعضِّده: تعينه.

[٢٨] جدِّه: عظمته.

[٢٩] السوقة: الرعية.

[٣٠] أجزله: أعظمه.

[٣١] سدَّده: أرشده.

[٣٢] أسدَّها: أصوبها.

على كل منفعة، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها ومعرفة النجاة من أهوالها، والمقوِّي على جميع الأمور، والمعين على ما يحتاج إليه الملوك في تدبيرهم لأمور ممالكهم وآداب السوقة فيما يرضون به ملوكهم ويصلحون به معايشهم، وهو كتاب «كليلة ودمنة». فلمَّا تيقن ما بلغه عن ذلك الكتاب وكشف عما فيه من المنافع من تقويه العقل والأدب رآني أهلاً لذلك وندبني إلى استخراجه، والله الموفِّق، والسلام.

سفر برزويه ونسخه الكتاب

فعند ذلك ظهر للملك علمه ونجابته وشهامته، فسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا، ثم أمر الملك عند ذلك بإحضار المنجمين وأن يتخيَّروا له يومًا سعيدًا وطالعًا[٣٣] صالحًا وساعة مباركة ليتوجه فيها؛ فاختاروا له يومًا يسير فيه، وساعة صالحة يخرج فيها.

فسار برزويه بطالع سعد وحمل معه من المال عشرين جرابًا، كل جراب فيه عشرة آلاف دينار، وتوجَّه جادًا في طلب حاجته نهارًا ليلاً، حتى قدم بلاد الهند، فجعل يطوف بباب الملك ومجالس السوقة ويجالس الحكماء ويسأل عن خواص الملك والأشراف من جلسائه والعلماء والفلاسفة، وجعل يغشاهم[٣٤] في مجالسهم ويتلقاهم بالتحية والسلام، ويخبرهم أنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلم والأدب والبحث عنه ورياضته[٣٥] به، وأنه محتاج إلى معونتهم فيما يطلب من ذلك، ويسألهم بذل الدعاء له ببلوغ آماله مع شدَّة كتمانه لما قدم بسببه ودفنه لسره. فلم يزل كذلك زمانًا طويلاً يتأدَّب على علماء الهند بما هو عالم بجميعه وكأنه لا يعلم منه شيئًا. وهو فيما بين ذلك يستر بغيته وحاجته، وفي أثناء ذلك يبحث في مطلوبه بحنكة[٣٦] وسياسة وعفة ونزاهة، واتخذ في تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء أصفياء كثيرين كلهم من أهل الهند من الأشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن أهل كل طبقةٍ وصناعة.

---

[٣٣] طالعًا: أي ما يُتفَاءلُ به من السعد والنحس بطلوع الكواكب، والطالع عندهم جزء من منطقة البروج يكون على الأفق الشرقي في وقت مخصوص.

[٣٤] يغشاهم: يأتيهم.

[٣٥] رياضته: تهذيب أخلاقه.

[٣٦] حنكة: اسم من حنكت السنُّ الرَّجل؛ أي جعلته حكيمًا.

وكان قد اتخذ من بين أصدقائه وأصفيائه رجلاً واحدًا اصطفاه لسره واختَّصه لمشورته؛ للذي ظهر له من فضله وأدبه وحكمته وفهمه وكتمانه لسرِّ نفسه ولما استبان له من صحة إخائه، وكان يشاوره في الأمور ويرتاح إليه في جميع ما أهمه. إلاَّ أنه كان يكتم عنه الأمر الذي قدم من أجله؛ حتى يبلوه ويختبره وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سره، ولم يزل يبحث عنه ويجتهد في أمره حتى وثق به وثوق الأكفاء[٣٧] بالأكفاء، وعلم أنه محلٌّ لكشف الأسرار الجليلة الخطيرة، وأنه مأمون على ما يستودع من ذلك غير خائن صديق صدق، ثم زاد له إلطافًا[٣٨] وبه احتفاءً وعليه حنوًا إلى أن حضر اليوم الذي رجا فيه بلوغ أمنيته والظفر بحاجته، مع طول الغيبة وعظم النفقة في استلطاف الإخوان ومجالستهم على الطعام والشراب.

وإنه لما وثق بصديقه الهندي الذي تقدَّم ذكره وأنس به وسبر[٣٩] عقله واطمأن إليه في سرِّه قال له يومًا وهما خاليان: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري فوق الذي كتمتك؛ لأنك أهل لذلك، فأعلم أني لأمر قدمت بلادكم وهو غير الذي يظهر مني، والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره وإشارته، فيعلم بذلك سرَّ نفسه وما يضمره قلبه.

فقال له صديقه الهندي: إني وإن لم أكن بدأتك أخبرتك بما له جئت وإياه تريد وإليه قصدت وإنك تكتم ما تطلبه وتظهر غيره فما خفي عليَّ ذلك منك ولا ذهب عني ما كتمته، ولكني لرغبتي فيك وفي إخائك كرهت أن أواجهك بذلك وأفاجئك به؛ لأني قد ظهر لي ما تكتم وبان لي ما أنت له مخفٍ، فأمَّا إذ قد أظهرت ذلك وأفصحت به من نفسك فإني مخبرك عن سرِّ حاجتك التي قدمت بسببها وأطلت مقامك في طلبها؛ وذلك أنك إنما وطئت أرضنا وقدمت إلى بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة فتذهب بها إلى بلادك وتسرُّ بها ملكك، وكان قدومك إلينا بالمكر ومصادقتك لنا بالخديعة. ولكني لمَّا رأيت صبرك ومواظبتك على طلب حاجتك والتحفظ من أن تسقط في الكلام مع طول مكثك عندنا على كتم أمرك بشيء يستدل به على سريرتك وأمورك ازددت رغبة في إخائك وثقة بعقلك وأحببت مودتك. فإني لم أر في الرجال رجلاً هو أرصن[٤٠] منك عقلاً ولا أصبر على طلب العلم، ولا أكتم لسره ولا سيما في بلاد غربةٍ ومملكة غير مملكتك وعند قوم لا تعرف سننهم ولا شيمهم.

[٣٧] الأكفاء: الأمثال والنظراء.

[٣٨] إلطافًا: إكرامًا.

[٣٩] سبر: أي امتحن.

[٤٠] أرصن: أثبت وأحكم.

وإن عقل الرجل ليبين في خصال ثمانٍ: الأولى منها الرفق، والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها، والثالثة طاعة الملوك والتحري لما يرضيهم، والرابعة معرفة الرجل موضع سرِّه وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديبًا مَلِقَ[٤١] اللسان، والسادسة أن يكون لسرِّه ولسرِّ غيره حافظًا، والسابعة أن يكون على لسانه قادرًا فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته[٤٢] ولا يطلع على سره إلا الثقات، والثامنة أن لا يتكلم في المحافل بما لا يُسْأَلُ عنه.

فمَنْ اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير إلى نفسه، وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك وبانت لي منك، فالله تعالى يحفظك ويعينك على ما قدمت له ويظفرك بحاجتك؛ لأنك إنما صادقتني لتسلبني علمي وفخري، وإنك أهل لأن تسعف بحاجتك وتشفع[٤٣] بطلبتك وتُعْطىَ سؤلك، ولأن حاجتك التي تطلب قد أرهبت نفسي وأدخلت عليَّ الفرق[٤٤] والخشية.

فلمَّا عرف برزويه أن الهندي قد عرف أن مصادقته إنما كانت مكرًا وخديعة. وطلب حاجته فلم يزجره ولم ينتهره بل ردَّ عيه ردًا لينًا كردِّ الأخ على أخيه بالتعطُّف والرفق، وثق بقضاء حاجته منه، فقال له: إني قد كنت هيأت كلامًا كثيرًا، وشعبت له شعابًا[٤٥] وأنشأت له أصولاً وطرقًا، فلمَّا انتهيت فيه إلى ما بادهتني[٤٦] به من اطلاعك على أمري والذي قدَّمت له وألقيته إليَّ من ذات نفسك ورغبتك فيما ألقيت من القول، اكتفيت باليسير من الخطاب معك عما كنت أختلف فيه، إذا عرفت الكثير من أموري بالقليل من الكلام لِمَا قسم الله لك من العقل والأدب، فكفيتني مئونة الكلام فاقتصرت به معك على الإيجاز، ورأيت من إسعافك إياي بحاجتي ما دلَّني على كرمك وحسن وفائك، فإن الكلام إذا أُلقِي إلى الفيلسوف، والسرَّ إذا اُسْتُودِعَ اللبيب الحافظ فقد حُصِّن وبلغ نهاية أمل صاحبه كما يُحصَّن الشيء النفيس في القلاع الحصينة.

---

[٤١] مَلِق: من الملق وهو الودُّ واللطف.

[٤٢] تبعته: عاقبته.

[٤٣] تشفع: تعان.

[٤٤] الفرق: الخوف.

[٤٥] شعابًا: أي فصَّلت له طرقًا.

[٤٦] بادهتني: فاجأتني.

فقال له الهندي: لا شيء أفضل من المودَّة. ومن خلصت مودَّته كان أهلاً أن يخلطه الرجل بنفسه ولا يذخر[٤٧] عنه شيئًا ولا يكتمه سرًا ولا يمنعه حاجته ومراده إن قدر على ذلك، ورأس الأدب حفظ السرّش. فإن كان السرُّ عند الأمين الكتوم فقد احترز من التضييع؛ لأنه خليق أن لا يتكلم به، ولا يُكْتَمُ سر بين اثنين قد علماه وتفاوضا فيه، ولا يكون سرًا لأن اللسانين قد تكلَّما به. فإذا تكلَّم بالسر اثنان فلا بد من ثالث من جهة الواحد أو من جهة الآخر؛ فإذا صار على الثلاثة فقد شاع وذاع حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحدة[٤٨] ويكابر فيه. كالغيم إذا كان متقطِّعًا في السماء فقال قائل إن هذا الغيم متقطِّع لا يقدر أحد على تكذيبه.

وأنا فقد يداخلني من مودته ومخالطتك مع أنسي بقربك سرور لا يعدله شيء، وهذا الأمر الذي تطلبه مني أعلم أنه من الأسرار التي لا تُكْتَمُ فلا بد أن يفشو ويظهر حتى يتحدَّث به الناس، فإذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكًا لا أقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر؛ لأن ملكنا فظٌّ غليظ يعاقب على الذنب الصغير أشدَّ العقاب فكيف مثل هذا الذنب العظيم! وإذا حملتني المودة التي بيني وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يرد عقابه عني شيء.

قال برزويه: إن العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سرَّ صديقه وأعانه على الفوز، وهذا الأمر الذي قدمت له لمثلك ذخرته[٤٩] وبك أرجو بلوغه، وأنا واثق بكرم طباعك ووفور عقلك فيه، وإن كنت قد وصل إليك مني ما وصل من المشقة فأنعم بتحمُّل ذلك. وأعلم أنك لا تخشى مني ولا تخاف أن أبديه بل تخشى أهل بلدك المطيفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه ويبلغوه ذلك عنك، وأنا أرجو أن لا يشبع شيء من هذا الأمر؛ لأني أنا ظاعن[٥٠] وأنت مقيم وما أقمت[٥١] فلا ثالث بيننا، فتعاهدا على هذا جميعًا.

وكان الهندي خازن الملك، وبيده مفاتيح خزائنه، فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب وسلَّمها إليه، فأكبَّ على تفسيره ونقله من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي

[٤٧] يذخر: يخبأ.

[٤٨] يجحده: ينكره.

[٤٩] زخرته: خبأته.

[٥٠] ظاعن: راحل.

[٥١] ما أقمت: مدَّة إقامتي.

وأتعب نفسه وأنصب[٥٢] بدنه نهارًا وليلاً وهو مع ذلك وجل[٥٣] فزع من ملك الهند خائف على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب في وقت ولا يصادفه في خزانته.

رجوع برزويه بالكتاب

فلمَّا فرغ من انتساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب كتب إلى أنوشروان يعلمه بذلك، فلمَّا وصل إليه الكتاب سُرَّ سرورًا شديدًا ثم تخوَّف معالجة المقادير أن تنغِّص عليه فرحه. وينتقض سروره. فكتب إلى برزويه يأمره بتعجيل القدوم؛ فسار برزويه متوجهًا نحو كسرى.

فلمَّا رأى الملك ما قد مسه من الشحوب والإعياء قال له: أيها العبد الناصح الذي يأكل ثمرة ما قد غرس، أبشر وقر عينًا فإني مشرفك وبالغ منك بك أفضل درجةٍ وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام.

فلمَّا كان اليوم الثامن أمر الملك بإحضار أشراف مملكته وجميع علماء مصره[٥٤] وشعرائه والخطباء. فلمَّا اجتمعوا أحضر برزويه فدخل عليهم وسجد بين يدي الملك وجلس على مرتبة أُعدَّت له. ثم وقع[٥٥] الكلام فيما شاهده ورآه وشرح قصته وحاله من أوَّلها إلى آخرها. فلم يبق أحد من رجال الدولة وقوادها وأهل علومها على طبقاتهم إلاَّ تعجَّب منه ومن طول طريقه وحسن سيرته مع صديقه، وما وفى له به بلا عهد[٥٦] منه ولا مقدِّمة تقدَّمت بينهما من إفشاء سرِّه له مع ما بينهما من افتراق الأديان وتباين الأشكال ومنافرة المذهب، واستعظموا ما أنفق على تحصيل ذلك، وعظم برزويه في أعين الحاضرين وكبر قدره عند ملكه.

ثم إن الملك صرف من حضر وانصرف برزويه. وعمد الخطباء يصنعون مقدِّمات تصلح لحضور المجلس وتأهبوا لذلك، وعقد لهم الملك مجلسًا وحضر برزويه وخطباء الدولة والوزراء وفصحاء المملكة وأُحْضِرَ الكتاب وسائر الكتب. فلمَّا قُرئت الكتب وسمعوا

[٥٢] أنصب: أعيا.

[٥٣] وجل: خائف.

[٥٤] مصره: كورته وناحيته.

[٥٥] وقع: أي ألقى.

[٥٦] عهد: أي معرفة.

ما فيها من العلوم والحكم وسائر الظَّرائف وغرائب الآداب استبشر مَنْ حضر وبلغ الملك أمنيته. ومدحوا برزويه وأثنوا عليه وشكروه على ما ناله من التعب؛ فأمر الملك عند ذلك بالدُّر والجوهر والذهب والفضة وفتحت خزائن الكسوة وخلع عليه وحمل بين يديه جميع ذلك ثم إن الملك ألبسه التاج وأجلسه على سريره تشريفًا له وزيادة في إجلاله. ولمَّا تمَّ لبرزويه ذلك خرَّ ساجدًا للملك وقال:

> أكرم الله الملك بأفضل الكرامات بزيادته في دنياه وأخراه، وخلَّد ملكه وثبَّت وطأته[٥٧] وشيَّد مباني مجده. إن الله ولي الحمد قد أغناني عن المال بما بلغت من الرُّتبة العلية السنية والبغية والأمنية بما رزقني من تشريف ملك الملوك للعبد الذليل. لكن إذا كلفني الملك ذلك وعلمت أنه يسره فأنا آخذ مما أمر لي به امتثالاً لأمره وطلبًا لمرضاته. وقام فأخذ منها تختًا[٥٨] من طرائف خراسان من ملابس الملوك، ثم قال للملك: إن الإنسان إذا منحه الله تعالى عقلاً وافرًا وعلمًا راجحًا وخلقًا رحبًا ودينًا صلبًا ونيةً سالمة من العاهات فليشكر الصانع الأزلي سرمدًا[٥٩] على ما وهبه من ذلك من غير استحقاق يستحقه ولا مقدِّمة سبقت له، وإن الإنسان إذا أُكرِمَ وجب عليه الشكر وإن كان قد استوجبه تعبًا ومشقة، وأمَّا أنا فمهما لقيته من عناء وتعب لما أعلم أن لكم فيه الشرف يا أهل هذا البيت فإني لا أزال إلى هذا اليوم تابعًا رضاكم، أرى العسير فيه يسيرًا والشاق هينًا والنصب والأذى سرورًا ولذة، لما أعلم أن لكم فيه رضا وعندكم قربة[٦٠] ولكني أسألك أيها الملك حاجة تسعفني بها وتعطيني فيها سؤلي. فإن حاجتي يسيرة وفي قضائها فائدة كبيرة.

قال أنوشروان: قل فكل حاجة لك قبلنا مقضية؛ فإنك عندنا عظيم، ولو طلبت مشاركتنا في ملكنا لفعلنا ولم نردد طلبتك فكيف ما سوى ذلك! فقل ولا تحتشم فإن الأمور كلها مبذولة لك.

---

[٥٧] وطأته: أي مكَّن سلطته.

[٥٨] تختًا: وعاء تصان فيه الثياب.

[٥٩] سرمدًا: دائمًا.

[٦٠] قربة: قربًا في المنزلة.

قال برزويه: أيها الملك لا تنظر إلى عنائي في رضاك وانكماشي[٦١] في طاعتك. فإنما أنا عبدك يلزمني بذل مهجتي في رضاك، ولو لم تجزني لم يكن ذلك عندي عظيمًا ولا واجبًا على الملك، ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلى مجازاتي وخصَّني وأهل بيتي بعلوِّ المرتبة ورفع الدرجة حتى لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل؛ فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

قال أنوشروان: اذكر حاجتك فعليَّ ما يسرك.

فقال برزويه: حاجتي أن يخرج أمر الملك أنفذه الله تعالى إلى الحكيم الفاضل الرفيع المقام وزيره بزرجمهر بن البختكان أن ينظم أمري في نسخة ويبوِّب الكتاب ويجعل تلك النسخة بابًا يذكر فيه أمري ويصف حالي ولا يدع من المبالغة في ذلك أقصى ما يقدر عليه، ويأمره إذا فرغ منه أن يجعله أوَّل الأبواب التي تُقرَأُ قبل باب الأسد والثور. فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف وأعلى المراتب وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيًا على الأبد حيثما قُرِئ هذا الكتاب. فلمَّا سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبة إبقاء الذكر عجبوا من أدبه وحسن عقله وكبر نفسه واستحسنوا طلبته واختياره. فقال كسرى: حبًا وكرامة يا برزويه. إنك لأهل أن تسعف بحاجتك فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا وإن كان خطره[٦٢] عندك عظيمًا.

ثم أقبل أنوشروان على وزيره بزر جمهر فقال له: قد عرفت مناصحة برزويه لنا وتجشمه المخاوف والمهالك فيما يقرِّبه منا وإتعابه بدنه فيما يسرنا، وما أتى إلينا من المعروف، وما أفادنا الله على يده من الحكمة والأدب الباقي لنا فخره، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه على ما كان منه فلم تمل نفسه إلى شيء من ذلك، وكانت بغيته وطلبته منا أمرًا يسيرًا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده، فإني أحبُّ أن تتكلم في ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته، واعلم أن ذلك مما يسرني. ولا تدع شيئًا من الاجتهاد والمبالغة إلا بلغته وإن نالتك فيه مشقة؛ وهو أن تكتب بابًا مضارعًا لتلك الأبواب التي في الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه ونسبه وحسبه وصناعته وأدبه، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه وتنسبه إليه، وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند في حاجتنا وما أفدنا من الحكم على يده من هنالك وشرَّفنا به وفضَّلنا على غيرنا، وكيف كان حاله بعد قدومه وما عرضنا عليه من

[٦١] انكماشي: اسراعي.

[٦٢] خطره: شرفه.

الأموال فلم يقبله؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب في مدحه وبالغ في ذلك أفضل المبالغة، واجتهد في ذلك اجتهادًا يسرُّ برزويه وأهل المملكة. وإنه لأهل لذلك من قبلي ومن جميع أهل المملكة ومن قبلك أيضًا لمحبتك للعلوم، واجهد أن يكون غرض هذا الكتاب الذي ينسب إليه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند الخاص والعام وأشد مشاكلة لحال هذا الكتاب، فإنك أسعد الناس كلهم بذلك لانفرادك به، واجعله أوَّل الأبواب، فإذا أنت عملته ووضعته بحيث رسمت لك[٦٣] فأعلمني لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم؛ فيظهر فضلك واجتهادك في محبتنا، فيكون لك بذلك فخر.

فلمَّا سمع بزرجمهر مقالة الملك خرَّ له ساجدًا وقال: أدام الله لك أيها الملك البقاء وبلَّغك أفضل منازل الصالحين في الآخرة والأولى، لقد شرَّفتني في ذلك شرفًا باقيًا إلى الأبد.

ثم خرج بزرجمهر من عند الملك فوصف برزويه من أوَّل يوم دفعه أبواه إلى المؤدِّب ومضيه إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية، وكيف تعلَّم خطوطهم ولغتهم إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهند في طلب الكتاب، ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمرًا إلاَّ نسَّقه[٦٤] وأتى به بأجود ما يكون من الشرح، ثم أعلم الملك بفراغه منه.

فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته وأدخلهم إليه وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب وبرزويه قائم إلى جانب بزرجمهر. وابتدأ يوصف برزويه حتى انتهى إلى آخره؛ ففرح الملك بما أتى به بزرجمهر من الحكمة والعلم، ثم أثنى الملك وجميع مَنْ حضر على بزرجمهر وشكروه ومدحوه وأمر له الملك بمال جزيل وكسوة وحلي وأوانٍ فلم يقبل من ذلك شيئًا غير كسوة كانت من ثياب الملوك ثم شكر له ذلك برزويه وقبَّل رأسه ويده وأقبل على الملك وقال: أدام الله لك الملك والسعادة، فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعة الكتاب في أمري وإبقاء ذكري.

ثم انصرف الجمع مسرورين مبتهجين، وكان يومًا لا مثال له.

[٦٣] بحيث رسمت لك: أي كما رسمت لك.

[٦٤] نسَّقه: نظَّمه.

الفصل الثاني

باب عرض الكتاب

لعبد الله بن المقفع معرِّب هذا الكتاب

هذا كتاب «كليلة ودمنة» وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا، ولم تزل العلماء من كل أمة ولسان يلتمسون أن يعقل[١] عنهم ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل في إظهار ما لديهم من العلوم والحكم، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير فاجتمع لهم بذلك خلال[٢] أمَّا هم فوجدوا منصرفًا[٣] في القول وشعابًا يأخذون منها ووجوهًا يسلكون فيها، وأمَّا الكتاب فجمع حكمة ولهوًا فاختاره الحكماء لحكمته والأغرار[٤] للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم، وكان كالرجل الذي لَمَّا استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزًا وعقدا له

[١] يعقل: أي يؤخذ ويفهم.

[٢] خلال: أي فضائل.

[٣] منصرفًا: مذهبًا ينصرفون إليه.

[٤] الأغرار: مَنْ لا تجربة لهم.

عُقدًا[٥] استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته؛ فأغناه ما أشرف[٦] عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب.

فأوَّل ما ينبغي لِمَنْ قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وُضِعَت له والرموز التي رُمِزَت فيه وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح[٧] وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أُرِيدَ بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها ولا أي نتيجة تحصل له من مقدِّمات ما تضمَّنه هذا الكتاب، وإنه إن كانت غايته منه استتمام قراءته والبلوغ إلى آخره دون تفهُّم ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه.

مثل الحمالين والرجل الذي أصاب كنزًا

ومَنْ استكثر من جمع الكتب وقراءة العلوم من غير إعمال الرَّوية فيما يقرؤه كان خليقًا أن لا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز؛ فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء من عين[٨] وورق[٩] فقال في نفسه: إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلاً قليلاً طال عليَّ وقطعني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه، ولكن سأستأجر أقوامًا يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم. ولا يكون بقي ورائي شيء يشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت[١٠] لنفسي في إراحة بدني عن الكدِّ بيسير أجرة أعطيها لهم.

ثم جاء بالحمالين فجعل يحمِّل كل واحد منهم ما يطيق فينطلق به إلى منزله هو فيفوز به، حتى إذا لم يبق من الكنز شيء انطلق خلفهم إلى منزله فلم يجد فيه من المال شيئًا لا كثيرًا ولا قليلاً، وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه، ولم يكن للرجل من ذلك إلاَّ العناء والتعب؛ لأنه لم يفكِّر في آخر أمره.

---

[٥] عقدًا: ما يعتقده الإنسان ملكًا له.

[٦] أشرف: أي وصل.

[٧] غير مفصح: أي غير ناطق.

[٨] عين: نقود ذهبية.

[٩] ورق: نقود فضية.

[١٠] استظهرت: استعنت.

مثل طالب العلم والصحيفة الصفراء

وكذلك مَنْ قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرًا وباطنًا لم ينتفع بما يبدو له من خطِّه ونقشه. كما لو أن رجلاً قُدِّم له جوز صحيح لم ينتفع به إلاَّ أن يكسره ويستخرج ما فيه، وكان أيضًا كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس، فأتى صديقًا له من العلماء له علم بالفصاحة فأعلمه حاجته إلى علم الفصيح؛ فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه انصرف بها إلى منزله فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها، ولا يعلم تأويل ما فيها حتى استظهرها كلها، فاعتقد أنه قد أحاط بعلم ما فيها، ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب فأخذ في محاورتهم فجرت له كلمة أخطأ فيها. فقال له بعض الجماعة: إنك قد أخطأت والوجه غير ما تكلَّمت به فقال: كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي؟ فكانت مقالته هذه أوجب للحجة عليه وزاده ذلك قربًا من الجهل وبعدًا من الأدب.

مثل ربِّ البيت والسارق

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ينبغي له أن يعمل بما علم منه؛ لينتفع به ويجعله مثالاً لا يحيد عنه، فإذا لم يفعل ذلك كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقًا تسوَّر عليه[١١] وهو نائم في منزله، فعلم به فقال: والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع ولا أذعره[١٢] ولا أعلمه أني قد علمت به، فإذا بلغ مراده قمت إليه فنغصت ذلك عليه، ثم إنه أمسك عنه وجعل السارق يتردد وطال تردُّده في جمعه ما يجده؛ فغلب الرجل النعاس فنام وفرغ اللصُّ مما أراد وأمكنه الذهاب، واستيقظ الرجل فوجد اللصَّ قد أخذ المتاع وفاز به فأقبل على نفسه يلومها وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللصِّ؛ إذ لم يستعمل في أمره ما يجب.

وقد يقال: إن العلم لا يتمُّ إلا بالعمل، وإن العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به وإن لم يستعمل ما يعلم فليس يُسمَّى عالمًا،

[١١] تسوَّر عليه: أي دخل عليه واثبًا من سور بيته.
[١٢] أذعره: أخيفه.

ولو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سُمِّي جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها، ومَنْ ركب هواه ورفض أن يعمل بما جرَّبه هو أو أعلمه به غيره كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشَّره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علَّته. وأقل الناس عذرًا في أجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها مَنْ أبصر ذلك وميَّزه وعرف فضل بعضه على بعض، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها كانا إذا صارا في قعرها بمنزلة واحدة غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير؛ إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدِّبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره ونفعه به وحرمان نفسه منه، ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة، وكدودة القزِّ التي تحكم صنعته ولا تنتفع به، ينبغي لمَنْ طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ويتعهدها برياضتها ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه.[١٣]

فإن خلالاً[١٤] ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها ويقبسها؛ منها العلم والمال، ومنها اتخاذ المعروف، وليس للعالم أن يعيب أمرءًا بشيء فيه مثله ويكون كالأعمى الذي يعير الأعمى بعماه، وينبغي لمَنْ طلب أمرًا أن يكون له فيه غاية ونهاية يعتمد عليها ويقف عندها ولا يتمادى في الطلب؛ فإنه يقال: مَنْ سار إلى غير غاية فيوشك إن تنقطع[١٥] به مطيته وإنه كان حقيقًا ألا يعني نفسه في طلب ما لا حدَّ له وما لم ينله أحدٌ قبله، ولا يتأسف عليه ولا يكون لدنياه مؤثرًا على آخرته؛ فإن مَنْ لم يعلق قلبه بالغايات قلَّت حسرته عند مفارقتها، وقد يقال في أمرين إنهما يجملان[١٦] بكل أحد: أحدهما: النسك، والآخر: المال الحلال، وقد يقال في أمرين إنهما لا يجملان بأحد: الملك أن يشارك في ملكه، والرجل أن يشارك في خاصته. وليس ينبغي للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة الله وفضله فيما لا يناله، فربما ساق القدر له رزقًا هنيئًا وهو غافل عنه لا يدري به ولا يعلم وجهه.

[١٣] يقيسه: يستفيده.

[١٤] خلالاً: خصالاً.

[١٥] تنقطع: تعجز عن السير.

[١٦] يجملان: يحسنان.

مثل الرجل واللصِّ

ومن أمثال هذا أن رجلاً كان به فاقة وجوع وعري. فألجأه[١٧] ذلك إلى أن سأل بعض أقاربه وأصدقائه فلم يكن عند أحد منهم فضل[١٨] يعود به عليه، فبينما هو ذات ليلةٍ في منزله إذ بصر بسارق في المنزل فقال في نفسه: والله ما في منزلي شيء أخاف عليه فيجهد السارق جهده. فبينما السارق يجول إذا وقعت يده على خابية فيها حنطة فقال السارق: والله ما أحب أن يكون عنائي الليلة باطلاً، ولعلي لا أصل إلى موضع آخر، ولكن سأحمل هذه الحنطة خير من الرجوع بغير شيء، ثم بسط رداءه ليصب عليه الحنطة. فقال الرجل: يذهب هذا بالحنطة وليس ورائي سواها، فيجتمع عليَّ مع العري ذهاب ما كنت أقتات به، وما تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلاَّ أهلكتاه، ثم صاح بالسارق ووثب إليه بهراوة كانت عند رأسه، فلم يكن للسارق حيلة إلاَّ الهرب منه وترك رداءه ونجا بنفسه؛ وغدًا الرجل به كاسيًا.

وليس ينبغي للعاقل أن يركن إلى مثل هذا المثل فيتكل عليه ويدع ما يجب عليه من السعي والعمل لصلاح معاشه، بل أن لا يألو جهدًا في الطلب على قدر معرفته، ولا ينظر إلى مَنْ تؤاتيه المقادير وتساعده على غير التماس منه ولا حركة؛ لأن أولئك في الناس قليل، وإنما الجمهور منهم مَنْ يجهد نفسه في الكدِّ والسعي فيما يصلح من أمره وينال به ما يريد، وليحرص أن يكون مكسبه من أطيب المكاسب وأفضلها وأنفعها له ولغيره معًا ما أمكن، ولا يتعرَّض لما يجلب عليه العناء والشقاء وما يعقبه الهمَّ والغمِّ، وليحذر أن يعاود ما أصابه منه الضرر، وينبغي عليه مع ذلك أن يحذر مما يصيب غيره من الضرر لئلا يصيبه مثله فيكون كالحمامة التي تفرخ الفراخ فتؤخذ وتذبح ثم لا يمنعها ذلك من أن تعود فتفرخ موضعها وتقيم بمكانها، فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح حتى تؤخذ هي أيضًا فتذبح.

وقد يقال إن الله تعالى قد جعل لكل شيء حدًا يوقف عليه، ومَنْ تجاوز في الأشياء حدَّها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها، والمتجاوز الحد والمقصر عنه سيَّان بالنسبة إليه؛ لأن كليهما زائغ عنه في الحالين جميعًا، ويقال: مَنْ كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته

[١٧] ألجأه: اضطره ودفعه.

[١٨] فضل: زيادة عن حاجته.

له وعليه، ومَنْ كان سعيه لدنياه خاصةً فحياته عليه، ومَنْ كان سعيه لآخرته فحياته له، ويقال في أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها، منها أمر دينه، ومنها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعده، وقد قيل في أمور مَنْ كن فيه لم يستقم له عمل، منها التواني، ومنها تضييع الفرص، ومنها التصديق لكل مخبرٍ، ومنها التكذيب لكل عارفٍ.

وربَّ مخبر بشيء عقله[١٩] ولا يعرف استقامته فيصدقه، والذي يفعل ذلك من الناس ثلاثة: رجل يصدِّق بما جرَّبه غيره وصدَّقه، فيصدقه هو ويتمادى في التصديق حتى كأنما جرَّبه بنفسه، ورجل يصدِّق بالأمور التي جرَّبها ولكن من غير علم بحقيقتها، ورجل تلتبس عليه الأمور فيصدِّق بها.

وينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهمًا، ولا يقبل من كل أحد حديثًا، ولا يتمادى في الخطأ إذا التبس عليه أمره، ولا يلج في شيء منه، ولا يقدم عليه حتى يتبين له الصواب فيه وتستوضح له الحقيقة، ولا يكون كالرجل الذي يزيغ عن الطريق فيستمرُّ على الضلال فلا يزداد في السير جهدًا إلا ازداد عن القصد بعدًا، وكالرجل الذي تَقذَى عينه[٢٠] فلا يزال يحكُّها حتى ربما كان ذلك الحكُّ سببًا في ذهابها.

ويجب على العاقل أن يصدِّق بالقضاء والقدر، ويعلم أن ما كتب سوف يكون، وإن مَنْ أتى صاحبه بما يكره لنفسه فقد ظلم، ويأخذ بالحزم في أموره ويحبُّ للناس ما يحبُّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، فلا يطلب أمرًا فيه مضرَّة لغيره طلبًا لصلاح نفسه بفساد غيره، فإن كل غادرٍ مأخوذ.

مثل التاجر ورفيقه والعدل المسروق

ومَنْ فعل ذلك كان خليقًا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه؛ فإنه يقال إنه كان رجل تاجر وكان له شريك، فاستأجرا حانوتًا وجعلا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت، فأضمر في نفسه أن يسرق عدلاً[٢١] من أعدال رفيقه، ومكر الحيلة

[١٩] مخبر عقله: أدركه بعقله.

[٢٠] تقذى عينه: يصيبها قذى من غبار أو نحوه.

[٢١] عدلاً: الكيس الكبير فيه البضاعة.

في ذلك وقال: إن أنا أتيت ليلاً آمن أن أحمل عدلاً من أعدالي أو رزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلاً. فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فقال: والله هذا رداء صاحبي ولا أحسبه إلاَّ قد نسيه، وما الرأي أن أدعه ههنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يستبقني إلى الحانوت فيجده حيث يحبُّ. ثم أخذ الرداء فألقاه على عدلٍ من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله.

فلمَّا جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ما عزم عليه وضمن له جُعلاً[٢٢] على حمله فصار إلى الحانوت فتحسس الرداء في الظلمة وتلمَّسه فوجده على العدل؛ فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان في حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعبًا. فلمَّا أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله؛ فندم أشدَّ الندامة. ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه، ففتح الحانوت وفقد العدل فاغتمَّ لذلك غمًا شديدًا وقال: واسوءتا[٢٣] من رفيق صالح قد ائتمنني على ماله وخلفني فيه! ماذا يكون حالي عنده؟ ولست أشك في تهمته إياي، ولكن قد وطَّنت نفسي على غرامته. فلمَّا أتاه صاحبه وجده مغتمًا فسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلاً من أعدالك ولا أعلم بسببه، وإني لا أشك في تهمتك إياي. وإني قد وطَّنت نفسي على غرامته. فقال له: يا أخي لا تغتم فإن الخيانة شرُّ ما عمله الإنسان، والمكر والخديعة لا يؤديان على خير، وصاحبهما مغرور أبدًا، وما عاد وبال[٢٤] البغي[٢٥] إلاَّ على صاحبه. وأنا أحد مَنْ مكر وخدع واحتال. فقال له صاحبه: وكيف كان ذلك؟ فأخبره وقصَّ عليه قصته. فقال له رفيقه: ما مثلك إلا مثل اللصِّ والتاجر. فقال له: وكيف كان ذلك.

---

[٢٢] جُعلاً: أجرة.

[٢٣] واسوءتا: السوءة الأمر القبيح، يريد واخجلتا.

[٢٤] وبال: أي سوء العاقبة.

[٢٥] البغي: الظلم.

مثل اللصِّ والتاجر

قال: زعموا أن تاجرًا كان له في منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهبًا. فترقَّبه بعض اللصوص زمانًا حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل، فتغفله اللصُّ ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه. فلمَّا همَّ بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كدٍّ وتعب حتى أتى بها منزله، فلمَّا فتحها وعلم ما فيها ندم.

قال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس. وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك وعزيز[٢٦] عليَّ أن يكون هذا كهذا. غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء. فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به، وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله.

مثل الإخوة الثلاثة

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن لا تكون غايته التصفُّح لتزاويقه،[٢٧] بل يشرف على ما يتضمن من الأمثال حتى يأتي عليه إلى آخره، ويقف عند كل مثل وكلمة، ويعمل فيها روِّيته، ويكون مثل ثالث الإخوة الثلاثة الذين خلَّف لهم أبوهم المال الكثير فتنازعوه بينهم. فأمَّا الاثنان الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه، وأمَّا الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما وتخليهما من المال أقبل على نفسه يشاورها وقال: يا نفس إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه من كل وجه لبقاء حاله وصلاح معاشه ودنياه وشرف منزلته في أعين الناس، واستغنائه عما في أيديهم، وصرفه في وجهه من صلة الرحم، والإنفاق على الولد والإفضال على الإخوان. فمَنْ كان له مال ولا ينفقه في حقوقه كان كالذي يُعدُّ فقيرْا وإن كان موسرًا، وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه لم يعدم الأمرين جميعًا من دنيا تبقى عليه وحمد يضاف إليه، ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التي حُدَّت[٢٨] لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة، ولكن الرأي

[٢٦] عزيز: أي صعب.

[٢٧] تزاويقه: أي النظر فيها.

[٢٨] حُدَّت: أي رُسِمَت وفُرِضَت.

أن أمسك هذا المال، فإني أرجو أن ينفعني الله به ويغني أخوي على يدي، فإنما هو مال أبي ومال أبيهما. وإن أولى الإنفاق على صلة الرحم وإن بعدت، فكيف بأخوي! فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله.

مثل الصياد والصدفة

وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور؛ فينصرف بذلك عن الغرض المقصود، ويكون مثله مثل الصياد الذي كان في بعض الخُلُج[٢٩] يصيد فيه السمك في زورق، فرأى ذات يوم في عقيق[٣٠] الماء صدفة تتلألأ حسنًا فتوهَّمها جوهرًا له قيمة، وكان قد ألقى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه فخلاَّها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة. فلمَّا أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن؛ فندم على ترك ما في يده للطمع وتأسَّف على ما فاته، فلمَّا كان اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان وألقى شبكته، فأصاب حوتًا صغيرًا ورأى أيضًا صدفة سنيَّة[٣١] فلم يلتفت إليها وساء ظنه بها فتركها واجتاز بها بعض الصيادين فأخذها فوجد فيها درة تساوي أموالاً.

وكذلك الجُهَّال على إغفال أمر التفكُّر في هذا الكتاب والاغترار به وترك الوقوف على أسرار معانيه والأخذ بظاهره دون الأخذ بباطنه، ومَنْ صرف همته إلى النظر في أبواب الهزل منه فهو كرجل أصاب أرضًا طيبة حرَّة[٣٢] وحبًا صحيحًا فزرعها وسقاها حتى إذا قرب خيرها تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك؛ فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدةً وأجمل عائدة.

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم على أربعة أغراض: أحدها ما قُصِدَ فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان

[٢٩] الخُلُج: جمع خليج.

[٣٠] عقيق: مسيل.

[٣١] سنيَّة: أي كريمة.

[٣٢] أرضًا حرة: لا رمل فيها.

إلى قراءته؛ فتستمال به قلوبهم. لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات، والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسًا لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشدَّ للنزهة في تلك الصور، والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتَّخذه الملوك والسوقة؛ فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق[٣٣] على مرور الأيام، لينتفع بذلك المصور والناسخ أبدًا، والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة.

قال عبد الله بن المقفع: لَمَّا رأيت أهل فارس قد فسَّروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية، وألحقوا به بابًا وهو باب برزويه الطبيب، ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب لَمَنْ أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده وضعنا له هذا الباب؛ فتأمَّل ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

[٣٣] فيخلق: أي فيبلى.

الفصل الثالث

باب برزويه

لبزرجمهر بن البختكان

قال برزويه بن أزهر رأس أطباء فارس، وهو الذي تولَّى انتساخ هذا الكتاب وترجمه من كتب الهند، وقد مضى ذكر ذلك من قبل:

> إن أبي كان من المقاتلة، وكانت أمي من عظماء بيوت الزَّمازمة،[١] وكان منشئي في نعمة كاملة، وكنت أكرم ولد أبوي عليهما، وكانا بي أشدَّ احتفاظًا من دون إخوتي، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلماني إلى المؤدب، فلمَّا حذقت الكتابة شكرت أبوي ونظرت في العلم، فكان أول ما ابتدأت به وحرصت عليه علم الطب؛ لأني كنت عرفت فضله. فأقمت في تعلُّمه سبع سنين، وكلَّما ازددت منه علمًا ازددت عليه حرصًا وله اتباعًا حتى أحطت منه بعلم وافر وقدرت على غوامضه. فلمَّا همَّت نفسي بمداواة المرضى وعزمت على ذلك آمرتها[٢] ثم خيَّرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون. فقلت: أي هذه الخلال أبتغي في علمي وأيها أحرى بي فأدرك منه حاجتي. المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة؟

[١] الزمازمة: طائفة معروفة عندهم.

[٢] آمرتها: شاورتها.

وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء مَنْ واظب على طبِّه لا يبتغي إلا أجر الآخرة. فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطبِّ ابتغاء الآخرة ورجاء أجر المنقلب،[٣] لا أبتغي مكافأة الدُّنيا ولا تعجيلها؛ لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوته ثمينة كان يصيب بثمنها غنى الدَّهر بخرزة لا تساوي شيئًا، مع أني قد وجدت في كتب الأوَّلين أن الذي يبتغي بطبِّه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدُّنيا، وإن مثله مثل الزارع الذي يبذر حبَّه في الأرض ويعمرها[٤] ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع.

فأقلبت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة. فلم أدع مريضًا أرجو له البرء وآخر لا أرجو له ذلك. إلاَّ أني أطمع أن يخفَّ عنه بعض المرض، إلاَّ بالغت في مداواته جهدي، ومَنْ قدرت على القيام عليه قمت عليه بنفسي، ومَنْ لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح وأعطيته من الدواء ما يتعالج به، وأمرته بالذي ينبغي ولم أرد ممَنْ فعلت معه ذلك جزاءً ولا مكافأة. ولم أغبط أحدًا من نظرائي الذين هم مثلي في العلم، ولا مَنْ هم فوقي في الجاه والمال وغيرهما، مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولاً ولا عملاً.

ولمَّا كانت نفسي تتوق إلى ذلك وتنازعني في أن تنال مثل منالهم كنت آبي لها إلا الخصومة وأقول لها:

> يا نفس أما تعرفين نفعك من ضرِّك؟ ألا تنتهين عن طلب ما لا يناله أحد إلاَّ قلَّ انتفاعه به، وكثر عناؤه فيه، واشتدَّت المئونة[٥] عليه، وعظمت المشقة لديه بعد فراقه؟
>
> يا نفس أما تذكرين ما بعد هذه الدار فينسيك ما تشرهين إليه[٦] منها؟ ألا تستحيين من مشاركة الفُجَّار في حبِّ هذه العاجلة الفانية التي مَنْ كان في يده منها شيء فليس له وليس بباقٍ عليه، فلا يألفها إلاَّ المغرورون الجاهلون؟

---

[٣] المنقلب: العاقبة.

[٤] يعمرها: أي يصلحها.

[٥] اشتدَّت المئونة: الثقل والشدَّة.

[٦] تشرهين إليه: أي تحرصين عليه شديدًا.

يا نفس انظري في أمرك وانصرفي عن هذا السَّفه[٧] وأقبلي بقوَّتك وسعيك على تقديم الخير وإياك والتسويف، واذكري أن هذا الجسد موجود لآفات، وأنه مملوء أخلاطًا فاسدة قذرة متعادية متغالبة تعقدها الحياة، والحياد إلى نفاد. كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا رُكِّبت ووضعت جمعها في مواضعها مسمار واحد يمسك بعضًا على بعض. فإذا أُخِذَ ذلك المسمار تساقطت تلك الأوصال.

يا نفس لا تغتري بصحبة أحبائك وخلاَّنك ولا تحرصي على ذلك كل الحرص. فإن صحبتهم على ما فيها من البهجة والسرور كثيرة المئونة والأذى وعاقبة ذلك الفراق. ومثلها مثل المغرفة التي تستعمل في جدَّتها لسخونة المرق ولذعه، فإذا قدمت صارت وقودًا في النار.

يا نفس لا يحملنَّك أهلك وأقاربك على جمع ما تهلكين فيه إرادة صلتهم[٨] فإذا أنت كالدُّخنة[٩] الأرجة التي تحترق ويذهب آخرون بريحها.

يا نفس لا تركني على هذا الدار الفانية ولا تغتري بها طمعًا في البقاء والمنزلة التي ينظر إليها أهلها، فكأي ممَنْ لا يبصر صغر ما يستعظم وحقارته حتى يفارقه. كشعر الرأس الذي يخدمه صاحبه ويكرمه ما دام على رأسه، فإذا فارق رأسه استقذره ورفضه.

يا نفس لا تملِّي من عيادة المرضى ومداواتهم واعتبري كيف يجهد الرجل أن يفرج عن مضيمٍ واحدٍ كربةً[١٠] واحدة ويستنقذه منها رجاء الأجر. فكيف بالطبيب الذي يفعل كثيرًا من ذلك مع كثيرين! إن هذا لخليق أن يعظم رجاؤه منه بحسن الثواب.

يا نفس لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلي إلى العاجلة في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير. كالتاجر الذي كان له ملء بيت من الصندل[١١] فقال:

---

[٧] السَّفه: الجهل.

[٨] صلتهم: أي الإحسان إليهم.

[٩] كالدُّخنة: نوع من الطيب.

[١٠] كربة: حزنًا.

[١١] الصندل: حبٌّ طيب الرائحة.

إن بعته وزنًا طال عليَّ فباعه جزافًا[١٢] بأبخس الثمن، وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة وكلٌّ على كلٍّ عادٍ[١٣] وله عدو ومغتاب وفيه واقع.[١٤]

مثل المصدِّق المخدوع

فلمَّا رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحدٍ منهم سبيلاً وعرفت أني إن صدقت أحدًا لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدِّق المخدوع الذي زعموا فيه أن سارقًا علا ظهر بيت رجل من الأغنياء وكان معه جماعة من أصحابه؛ فاستيقظ الرجل من وطئهم[١٥] فأيقظ امرأته فأعلمها بذلك وقال لها: رويدًا إني لأحسب اللصوص علوا على البيت. فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي: ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة من أين جمعتها؟ فإذا امتنعت عليك فألحي عليَّ في السوأل واستحلفيني حتى أقول لك.

ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها وأنصتت[١٦] اللصوص إلى سماع قولهما. فقال لها الرجل: أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع ومال كثير فكلي واشربي ولا تسألي عن أمر إن أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين، فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل فلعمري ما بقربنا أحد يسمع كلامنا. فقال لها: فإني مخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلاَّ من السرقة. قالت: وكيف كان ذلك وما كنت تصنع وأنت عند الناس من البررة[١٧] الصُلاَّح؟ قال: ذلك لعلم أصبته في السرقة وكان الأمر عليَّ يسيرًا وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يرتاب بي. قالت: فاذكر لي ذلك.

قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا وأصحابي حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا. فأنتهي إلى الكوَّة[١٨] التي يدخل منها الضوء. فأرقي بهذه الرقية وهي شولم سبع مرات

[١٢] جزافًا: بلا وزن ولا كيل.
[١٣] عاد: ساط وهاجم.
[١٤] واقع: ساب له.
[١٥] وطئهم: دوسهم.
[١٦] أنصتت: أصغت.
[١٧] البررة: جمع بار.
[١٨] الكوَّة: خرق في الحائط.

وأعتنق الضوء فلا يحس بوقوعي أحد، ولا يبقى في البيت شيء إلاَّ أتاني قاصدًا مطيعًا. فلا أدع مالاً ولا متاعًا إلاَّ أخذته. ثم أعيد العزيمة[١٩] أيضًا وأعتنق الضوء فيجذبني فأصعد إلى أصحابي فنمضي سالمين آمنين. وليس على مَنْ يفعل ذلك إلاَّ أن تكون له جرأة فيسلِّم نفسه إلى حبال الضوء ويتعلَّق بها وينزل عليها. فاكتمي ذلك وإياك أن تعلميه لأحد.

فلمَّا سمع اللصوص ذلك قالوا: قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال. ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنُّوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا.[٢٠] وكانت تلك الليلة مقمرة وللبيت كوَّة نافذ منها الضوء. فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال: شولم شولم سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل إلى ارض المنزل، فوقع على أم رأسه منكسًا[٢١] فوثب إليه الرجل بهراوته[٢٢] وقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا المصدِّق المخدوع المغترُّ بما لا يكون أبدًا، وهذه ثمرة رقيتك وعاقبة مَنْ يصدق كل ما يسمع.

فلمَّا تحرزت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكة عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحدٍ ممَنْ كلمته جوابًا فيما سألته عنه فيها، ولم أر فيما كلموني به شيئًا يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه. فقلت لمَّا لم أجد ثقة آخذ منه فالرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدته عليه. وهممت بذلك. ثم التمست لنفسي مخرجًا فقلت: إن كان مَنْ يفعل هذا معذورًا فإن الذي يجد أباه ساحرًا ويجري على مثاله يكون غير ملومٍ مع أشباه ذلك ممَّا لا يحتمله العقل، وذكرت في ذلك قول رجل كان فاحش الأكل فعوتب في ذلك فقال: كذلك كان أكل أبي وجدي.

فلمَّا ذهبت ألتمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ولم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها وللنظر

---

[١٩] العزيمة: الرقية.

[٢٠] هجعا: ناما.

[٢١] منكسًا: منقلبًا.

[٢٢] هراوته: عصاه الضخمة.

فيها، هجس[٢٣] في قلبي وخطر على بالي الأجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط[٢٤] أهلها وتخرُّم[٢٥] الدَّهر حياتهم ففكرت في ذلك وقلت: أمَّا أنا فلعلي قد قرب أجلي وحانت نقلتي، وقد كنت أعمل أمورًا محمودة أرجو أن تكون أصلح الأعمال.

مثل الرجل والخادم

ولعل تردُّدي شغلني عن خير كنت أعمله فيكون أجلي دون ما تطمح إليه نفسي ويطلبه أملي ويصيبني ما أصاب الرجل الذي زعموا أنه تواطأ[٢٦] مع خادم في بيت لأحد الأغنياء على أن يأتي البيت في كل ليلة يغيب أهله. فيجمع له الخادم مما في البيت فيذهب به ويبيعه ويتشاطرا ثمنه.

فاتفق ذات ليلة أن غاب أهل البيت وبقي الخادم وحده. فأنفذ فأخبر صاحبه فأقبل حتى دخل البيت وأخذا في الجمع مما فيه. وبينا هما يجمعان إذ قرع الباب وكان للبيت باب آخر لم يكن يعلمه الرجل وكان ذلك الباب عند جبِّ[٢٧] الماء. فقال الخادم للرجل على عجل منه وخيفة: بادر اخرج من الباب الذي عند جبِّ الماء، وأشار له إلى موضعه. فانطلق الرجل إلى ذلك المكان فوجد الباب ولكن لم يجد جبَّ الماء. فرجع إليه وقال له: أمَّا الباب فوجدته وأمَّا الجبُّ فلم أجده. فقال له: أيها المائق[٢٨] وما تصنع بالجبِّ! أنا دللتك به لتعرف الباب فإذا قد عرفته فاذهب عاجلاً فقال له: لم يكن ذلك صدقًا فلم ذكرت الجب وليس هو هناك؟ فقال له: ويحك أيها الأحمق انج بنفسك ودع عنك الحمق والتردُّد. فقال له: كيف أمضي وقد خلطت[٢٩] عليَّ وذكرت الجبَّ وليس هناك؟ فلم يزل على مثل هذه الحال حتى دخل ربُّ البيت فأخذ بتلابيبه[٣٠] وأوجعه ضربًا ورفعه إلى السلطان.

---

[٢٣] هجس: بمعنى خطر.

[٢٤] اعتباط: يقال اعتبط الموت فلانًا أي أخذه بلا علَّة.

[٢٥] تخرُّم: استئصال.

[٢٦] تواطأ: اتفق.

[٢٧] جبُّ: بئر.

[٢٨] المائق: الأحمق في غباوة.

[٢٩] خلطت: أي خلطت الحق بالباطل.

[٣٠] تلبيبه: جمع ثيابه عند صدره وعنقه ساحبًا إياه.

فلمَّا خفت من التردُّد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه. واقتصرت على كل شيء تشهد به العقول وتتفق عليه أهل الأديان ويُرَى أنه صواب وحق. فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة، وزجرت نفسي عن الكبر والغضب، ونزَّهت قلبي عن الحقد والبغض والخيانة، وصنت لساني عن الكذب والبهتان[٣١] والغيبة والنميمة وكل أمر مكروه، وأضمرت في نفسي أن لا أبغي على أحد ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب، وأن لا إله إلا الله الفرد الصمد يكافئ على الخير بالخير وعلى الشرِّ بالشرِّ، وأن لا بد من المسألة والحساب. وزايلت[٣٢] الأشرار وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدي. ورأيت كلاً من الصلاح والعلم ليس كمثله صاحب ولا قرين[٣٣] ووجدت مكسبه إذا وفق الله وأعان يسيرًا. ووجدته يدلُّ على الخير ويشير بالنصح فعل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه بل يزداد ولا يخلق على كثرة الاستعمال بل يجدُّ ويزهو ويكثر، ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه،[٣٤] ولا من الآفات أن تفسده، ولا من الماء أن يغرقه، ولا من النار أن تحرقه، ولا من اللصوص أن تسرقه، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزِّقه.

مثل تاجر الجوهر والأجير

ووجدت الرجل الساهي اللاهي المؤثر ليسير يناله في يومه ويعدمه في غده على الكثير الباقي نعيمه يصيبه فيما ذهبت فيه أيامه ما أصاب التاجر الذي زعموا أنه كان له جوهر نفيس فاستأجر لثقبه رجلاً في اليوم على مئة درهم يدفعها إليه وانطلق به إلى منزله ليعمل، وإذا في ناحية البيت صنج[٣٥] موضوع، فقال التاجر للصانع: هل تحسن الضرب بالصنج قال: نعم، وكان بضربه ماهرًا. فقال الرجل:دونك الصنج فأسمعنا ضربك به؛ فأخذ الرجل الصنج ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح والصوت الرخيم والتاجر يشير بيده ورأسه طربًا حتى أمسى.

---

[٣١] البهتان: أن يقال عن الناس ما لم يفعلوه.

[٣٢] زايلت: فارقت.

[٣٣] قرين: مصاحب وعشير.

[٣٤] يغصبه: يأخذه قهرًا وظلمًا.

[٣٥] الصنج: من آلات الطرب.

فلمَّا حان الغروب قال الرجل للتاجر: مر لي بالأجرة. فقال له التاجر: وهل عملت شيئًا تستحق به الأجرة؟ فقال له: عملت ما أمرتني به وأنا أجيرك وما استعملتني[٣٦] عملت. ولم يزل به حتى استوفى منه مئة الدرهم وبقي جوهره غير مثقوب.

فلم أزدد في الدُّنيا وشهواتها نظرًا إلا ازددت فيها زهادة ومنها هربًا، ووجدت النسك هو الذي يمهد للمعاد[٣٧] كما يمهد الوالد لولده، ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم، ووجدت الناسك قد تدبَّر فعلته بالسكينة[٣٨] والوقار فشكر وتواضع، وقنع فاستغنى، ورضي فلم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهرًا، وطرح الحسد فوجبت له المحبة، وانفرد بنفسه فكُفِي الأحزان وسخت نفسه بكل شيء، واستعمل العقل فأبصر العاقبة فأمن الندامة، واعتزل الناس فسلم منهم ولم يخفهم.

فلم أزدد في أمر النسك نظرًا إلا ازددت فيه رغبة حتى هممت أن أكون من أهله. ثم تخوَّفت أن لا أصبر على عيش الناسك، ولا أقوى على عسره ومشقته لما اعتدته وغذيت به منذ كنت وليدًا، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت في النسك أن أضعف عن ذلك، وأكون قد رفضت أعمالاً كنت أرجو عائدتها[٣٩] وقد كنت أعملها فأنتفع بها في الدُّنيا؛ فيكون مثلي في ذلك مثل الكلب الذي مرَّ بنهرٍ وفي فيه ضلع فرأى ظلها في الماء فأهوى ليأخذها فأتلف ما كان معه ولم يجد في الماء شيئًا؛ فهبت[٤٠] النسك مهابة شديدة وخفت من الضجر وقلَّة الصبر وأردت الثبوت على حالتي التي كنت عليها.

ثم بدا لي أن أقيس ما أخاف أن لا أصبر عليه من الشظف[٤١] والضيق والخشونة في النسك وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء، وكان عندي أنه ليس شيء من شهوات الدنيا ولذَّاتها إلاَّ وهو متحوِّل إلى الأذى ومولِّد للحزن، فالدُّنيا كالماء الملح الذي لا يزداد شاربه شربًا إلا ازداد عطشًا، وكالعظم الذي يصيبه[٤٢] الكلب فيجد فيه ريح اللحم فلا

[٣٦] استعملتني: طلبت مني عمله.

[٣٧] للمعاد: للآخرة.

[٣٨] السكينة: الطمأنينة والهدوء.

[٣٩] عائدتها: نفعها.

[٤٠] هبت: خفت.

[٤١] الشظف: سوء العيش.

[٤٢] يصيبه: يجده.

يزال يطلب ذلك اللحم حتى يدمي فاه ولا ينال شيئًا مما طلب. وكالحدأة[٤٣] التي تظفر بالبضعة[٤٤] من اللحم فيجتمع عليها الطير فلا تزال تدور وتدأب[٤٥] حتى تعيي وتعجز فإذا تعبت ألقت ما معها، وكالكوز من العسل الذي في أسفله السم الذي يذاق منه حلاوة عاجلة وآخره موت زعاف، وكأحلام النائم التي يفرح بها الإنسان في نومه فإذا استيقظ ذهب الفرح، وكالبرق الذي يضيء يسيرًا فيطمع بالنور ثم يذهب بغتة ويرجع الظلام، وكدودة القزِّ التي تنسج نهارًا وليلاً وتهلك وسط نسيجها الذي كلَّما زادت منه نسجًا زاد استحكامًا ومنعًا لها عن الخروج.

فلمَّا فكَّرت في هذه الأمور رجعت إلى طلب النسك وهزَّني الاشتياق إليه وقلت: لا يليق بي أن أقيس الدُّنيا بالنسك إذا تفكَّرت فيها وفي شرورها وأحزانها، ثم خاصمت نفسي إذا هي في شرورها سارحة وقد لا تثبت على أمر تعزم عليه كقاضٍ سمع من خصم واحد فحكم له، فلمَّا حضر الخصم الثاني عاد إلى الأوَّل فقضى عليه.

ثم نظرت في الذي أكابده من احتمال النسك وضيقه فقلت: ما أصغر هذه المشقة في جانب روح[٤٦] الأبد وراحته، ثم نظرت فيما تشره إليه النفس البهيمية[٤٧] من لذَّة الدُّنيا فقلت ما أمر هذا وأوجعه وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله، وكيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة، وكيف لا تمرُّ[٤٨] عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة؟ وقلت لو أن رجلاً عُرِضَ عليه أن يعيش مئة سنة لا يأتي عليه يوم واحد إلاَّ بضع منه بضعة غير أنه يشرط له أنه إذا استوفى السنين المئة نجا من كل ألم وأذى وصار على الأمن والسرور كان حقيقًا أن لا يرى تلك السنين شيئًا. فكيف يأبى الصبر على أيام قلائل يعيشها في النسك، وأذى تلك الأيام قليل يُعْقَبُ خيرًا كثيرًا؟ أوليس أن الدُّنيا كلها بلاء وعذاب، والإنسان إنما يتقلب في عذابها من حين يولد إلى أن يستوفي أيام حياته.

فإنه إذا كان طفلاً ذاق من العذاب ألوانًا. إن جاع فليس به استطعام أو عطش فليس به استسقاء أو وجع فليس به استغاثة، مع ما يلقى من الوضع والحمل واللف

---

[٤٣] الحدأة: طائر يعرف عند العامة بالشوحة.

[٤٤] البضعة: القطعة.

[٤٥] تدأب: تجتهد.

[٤٦] روح: سرور.

[٤٧] البهيمية: أي فيما يشتدُّ حرصها عليه.

[٤٨] تمرُّ: من المرارة.

والدهن والمسح، إن أُنِيم على ظهره لم يستطع قيامًا ولا تقلُّبا ثم يلقى أصناف العذاب ما دام رضيعًا، فإذا أفلت من عذاب الرَّضاع أخذ في عذاب الأدب فأذيق منه ألوانًا من عنف المعلم وضجر الدرس وسآمة[٤٩] الكتابة، ثم له من الدواء والحمية[٥٠] والأسقام والأوجاع أوفى نصيبٍ. فإذا أدرك لحقه همُّ الأهل وكانت همته في جمع المال وتربية الولد ومخاطرة الطلب والسعي والكدِّ والتعب، وهو من كل ذلك ينقلب مع أعدائه الباطنيين اللازمين له، وهم المرَّة الصفراء والمرَّة السوداء والريح والبلغم والدمِّ مع السمِّ المميت والحية اللاذعة والخوف من السباع والهوام مع تقلُّب الفصول من الحرِّ والبرد والأمطار والرياح والثلوج والشيطان الدائم والقرين السوء وغير ذلك من الطوارئ الرديئة ثم أنواع عذاب الهرم لمّنْ يبلغه.

فلو لم يخف من هذه الأمور شيئًا وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر بها لوجب عليه أن يكون مفكِّرًا في الساعة التي يحضره فيها الموت ويفارق الدنيا فيذكر ما هو نازل به في تلك الساعة مما هو أشدُّ جدًا من ذلك من فراق الأحبة والأقارب والمال وكل مضنون به من الدُّنيا مع الإشراف على الهول العظيم بعد الموت، فلو لم يفعل ذلك لكان حقيقًا أن يعدَّ عاجزًا مفرطًا[٥١] محبًا للدناءة مستحقًا للوم.

فمَنْ ذا الذي يعلم هذا ولا يستعدُّ له قبل حلوله ويحتال لغدٍ جهده في الحيلة، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدُّنيا وغرورها ولا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر. فإنه وإن كان الملك حازمًا عظيم المقدرة رفيع الهمة بليغ الفحص عدلاً مرجوًا صدوقًا شكورًا رحب الذراع مواظبًا على الحسنى عالمًا بالناس مهتمًا بأمور رعيته ناظرًا في أحوالهم محبًا للعلم والخير والأخيار شديدًا على الظلمة غير جبان ولا خفيف القياد[٥٢] رفيقًا بالتوسُّع على الرعية فيما يحبون والدَّفع لما يكرهون، فإنا قد نرى الزَّمان مدبرًا[٥٣] بكل مكان حتى كأن أمور الصدق قد نُزِعَت من الناس فأصبح ما كان عزيزًا فقده مفقودًا وموجودًا ما كان ضائرًا[٥٤] وجوده. وكأن الخير أصبح ذابلاً والشرَّ ناضرًا.

---

[٤٩] سآمة: ملل.

[٥٠] الحميَّة: منع المريض عما يضرُّه.

[٥١] مفرِّطًا: مقصِّرًا.

[٥٢] القياد: أي غير سهل الانقياد.

[٥٣] مدبرًا: موليًا.

[٥٤] ضائرًا: مضرًا.

وكأن الفهم أصبح قد زالت سبله، وكأن الحق ولى كسيرًا[٥٥] وأقبل الباطل تابعه، وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلا[٥٦] وأصبح المظلوم للحيف[٥٧] مقرًا والظالم بنفسه مستطيلاً.[٥٨] وكأن الحرص أصبح فاغرًا فاه من كل جهة يتلقف[٥٩] ما قرب منه وما بعد، وكأن الرضا أصبح مجهولاً، وكأن الأشرار يقصدون السماء صعودًا، وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض، وأصبحت المروءة مقذوفًا بها من أعلى شرف[٦٠] إلى أسفل درك[٦١] وأصبحت الدناءة ممكنة، وأصبح السلطان منتقلاً عن أهل الفضل إلى أهل النقص، وكأن الدنيا جذلة مسورة تقول قد غُيِّبَت الخيرات وأُظهِرَت السيئات.

فلمَّا فكَّرت في الدُّنيا وأمورها وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله ثم هو لا يتقلب إلاَّ في الشرور والهموم عجبت من ذلك كل العجب وتحققت أنه ليس إنسان ذو عقل يعلم ذلك ثم لا يحتال لنفسه في النجاة ويلتمس الخلاص. وإن فرَّط في ذلك فهو عندي عاجز قليل الرأي ناقص الهمة فيما له وعليه، ثم نظرت فإذا الناس كلهم مفرِّطون في ذلك مغفلون له، فقضيت العجب من ذلك، والتمست[٦٢] لهم عذرًا فيه ونظرت فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا لذَّة صغيرة حقيرة من النظر والسمع والشم والذوق واللمس لعله أن يصيب منها الطفيف أو يقتني منها اليسير. فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها.

---

[٥٥] كسيرًا: أي مكسور الخاطر.

[٥٦] موكلاً: أي لازمًا لهم.

[٥٧] الحيف: الظلم والجور.

[٥٨] مستطيلاً: متكبِّرًا.

[٥٩] يتلقف: يتناول.

[٦٠] أعلى شرف: مكان عالٍ.

[٦١] أسفل درك: قعر الشيء.

[٦٢] التمست: طلبت.

مثل الرجل الهارب من الفيل

فالتمست للإنسان مثلاً فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلَّى فيها وتعلَّق بغصنين كانا على سمائها؛ فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر، فإذا حيَّات أربع قد أخرجن رءوسهن من أجحارهن، ثم نظر فإذا في قعر البئر تنين فاتح فاه منتظرًا له ليقع فيأخذه، فرفع بصره على الغصنين فإذا في أصلهما جرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين[٦٣] لا يفتران.

فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ بصر قريبًا منه بخلية فيها عسل فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته لذَّته عن الفكرة في شيء من أمره وأن يلتمس الخلاص لنفسه، ولم يذكر أن رجليه على حيات أربع لا يدري متى يقع عليهن، ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين. فلم يزل لاهيًا غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك.

فشبَّهت بالبئر الدُّنيا المملوءة آفات وشرورًا ومخافاتٍ وعاهات.[٦٤]

وشبَّهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التي في البدن، فإنها متى هاجت أو هاج أحدها كانت كحمة[٦٥] الأفاعي والسمِّ المميت، وشبَّهت بالغصنين الأجل الذي هو إلى حين ثم لا بد من فنائه وانقطاعه، وشبَّهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والأبيض النهار اللذين هما دائبان في إفناء الأجل، وشبَّهت بالتنين المصير[٦٦] الذي لا بد منه. وشبَّهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الإنسان فيرى ويطعم ويسمع ويشمُّ ويلمس ويتشاغل عن نفسه ويلهو عن شأنه فينسى أمر الآخرة ويصد عن سبيل قصده.

فحينئذ صار أمري إلى الرضا بحالي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلي أن أصادف باقي أيامي زمانًا أصيب فيه دليلاً على هداي وسلطانًا على نفسي وقوامًا على أمري، فأقمت على هذه الحال واتجهت إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية، ثم عدت إليها في انتساخ هذا الكتاب وانصرفت منها إلى بلادي وقد انتسخت من كتبهم كتبًا كثيرة منها هذا الكتاب.

---

[٦٣] دائبين: مستمِّرين.

[٦٤] عاهات: أعراضًا مفسدة.

[٦٥] حمة: الإبرة التي تلسع بها الحية.

[٦٦] المصير: المنتهى.

الفصل الرابع

باب الأسد والثور وهو أوَّل الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف وهو رأس البراهمة: اضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب حتى يحملهما على العداوة والبغضاء.

مثل الشيخ وبنيه الثلاثة

قال بيدبا: إذا ابتلي المتحابان بأن يدخل بينهما المكذوب المحتال لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا[١] وآفة[٢] المودة النميمة، ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوند رجل شيخ له ثلاثة بنين، فلمَّا بلغوا أشدَّهم[٣] أسرفوا في مال أبيهم ولم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون بها لأنفسهم خيرًا؛ فلامهم أبوهم ووعظهم على سوء فعلهم، وكان من قوله لهم: يا بنيَّ إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلاَّ بأربعة أشياء؛ أمَّا الثلاثة التي يطلب فالسعة في الرزق، والمنزلة في الناس، والزاد للآخرة، وأمَّا الأربعة التي يحتاج إليها في درك[٤] هذه الثلاثة؛ فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثمَّ حسن القيام على ما اكتسب منه، ثمَّ استثماره، ثمَّ إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة.

[١] يتدابر: يولِّي بعضهما عن بعض.

[٢] الآفة: عرض مفسد لما أصابه وقد مرَّ.

[٣] أشدَّهم: قوَّتهم؛ أي خرجوا من سنِّ الصبوة.

[٤] درك: إدراك.

فمَنْ ضيَّع شيئًا من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته؛ لأنه إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن هو كان ذا مالٍ واكتسب ثمَّ لم يحسن القيام عليه أوشك المال أن يفنى ويبقى معدومًا[٥] وإن هو وضعه ولم يستثمره لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب، كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل ثم هو مع ذلك سريع فناؤه. وإن هو أنفقه في غير وجهه ووضعه في غير موضعه وأخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لم يمنع ذلك أيضًا ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه كمحبس الماء الذي لا تزال المياه تنصبُّ فيه فإن لم يكن له مخرج ومفاض[٦] ومتنفس يخرج منه الماء بقدر ما ينبغي خرب وسال ونزَّ من نواحٍ كثيرة وربما انبثق[٧] البثق العظيم؛ فذهب الماء ضياعًا.

وإن بنيَّ الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به[٨] وعلموا أن فيه الخير وعوَّلوا عليه؛ فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها ميون، فأتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير، وكان معه عجلة يجرُّها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة، فوحل شتربة في ذلك المكان، فعالجه[٩] الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد فلم يقدروا على إخراجه؛ فذهب الرجل وخلَّف عنده رجلاً يشارفه[١٠] لعل الوحل ينشف فيتبعه به، فلمَّا بات الرجل بذلك المكان تبرَّم[١١] به واستوحش؛ فترك الثور والتحق بصاحبه فأخبره بأن الثور قد مات، وقال له إن الإنسان إذا انقضت مدَّته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في الترقي في الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغنِ ذلك عنه شيئًا، وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالاً عليه.

---

[٥] معدمًا: فقيرًا.

[٦] مفاض: مكان يفيض منه.

[٧] انبثق: انثغر وانفجر.

[٨] أخذوا به: عملوا بموجبه.

[٩] فعالجه: حاول إخراجه.

[١٠] يشارفه: يطلِّع عليه.

[١١] تبرَّم: ملَّ.

مثل الرجل الهارب من الذئب واللصوص

كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة[١٢] فيها خوف من السباع، وكان الرجل خبيرًا بوعث[١٣] تلك الأرض وخوفها فلمَّا سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها، فلمَّا رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه ونظر يمينًا وشمالاً ليجد موضعًا يتحرَّز[١٤] فيه من الذئب فلم ير إلاَّ قرية خلف وادٍ فذهب مسرعًا نحو القرية. فلمَّا أتى الوادي لم يرَ عليه قنطرة ورأى الذئب قد أدركه؛ فألقى نفسه في الماء وهو لا يحسن السباحة وكاد يغرق لولا أن بصر به قوم من أهل القرية فتواقعوا[١٥] لإخراجه، فأخرجوه وقد أشرف على الهلاك، فلمَّا حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة[١٦] الذئب رأى على عدوة[١٧] الوادي بيتًا مفردًا فقال: أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلمَّا دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التُّجار وهو يقتسمون ماله ويريدون قتله. فلمَّا رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول[١٨] والإعياء[١٩] إذ سقط عليه الحائط فمات.

قال الرجل: صدقت قد بلغني هذا الحديث. وأمَّا الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث[٢٠] فلم يزل في مرج مخصب كثير الماء والكلأ،[٢١] فلمَّا سمن وأمن جعل يخور[٢٢] ويرفع صوته بالخوار، وكان قريبًا منه أجمة[٢٣] فيها أسد عظيم وهو ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالب وفهود ونمور، وكان هذا الأسد منفردًا

[١٢] مفازة: فلاة لا ماء فيها.

[١٣] وعث: وعورة.

[١٤] يتحرَّز: يتوقَّى.

[١٥] تواقعوا: أي رموا بأنفسهم.

[١٦] غائلة: شرٌّ.

[١٧] عدوة: جانب.

[١٨] الهول: الخوف الشديد.

[١٩] الإعياء: شدَّة التعب.

[٢٠] انبعث: سار مسرعًا.

[٢١] الكلأ: العشب.

[٢٢] يخور: من الخوار وهو صوت البقر.

[٢٣] أجمة: شجر كثير ملتف.

برأيه دون أخذ برأي أحد من أصحابه. فلمَّا سمع خوار الثور لم يكن رأى ثورًا قط ولا سمع خواره خامره[٢٤] منه هيبة وخشية[٢٥] وكره أن يشعر بذلك جنده، فكان مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط بل يُؤتَى برزقه كل يوم على يد جنده.

وكان فيمَنْ معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة، وكانا ذوي دهاء وعلم وأدب.

فقال دمنة يومًا لأخيه كليلة: يا أخي ما شأن الأسد مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط خلافًا لعادته؟ فقال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحبَّ وتاركين ما يكره ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم، فأمسك عن هذا واعلم أنه مَنْ تكلَّف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد من النجار. قال دمنة. وكيف كان ذلك؟

مثل القرد والنجار

قال كليلة: زعموا أن قردًا رأى نجارًا يشقُّ خشبة وهو راكب عليها، وكلمَّا شق منها ذراعًا أدخل فيها وتدًا؛ فوقف ينظر إليه وقد أعجبه ذلك، ثمَّ إن النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتكلَّف ما ليس من شأنه فركب الخشبة وجعل وجهه قبل الوتد[٢٦] وظهره قبل طرف الخشبة فتدلَّى ذنبه في الشقِّ ونزع الوتد فلزم الشق عليه فكاد يغشى عليه من الألم، ثمَّ إن النجار وافاه[٢٧] فأصابه[٢٨] على تلك الحالة فأقبل عليه يضربه. فكان ما لقي من النجار من الضرب أشدَّ مما أصابه من الخشبة.

قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت. وليس كل مَنْ يدنو من الملوك يقدر على صحبتهم ويفوز بقربهم. ولكن اعلم أن كل مَنْ يدنو منهم ليس يدنو منهم لبطنه، فإن البطن يُحشَى بكل شيء، وإنما يدنو منهم ليسرَّ الصديق ويكبت[٢٩] العدو. وإن من الناس مَنْ

[٢٤] خامره: داخله.

[٢٥] خشية: خوف.

[٢٦] قبل الوتد: إلى جهته.

[٢٧] وافاه: أتاه.

[٢٨] أصابه: وجده.

[٢٩] يكبت: يذل ويقهر.

لا مروءة له وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدُّون كالكلب الذي يصيب عظمًا يابسًا فيفرح به، وأمَّا أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ولا يرضون به دون أن تسمو بهم نفوسهم إلى ما هم أهل له وهو أيضًا لهم أهل، كالأسد الذي يفترس الأرنب فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير، ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه حتى ترمي له الكسرة من الخبز فيفرح بها وتقنعه منك، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح وجهه ويتملق له. فمَنْ عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على نفسه وأهله وإخوانه غير خامل المنزلة فهو وإن قلَّ عمره طويل العمر، ومَنْ كان في عيشه ضيق وإمساك[٣٠] على نفسه وذويه وكان خامل المنزلة فالمقبور أحيا[٣١] منه. ومَنْ عمل لبطنه وشهواته وقنع وترك ما سوى ذلك عُدَّ من البهائم.

قال كليلة: قد فهمت ما قلت فراجع عقلك واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدرًا، فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكًا[٣٢] كان حقيقًا أن يقنع، وليس لنا من المنزلة ما يحطُّ حالنا التي نحن عليها، ثمَّ إن منزلة الإنسان مقدورة عليه منذ الأزل فلا سبيل له إلاَّ الرضا بها كيف كانت.

قال دمنة إن المنازل متنازعة[٣٣] مشتركة على قدر المروءة، فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة، ومَنْ لا مروءة له يحطُّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة، وإن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد والانحطاط منها هين، كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق[٣٤] عَسِر ووضعه إلى الأرض هين.

فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل وأن نلتمس ذلك بمروءتنا، ثمَّ كيف نقنع بمنزلتنا ونحن نستطيع التحوُّل عنها؟

قال كليلة: فما الذي اجتمع عليه رأيك؟

قال دمنة: أريد أن أتعرَّض للأسد عند هذه الفرصة؛ لأنه قد ظهر لي أنه ضعيف الرأي قد التبس عليه أمره وعلى جنده أيضًا، ولعلي على هذه الحال أدنو منه فأصيب

[٣٠] إمساك: بخل وشحٌّ.

[٣١] أحيا: تفضيل من الحياة.

[٣٢] متماسكًا: أي مكتفيًا.

[٣٣] متنازعة: أي كل يطلبها.

[٣٤] العاتق: ما بين العنق والكتف.

عنده منزلة ومكانة فيبتدرني بالكلام؛ فأجيبه بما تقدحه[٣٥] القريحة لعلها تنتج بيننا نتيجة تؤدي إلى إظهار أمر مكتوم.

قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟

قال دمنة: بالحسِّ والرأي أعلم ذلك منه، فإن الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دلِّه وشكله.

قال كليلة: فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان ولا لك علم بخدمة السلاطين وآدابهم وآداب مجالسهم.

قال دمنة: الرجل الشديد القوي لا ينوء به[٣٦] الحمل الثقيل وإن لم تكن عادته الحمل، والرجل الضعيف لا يستقلُّ به وإن كان ذلك من صناعته.

قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخى[٣٧] بكرامته فضلاء مَنْ بحضرته ولكنه يؤثر الأدني ومَنْ قرب منه.

قال دمنة: يقال إن مثل السلطان في إيثاره[٣٨] الأفضل دون الأدني مثل شجر الكرم الذي لا يعلق إلاَّ بأكرم الشجر.

قال كليلة: وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولم تكن دنوت منه من قبل؟

قال دمنة: قد فهمت كلامك جميعه وتدبرت ما قلت[٣٩] وأنت صادق.

لكن اعلم أن الذين لهم المنازل الرفيعة عند الملوك قد كانوا قبل أن يرقوا[٤٠] إليها ليست بحالتهم فيقربون بعد البعد ويدنون بعد التنائي،[٤١] وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي، وقد قيل لا يواظب على باب السلطان إلاَّ مَنْ يطرح الأنفة[٤٢] ويحمل الأذى ويكظم[٤٣] الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السرَّ، فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده.

---

[٣٥] تقدحه: تخرجه.

[٣٦] ينوء به: يثقله.

[٣٧] لا يتوخى: لا يقصد ويتعمد.

[٣٨] إيثاره: اختياره.

[٣٩] تدبَّرت ما قلت: تفكَّرت فيه.

[٤٠] يرقوا: يصعدوا.

[٤١] التنائي: التباعد.

[٤٢] الأنفة: عزَّة النفس.

[٤٣] يكظم: يردُّ.

قال كليلة: هبك وصلت إلى الأسد فما توفيقك عنده الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده والحظوة لديه؟

قال دمنة: لو دنوت منه وعرفت أخلاقه لرفقت في متابعته وقلَّة الخلاف له، وإذا أراد أمرًا هو في نفسه صواب زيَّنته له وصبَّرته عليه وعرَّفته بما فيه من النفع والخير وشجَّعته عليه وعلى الوصول إليه حتى يزداد به سرورًا. وإذا أراد أمرًا يُخافُ عليه ضرُّه وشينه بصَّرته[٤٤] بما فيه من الضرر والشين وأطلعته على ما في تركه من النفع والزَّين بحسب ما أجد إليه السبيل وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة ويرى مني ما لا يراه من غيري. فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقًا أو يحقُّ باطلاً لفعل. كالمصوِّر الماهر الذي يصوِّر في الحيطان صورًا كأنها خارجة وليست بخارجة وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة. فإذا هو عرف ما عندي وبان له حسن رأيي وجودة فكري التمس إكرامي وقرَّبني إليه.

قال كليلة: أمَّا إن قلت هذا أو قلت هذا فإني أخاف عليك من السلطان؛ فإن صحبته خطرة، وأحذرك من الذي أردته لعظم خطره[٤٥] عندك، وقد قالت العلماء: إن ثلاثة لا يجترئ عليهن إلاَّ أهوج ولا يسلم منهن إلاَّ قليل، وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السمِّ للتجربة. وإنما شبَّه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار الطيبة والأنهار الجارية والجواهر النفيسة والأدوية النافعة، وهو مع ذلك معدن[٤٦] السباع والنمور والذئاب وكل ضارٍ[٤٧] مخوف؛ فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدُّ.

قال دمنة: صدقت فيما ذكرت، غير أنه مَنْ لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومَنْ ترك الأمر الذي لعلَّه يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعلَّه أن يتوقَّاه فليس ببالغ جسيمًا. وقد قيل: إن خصالاً ثلاثًا لن يستطيعها أحدٌ إلاَّ بمعونة من علو همة وعظيم خطر،[٤٨] منها صحبة السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة[٤٩] العدو، وقد قالت العلماء في

[٤٤] بصَّرته: عرَّفته وأوضحت له.

[٤٥] خطره: شرفه.

[٤٦] معدن: مكان.

[٤٧] ضارٍ: معتدٍ كاسر.

[٤٨] خطر: قدر ومنزلة.

[٤٩] مناجزة: مقاتلة.

الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا ينبغي أن يُرى إلاَّ في مكانين ولا يليق به غيرهما: إمَّا مع الملوك مكرمًا أو مع النُسَّاك متعبدًا. كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إمَّا أن تراه في البرية وحشيًا، وإمَّا مركبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك[٥٠] فيما عزمت عليه.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فعفَّر وجهه بين يديه وسلَّم عليه. فقال الأسد لبعض جلسائه: مَنْ هذا؟ فقال: هذا دمنة بن سليطٍ. قال: قد كنت أعرف أباه. ثم سأله: أين تكون؟ قال: لم أزل بباب الملك مرابطًا[٥١] داعيًا له بالنصر ودوام البقاء، رجاء أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسي ورأيي. فإن أبواب الملوك تكثر فيها الأمور التي ربما يحتاج فيها إلى الذي لا يؤبه[٥٢] له. وليس أحد يصغر أمره إلاَّ وقد يكون بعض الغناء[٥٣] والمنافع على قدره، حتى العود المُلقَى في الأرض ربما نفع فيأخذه الرجل فيحكُّ به إذنه فيكون عدَّته عند الحاجة إليه.

فلمَّا سمع الأسد قول دمنة أعجبه وطمع أن يكون عنده نصيحة ورأي. فأقبل على مَنْ حضر فقال: إن الرجل ذا النبل[٥٤] والمروءة يكون خامل الذكر منخفض المنزلة فتأبى منزلته إلاَّ أن تشبُّ[٥٥] وترتفع كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلاَّ ارتفاعًا.

فلمَّا عرف دمنه أن الأسد قد عجب منه وحسن عنده كلامه قال: أيها الملك إن رعيَّة الملك تحضر بابه رجاء أن يعرف ما عندها من علم وافر كالزرع والمدفون الذي لا يُعرَفُ فضله حتى يخرج ويظهر على وجه الأرض. فيجب على الملك أن يبلغ بكل أمرئ مرتبته على قدر رأيه وعلى قدر ما يجد عنده من المنفعة، وقد قيل: أمران لا ينبغي لأحد أن يأتيهما[٥٦] مثل أن يجعل الخلخال[٥٧] قلادة للعنق ومثل أن تجعل القلادة خلخالاً في

[٥٠] خار لك: أي جعل لك الخير.

[٥١] مرابطًا: ملازمًا.

[٥٢] لا يؤيه له: أي لا يلتفت إليه.

[٥٣] الغناء: النفع والاكتفاء.

[٥٤] النبل: الذَّكاء.

[٥٥] تشبُّ: تزداد.

[٥٦] يأتيهما: يفعلهما.

[٥٧] الخلخال: سوار يلبس في الرجل للزِّينة.

الرجل. وقد يقال: إن الفضل في أمرين: فضل المقاتل على المقاتل والعالم على العالم، وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرَّة على العمل. فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحي الأعوان، ومثل ذلك مثل الرجل الذي يحمل الحجر الثقيل فيقتل به نفسه ولا يجد له ثمنًا، وحامل الياقوت وإن قلَّ يقدر على بيعه بالكثير من المال، والعمل الذي يحتاج فيه إلى الحيل والخداع لا يقتحمه إلاَّ أفهم الرجال وأذكاهم، والرجل الذي يحتاج إلى الجذوع لا يجزئه[٥٨] القصب وإن كثر.

فأنت الآن أيها الملك حقيق أن لا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة، فإن الصغير ربما عظم كالعصب الذي يؤخذ من الميتة فإذا عملت منه القوس أكرم فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه في البأس واللهو، وأحب دمنة أن يري القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو لرأيه ومروءته وعقله؛ لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه.

فقال: إن السلطان لا يقرِّب الرجال لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينبغي أن ينظر إلى كل رجل بما عنده لأنه لا شيء أقرب على الرجل من جسده ومن جسده ما يدوى[٥٩] حتى يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلاَّ بالدَّواء الذي يأتيه من بعد.

فلمَّا فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الأسد به إعجابًا شديدًا وأحسن الرد عليه وزاد في كرامته، ثم قال الملك لجلسائه: ينبغي للسلطان أن لا يلحَّ في تضييع حق ذوي الحقوق، فإن عاقبة ذلك رديئة حتى ممَنْ لا يتوقع[٦٠] أذاه والناس في ذلك رجلان: رجل طبعه الشراسة فهو كالحيَّة إن وطئها الواطئ فلم تلدغه[٦١] لم يكن جديرًا أن يغرَّه ذلك منها فيعود على وطئها ثانية فتلدغه، ورجل أصل طباعه السهولة فهو كالصندل البارد الذي أفرط في حكِّه صار حارًا مؤذيًا.

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به فقال له يومًا: رأيت الملك قد أقام في مكان واحد لا يبرح منه خلافًا لمألوفه وهو، أعظمه الله، منيع الجانب نافذ الأمر آمن الساحة. فرأيت أن أتطاول عليه بالاستفهام على وجه النصيحة، فإن الأمور الخفية لا يظهرها إلاَّ البحث عنها، فإذا أُظهِرت أُجيِلت[٦٢] الفكرة فيها. فبينما هما في هذا الحديث إذ خار

[٥٨] لايجزئه: أي لا يغنيه.

[٥٩] يدوى: يمرض.

[٦٠] لا يتوقع: لا ينتظر.

[٦١] تلدغه: تلسعه.

[٦٢] أجيلت: أديرت.

شتربة خوارًا شديدًا فهيَّج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله، وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة وهيبة؛ فسأله: هل راب الملك[٦٣] سماع هذا الصوت؟ قال: لم يربني شيء سوى ذلك هو الذي حبسني هذه المدَّة في مكاني، وقد صحَّ[٦٤] عندي من طريق القياس أن جثة صاحب هذا الصوت المنكر الذي لم أسمعه قط عظيمة؛ لأن صوته تابع لبدنه. فإن يكن كذلك فليس لنا معه قرار ولا مقام.

قال دمنة: ليس الملك بحقيق أن يدع مكانه لأجل صوت. فقد قالت العلماء: ليس من كل الأصوات تجب الهيبة.

قال الأسد: وما مثل ذلك؟

مثل الثعلب والطبل

قال دمنة: زعموا أن ثعلبًا أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة وكلَّما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حرَّكتها فضربت الطبل فسُمِعَ له صوت عظيم باهر؛ فتوجَّه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته، فلمَّا أتاه وجده ضخمًا فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم؛ فعالجه حتى شقَّه، فلمَّا رآه أجوف لا شيء فيه قال: لا أدري لعل أفسل[٦٥] الأشياء أجهرها[٦٦] صوتًا وأعظمها جثة.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنا[٦٧] لو وصلنا إليه لوجدناه أيسر مما في أنفسنا، فإن شاء الملك بعثني وأقام بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت؛ فوافق الأسد قوله فأذن له في الذَّهاب نحو الصوت.

فانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شتربة. فلمَّا فصل[٦٨] دمنة من عند الأسد فكَّر الأسد في أمره وندم على إرسال دمنة حيث أرسله وقال في نفسه: ما أصبت في ائتماني دمنة وإطلاعه على سري وقد كان ببابي مطروحًا. فإن الرجل الذي يحضر باب الملك

[٦٣] راب: الريبة؛ الشكُّ.

[٦٤] صحُّ: ثبت.

[٦٥] أفسل: أضعف.

[٦٦] أجهرها: أعلاها.

[٦٧] راعنا: أفزعنا.

[٦٨] فصل: خرج.

إذا كان قد أطيلت جفوته[٦٩] من غير جرم كان منه أو كان مبغيًا عليه[٧٠] عند سلطانه، أو كان عنده معروفًا بالشره والحرص، أو كان قد أصابه ضرٌّ وضيق فلم ينعشه.[٧١] أو كان قد اجترم جرمًا فهو يخاف العقوبة منه أو كان لعدو الملك سلمًا ولسلمه حربًا، أو كان قد حيل[٧٢] بينه وبين ما في يديه من السلطان. أو باعده. أو طرده. فليس السلطان بحقيقٍ أن يعجِّل في الاسترسال إلى هؤلاء والثقة بهم والائتمان لهم.

وإن دمنة داهية[٧٣] أريب وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًا، ولعله قد احتمل عليَّ بذلك ضغنًا[٧٤] ولعل ذلك يحمله على خيانتي وإعانة عدوي ونقيصتي عنده، ولعله أن يصادف صاحب الصوت أقوى سلطانًا مني فيرغب به عني ويميل معه عليَّ، ولقد كان الواجب أن أهجم على صاحب هذا الصوت بنفسي، ولم يزل الأسد يحدِّث نفسه بأمثال ذلك حتى جعل يمشي وينظر إلى الطريق التي سار فيها دمنة، فلم يمشِ غير قليل حتى بصر بدمنة مقبلاً نحوه؛ فطابت نفسه بذلك ورجع إلى مكانه.

ودخل دمنه عليه فقال له الأسد: ماذا صنعت وماذا رأيت؟

قال: رأيت ثورًا وهو صاحب الخوار والصوت الذي سمعته: قال: فما قوته؟ قال: لا شوكة[٧٥] له وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئًا.

قال الأسد: لا يغرنَّك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره، فإن الريح الشديدة لا تعبأ[٧٦] بضعيف الحشيش لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر وتقلع الدَّوحة[٧٧] العاتية من موضعها.

قال دمنة: لا تهابن أيها الملك منه شيئًا ولا يكبرن عليك أمره فأنا على ضعفي آتيك به؛ فيكون لك عبدًا سامعًا مطيعًا.

---

[٦٩] جفوته: نقيض المواصلة والمؤانسة.

[٧٠] مبغيًا عليه: أي مظلومًا.

[٧١] لم ينعشه: أي لم يجبره بعد فقره.

[٧٢] حيل: اعترض.

[٧٣] داهية: أي ذو مكر وجودة رأي والتاء فيه للمبالغة.

[٧٤] ضغنًا: أي حقدًا.

[٧٥] لا شوكة: أي لا قوة له ولا شجاعة.

[٧٦] لا تعبأ: لا تبالي.

[٧٧] الدَّوحة: الشجرة العظيمة.

قال الأسد: دونك[٧٨] ما بدا لك. وقد تعلَّق أمله به.

فانطلق دمنة إلى الثور فقال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك وأمرني إن أنت عجَّلت إليه أن أؤمنِّك على ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه[٧٩] وإن أنت تأخرت وأحجمت[٨٠] أن أعجِّل الرجعة إليه فأخبره. قال له شتربة: ومَنْ هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ وأين هو وما حاله؟

قال دمنة: هو ملك السباع وهذا الأرض التي نحن عليها له وهو بمكان كذا ومعه جند كثير من جنسه.

فرعب شتربة من ذكر الأسد والسباع وقال: إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي أقبلت معك إليه؛ فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به ثم أقبل والثور معه حتى دخلا على الأسد؛ فأحسن الأسد إلى الثور وقرَّبه وقال له:

> متى قدمت هذه البلاد وما أقدمكها[٨١] فقصَّ شتربة عليه قصته. فقال له الأسد: اصحبني والزمني فإني مكرمك ومحسن إليك؛ فدعا له الثور وأثنى عليه وانصرف وقد أعجب به الأسد إعجابًا شديدًا لما ظهر له من عقله وأدبه، ثم إنه قرَّبه وأكرمه وأنس به وائتمنه على أسراره وشاوره في أمره ولم تزده الأيام إلاَّ عجبًا به ورغبة فيه وتقريبًا له حتى صار أخصَّ أصحابه عنده منزلة.

فلمَّا رأى دمنة أن الثور قد أُختصَّ[٨٢] بالأسد دونه ودون أصحابه وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه حسده حسدًا عظيمًا وبلغ منه غيظه كل مبلغٍ. فشكا ذلك إلى أخيه كليلة وقال له: ألا تعجب يا أخي من عجز رأيي وصنعي بنفسي ونظري فيما ينفع الأسد وأغفلت[٨٣] نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثورًا غلبني على منزلتي! قال كليلة: قد أصابك ما أصاب الناسك. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

---

[٧٨] دونك: أي افعل.

[٧٩] لقاءه: مقابلته.

[٨٠] أحجمت: كففت عنه.

[٨١] أقدمكها: أي ما الذي جعلك تأتيها.

[٨٢] اختصَّ: انفرد به.

[٨٣] أغفلت: تركت ,أهملت.

مثل الناسك واللصِّ

قال كليلة: زعموا أن ناسكًا أصاب من بعض الملوك كسوة فاخرة فبصر به سارق فطمع في الثياب وعمل على سرقتها، فأتى الناسك وقال له: إني أريد أن أصحبك فأتعلم منك وآخذ عنك. فأذن له الناسك في صحبته فصحبه متشبهًا به ورفق له في خدمته حتى أمنه الناسك واطمأن إليه؛ فرصده[٨٤] حتى إذا ظفر به وأمكنته الفرصة أخذ تلك الثياب فذهب بها.

فلمَّا فقد الناسك ثيابه علم أن صاحبه قد أخذها فتوجَّه في طلبه. فمرَّ في طريقه بوعلين يتناطحان حتى سألت دماؤهما. فجاء ثعلب يلغ[٨٥] في تلك الدماء ويتحكك بهما ويزاحمهما؛ فغضبا منه وأقبلا عليه بنطاحهما فقتلاه.

فعجب الناسك من ذلك ومضى حتى دخل إحدى المدن فلم يجد فيها قِرًى[٨٦] إلاَّ بيت امرأة فنزل بها واستضافها. وكانت للمرأة جارية تؤاجرها، وكانت الجارية قد علقت[٨٧] رجلاً تريد أن تتخذه بعلاً لها. وقد أضرَّ ذلك بمولاتها ولم يكن لها سبيل إلى مدافعته؛ فاحتالت لقتله في تلك الليلة التي استضافها فيها الناسك، ثم عن الرجل وافى[٨٨] فسقته من الخمرة حتى سكر ونام. فلمَّا استغرق في النوم ونام مَنْ في البيت عمدت[٨٩] لسمٍّ كانت قد أعدته في قصبة لتنفخه في أنف الرجل فلمَّا أرادت ذلك بدرت[٩٠] من أنفه عطسة فعكست السم إلى حلق المرأة فوقعت ميتة، وكل ذلك بعين الناسك وسمعه.

فلمَّا رأى ذلك لم يصدِّق أن طلع الصباح حتى خرج يبتغي منزلاً غيره، فاستضاف رجلاً إسكافًا، فأتى به امرأته وقال لها: انظري إلى هذا الناسك وأكرمي مثواه[٩١] وقومي بخدمته، فقد دعاني بعض أصدقائي للشرب عنده. ثم انطلق ذاهبًا. وكان للمرأة ابنة

[٨٤] رصده: ترقَّبه.

[٨٥] يلغ: يشرب بلسانه.

[٨٦] قِرًى: ضيافة.

[٨٧] علقت: أحبت.

[٨٨] وافى: أتى.

[٨٩] عمدت: قصدت.

[٩٠] بدرت: سبقت وأسرعت.

[٩١] مثواه: مقامه.

تريد أن تزوِّجها لرجل لم يكن زوجها يريده. فكان الرجل يختلف[٩٢] إلى البيت في غياب زوجها والوسيط بينهما امرأة حجَّام.[٩٣] فأرسلت امرأة الإسكاف إلى امرأة الحجَّام تأمرها بالمصير[٩٤] إليها وتعرِّف الرجل غياب زوجها وقالت: إن زوجي قد ذهب ليشرب عند بعض أصدقائه وإن عاد لا يعود سكران فقولي له يسرع الكرَّة[٩٥] ثم إن الرجل جاء فقعد على الباب ينتظر الإذن، ووافق ذلك مجيء الإسكاف سكران فرأى الرجل في الظلمة وارتاب به فلم يكلمه ودخل مغضبًا إلى امرأته فأوجعها ضربًا. ثم أوثقها في أسطوانة[٩٦] في المنزل وذهب فنام لا يعقل.

وجاءت امرأة الحجَّام تعلمها أن الرجل قد أطال الجلوس فقالت لها: انظري إلى ما أنا فيه بسببه، فإن شئت وأحسنت إليَّ حللتني وربطتك مكاني حتى أنطلق فأعتذر إليه وأعجل العودة؛ فأجابتها امرأة الحجَّام إلى ذلك وحلَّتها وانطلقت إلى الرجل وأوثقت هي نفسها مكانها، فاستيقظ الإسكاف قبل أن تعود زوجته. فناداها باسمها فلم تجبه امرأة الحجَّام وخافت من الفضيحة أن ينكر صوتها. ثم دعاها ثانية فلم تجبه. فامتلأ غيظًا وحنقًا وقام نحوها بالشفرة فجدع[٩٧] أنفها وقال: خذي هذا فأتحفي به صديقك! وهو لا يشكُّ في أنها امرأته.

ثم جاءت امرأة الإسكاف فرأت صنع زوجها بامرأة الحجَّام. فساءها ذلك وأكبرته[٩٨] وحلَّت وثاقها فانطلقت إلى منزلها مجدوعة الأنف وكل ذلك بعين الناسك وسمعه.

ثم إن امرأة الإسكاف جعلت تبتهل[٩٩] وتدعو على زوجها الذي ظلمها وتقول: اللهم إن كان زوجي قد ظلمني فأعد عليَّ أنفي صحيحًا، ثم رفعت صوتها ونادت زوجها: أيها الفاجر الظالم قم فأنظر كيف صنعك بي وصنع الله بي كيف رحمني وردَّ أنفي

---

[٩٢] يختلف: يأتي.

[٩٣] الحجَّام: هو الذي يعالج المريض بالمحجمة وهي قارورة يقال لها كأس الحجامة.

[٩٤] المصير: أي بالرجوع.

[٩٥] الكرَّة: الرجعة.

[٩٦] أسطوانة: عمود.

[٩٧] جدع: قطع.

[٩٨] أكبرته: أي رأته أمرًا كبيرًا.

[٩٩] تبتهل: تتضرَّع إلى الله.

صحيحًا كما كان. فقام وأوقد المصباح ونظر فإذا أنف زوجته صحيح؛ فاستغفر إليها وتاب عن ذنبه واستغفر إلى ربه.

وأمَّا امرأة الحجَّام فإنها لَمَّا وصلت إلى منزلها تفكَّرت في طلب العذر عند زوجها وأهلها في جدع أنفها ورفع الالتباس.

فلمَّا كان عند السحر استيقظ الحجَّام فقال لامرأته: هاتي أدواتي كلها فإني أريد المضي إلى بعض الأشراف. فأتته بالموسى. فقال لها: هاتي الأدوات جميعها. فلم تأته إلاَّ بالموسي؛ فغضب حين أطالت التكرار ورماها به فولولت وصاحت: أنفي أنفي! وجلبت[١٠٠] حتى جاء أهلها وأقرباؤها فرأوها على تلك الحالة، فأخذوا الحجَّام فانطلقوا به إلى القاضي، فقال له القاضي: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم تكن له حجَّة يحتجُّ بها. فأمر به القاضي أن يُقتصَّ منه[١٠١] فلمَّا قُدِّم للقصاص وافى الناسك فتقدَّم إلى القاضي وقال له: أيها الحاكم لا يشتبهنَّ عليك هذا الأمر، فإن اللصَّ ليس هو الذي سرقني، وإن الثعلب ليس الوعلان قتلاه، وإن المرأة ليس السمُّ قتلها، وإن امرأة الحجَّام ليس زوجها جدع أنفها، وإنما نحن فعلنا ذلك بأنفسنا. فسأله القاضي عن التفسير؛ فأخبره بالقصة، فأمر القاضي بإطلاق الحجَّام.

قال دمنة: قد سمعت هذا المثل وهو شبيه بأمري. ولعلِّي ما ضرَّني أحدٌ سوى نفسي، ولكن ما الحيلة؟

قال كليلة: أخبرني عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه في ذلك.

قال دمنة: أمَّا أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كنت عليه، ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كانت حالي عليه، فإن أمورًا ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها والاحتيال لها بجهده. منها النظر فيما مضى من الضرِّ والنفع، أن يحترس من الضرِّ الذي أصابه فيما سلف لئلا يعود إلى ذلك الضرِّ، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته، ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار. والاستيثاق[١٠٢] مما ينفع، والهرب مما يضرُّ، ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع وما يخاف من قبل الضرِّ ليستتمَّ ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهده.

---

[١٠٠] جلبت: صاحت وضجَّت.

[١٠١] يقتصُّ منه: أي يعاقب.

[١٠٢] الاستيثاق: التثبت.

وإني لَمَّا نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي وما غلبت عليه مما كنت فيه لم أجد حيلة ولا وجهًا إلاَّ الاحتيال لآكل العشب هذا حتى أفرق بينه وبين الحياة، فإنه إن فارق الأسد عادت لي منزلتي، ولعل ذلك يكون خيرًا للأسد. فإن إفراطه[١٠٣] في تقريب الثور خليق أن يشينه ويضرُّه في أمره.

قال كليلة: ما أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شيئًا ولا شرًا.

قال دمنة: إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء: الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزَّمان والخرق. فأَمَّا الحرمان فإن يحرم من صالحي الأعوان والنصحاء والساسة[١٠٤] من أهل الرأي والنجدة[١٠٥] والأمانة، وأن يكون مَنْ حوله فاسدًا مانعًا من وصول أمور الملك إليه، وأن يحرم هو أهل النصيحة والصلاح من عنايته والتفاته إليهم. وأَمَّا الفتنة فهي تحارب رعيته ووقوع الخلاف والنزاع بينهم وأَمَّا الهوى فالإغرام بالنساء والحديث واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك، وأَمَّا الفظاظة فهي إفراط الشدَّة حتى يجمح[١٠٦] اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعها. وأَمَّا الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين[١٠٧] من الموتان[١٠٨] ونقص الثمرات والغزوات وأشباه ذلك. وأَمَّا الخرق فإعمال الشدَّة في موضع اللين، واللين في موضع الشدَّة، وإن الأسد قد أُغرِمَ بالثور هو الذي ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضرُّه في أمره.

قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشدُّ منك وأكرم على الأسد منك وأكثر أعوانًا؟

قال دمنة: لا تنظر إلى صغري وضعفي، فإن الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر في الجثة. فربَّ صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أو لم يبلغك أن غرابًا ضعيفًا احتال لأسود[١٠٩] حتى قتله؟

---

[١٠٣] إفراطه: مجاوزته الحدِّ.

[١٠٤] الساسة: جمع سائس وهو مَنْ يتولى أمر الرعية ويدبرها ويحسن النظر إليها.

[١٠٥] النجدة: الشدَّة والبأس.

[١٠٦] يجمح: يسرع.

[١٠٧] السنين: أي التي فيها شدَّة وضيق.

[١٠٨] الموتان: موت يقع في الماشية.

[١٠٩] الأسود: حيَّة عظيمة.

مثل الغراب والأسود

قال دمنة: زعمو أن غرابًا كان له وكر في شجرة على جبل، وكان قريبًا منه حجر ثعبان أسود. فكان الغراب إذا أفرخ عمد الأسود إلى فراخه فأكلها فبلغ ذلك[١١٠] من الغراب فأحزنه فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى وقال له: أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه: وما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام فأنقر عينيه فأفقاهما لعلي أستريح منه. قال أبن آوى: بئس الحيلة التي احتلت! فالتمس أمرًا تصيب فيه بغيتك من الأسود من غير أن تغرِّر بنفسك[١١١] وتخاطر بها. وإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم[١١٢] الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه. قال الغراب: وكيف كان ذلك.

مثل العلجوم والسرطان

قال ابن آوى: زعموا أن علجومًا في أجمة كثيرة السمك. فكان يختلف إلى ما فيها من السمك فيأكل منه، فعاش بها ما عاش ثم هرم فلم يستطع صيدًا، فأصابه جوع وجهد شديد؛ فجلس حزينًا يلتمس الحيلة في أمره، فمرَّ به سرطان فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن. فدنا منه وقال له: ما لي أراك أيها الطائر هكذا حزينًا كئيبًا؟

قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما ههنا من السمك، وإني رأيت اليوم صيادين قد مرَّا بهذا المكان فقال أحدهما لصاحبه: إن ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده أولاً؟ فقال الآخر: إني قد رأيت في مكان كذا سمكًا أكثر من هذا السمك فلنبدأ بذلك فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه، وقد علمت أنهما إذا فرغا مما ثمَّ[١١٣] انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاد مدَّتي.

فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنَّ بذلك. فأقبلن على العلجوم فاستشرنه وقلن له: إنا أتيناك لتشير علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه، وبقاؤك ببقائنا. قال العلجوم: أمَّا مكابرة[١١٤] الصيادين فلا طاقة لي بها، ولا أعلم حيلة إلاَّ المصير إلى

[١١٠] بلغ ذلك: أي اشتدَّ الأمر عليه.

[١١١] تغرِّر بنفسك: أي تعرِّضها للهلكة.

[١١٢] العلجوم: طائر أبيض.

[١١٣] ثمَّ: أي من الذي هناك.

[١١٤] مكابرة: معاندة.

غدير قريب من هنا فيه سمك ومياه كثيرة وقصب. فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن.[١١٥]

فقلن له: ما يمنُّ علينا بذلك غيرك. فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بعض التلال فيأكلهما، حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين فجاءه السرطان فقال له: إني أيضًا قد أشفقت[١١٦] من مكاني هذا واستوحشت منه، فاذهب بي إلى ذلك الغدير، فقال له: حبًا وكرامة.[١١٧] واحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التلِّ الذي كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك فعلم أن العلجوم هو صاحبها وأنه يريد به مثل ذلك فقال في نفسه: إذا لقي الرجل عدوَّه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك سواءً قاتل أم لم يقاتل كان حقيقًا[١١٨] أن يقاتل عن نفسه كرمًا حفاظًا، ولا يمكِّنه من نفسه حتى يستفرغ ما عنده من الحيلة في قتاله. لأنه قد بنى أمره على التلف فلعل خلاصه في ذلك القتال، والهلاك واقع به كيف كان فلم يزل يحتال على العلجوم حتى تمكَّن من عنقه فأهوى بكلبتيه[١١٩] عليها فعصرها فمات وتخلَّص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنَّ بذلك.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال، ولكني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك وتكون فيه سلامتك. قال الغراب: وما ذاك؟ قال ابن آوى: تنطلق فتتبصر في طيرانك لعلك أن تظفر بشيء من حلي النساء فتخطفه ولا تزال طائرًا واقعًا بحيث لا تفوت العيون. فإذا رأيت الناس قد تبعوك تأتي جحر الأسود فترمي بالحلي عنده. فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود.

فانطلق الغراب محلِّقًا في السماء، فوجد امرأة من بنات العظماء على شاطئ نهر تغتسل وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية، فانقضَّ[١٢٠] واختطف من حليها عقدًا وطار

[١١٥] الخصب: رفاهة العيش.
[١١٦] أشفقت: خفت.
[١١٧] حبًا وكرامة: الحبُّ الجرَّة، والكرامة غطاؤها قيل.
[١١٨] حقيقًا: أي اولى به.
[١١٩] بكلبتيه: أي ظفريه.
[١٢٠] انقضَّ: سقط بسرعة.

به؛ فتبعه الناس، ولم يزل طائرًا واقعًا بحيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الأسود فألقى العقد عليه والناس ينظرون إليه. فلمَّا أتوا أخذوا العقد وقتلوا الأسود.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ[١٢١] ما لا تجزئ القوة. قال كليلة: إن الثور لو لم يجتمع مع شدَّته رأيه لكان كما تقول. ولكن له مع شدَّته وقوَّته حسن الرأي والعقل فماذا تستطيع له؟

قال دمنة: إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيه ولكنه مقرٌّ لي بالفضل وأنا خليق أن أصرعة[١٢٢] كما صرعت الأرنب الأسد.

مثل الأرنب والأسد

قال دمنة: زعموا أن أسدًا كان في أرض كثيرة المياه والعشب، وكان في تلك الأرض من الوحوش في سعة المياه والمرعى شيء كثير؛ إلاَّ أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد.

فاجتمعت وأتت إلى الأسد فقالت له: إنك لتصيب منا الدَّابة بعد الجهد والتعب، وقد رأينا لك رأيًا فيه صلاح لك وأمن لنا؛ فإن أنت أمنتنا ولم تخفنا فلك علينا في كل يوم دابة نرسل بها إليك في وقت غدائك؛ فرضي الأسد بذلك وصالح الوحش عليه ووفينَّ له به، ثم إن أرنبًا أصابتها القرعة وصارت غداء الأسد؛ فقالت للوحوش: إن أنتن رفقتن[١٢٣] بي فيما لا يضركن رجوت أن أريحكن من الأسد. فقالت الوحوش: وما الذي تكلِّفيننا من الأمور؟ قالت: تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلني ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء. فقلن لها: ذلك لك. فانطلقت الأرنب متباطئة حتى جاوزت الوقت الذي كان يتغدى فيه الأسد. ثم تقدَّمت إليه وحدها رويدًا وقد جاع؛ فغضب وقام من مكانه نحوها فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: أنا رسول الوحوش إليك وقد بعثتني ومعي أرنب لك فتبعني أسد في بعض تلك الطريق فأخذها مني وقال: أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش. فقلت له: إن هذا غداء الملك أرسلت به الوحوش إليه فلا تغصبنه؛ فسبَّك وشتمك، فأقبلت مسرعة لأخبرك.

---

[١٢١] تجزئ: تغني.

[١٢٢] أصرعه: أهلكه.

[١٢٣] رفقتن: عاملتني بالرفق.

فقال الأسد: انطلقي معي فأريني موضع هذا الأسد. فانطلقت الأرنب إلى جبٍّ[١٢٤] فيه ماء غامر[١٢٥] صافٍ فاطلعت فيه وقالت: هذا المكان. فاطلع الأسد فرأى ظله وظل الأرنب في الماء، فلم يشك في قولها ووثب على الأسد ليقاتله فغرق في الجب؛ فانقلبت[١٢٦] الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد.

قال كليلة: إن قدرت على هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرَّة للأسد فشأنك. فإن الثور قد أضرَّ بي وبك وبغيرنا من الجند، وإن أنت لم تقدر على ذلك إلاَّ بهلاك الأسد، فلا تقدم عليه فإنه غدر مني ومنك.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا كثيرة. ثم أتاه على خلوة منه، فقال له الأسد: ما حبسك عني؟ منذ زمان لم أرك. ألا لخير كان انقطاعك. قال دمنة: ليكن خيرًا أيها الملك. قال الأسد: وهل حدث أمر؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده. قال: وما ذاك؟ قال: كلام فظيع. قال: أخبرني به.

قال دمنة: إن كل كلام يكرهه سامعه لا يجسر عليه قائله وإن كان ناصحًا مشفقًا إلاَّ إذا كان المقول له عاقلاً، فإن اتفق ذلك حمل القول على محمل المحبة وعلم ما فيه من النصيحة؛ لأن ما كان فيه من نفع فهو له.

وإنك أيها الملك لذو فضيلة ورأيك يدلك على أنه يوجعني أن أقول ما تكره، وإني واثق بك أنك تعرف نصحي وإيثاري إياك على نفسي، وإنه ليعرض[١٢٧] لي أنك غير مصدقي فيما أخبرك به، ولكني إذا تذكَّرت وتفكَّرت أن نفوسنا معاشر الوحوش متعلِّقة بك لم أجد بدًا من أداء[١٢٨] النصح الذي يلزمني وإن أنت لم تسألني أو خفت أن لا تقبله مني. فإنه يقال مَنْ كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان رأيه فقد خان نفسه.

[١٢٤] جبٌّ: بئر.

[١٢٥] غامر: كثير.

[١٢٦] انقلبت: رجعت.

[١٢٧] يعرض: يظهر.

[١٢٨] أداء: إيصال.

قال الأسد: فما ذاك؟ قال دمنة: حدثني الأمين الصدوق عندي أن شتربة خلا برءوس جندك وقال لهم: إني قد خبرت[١٢٩] الأسد وبلوت[١٣٠] رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي أن ذلك يؤول[١٣١] منه إلى ضعف وعجز وسيكون لي وله شأن من الشئون.

فلمَّا بلغني ذلك علمت أن شتربة خوَّان غدَّار، وأنك أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظير نفسك فهو يظن أنه مثلك وأنك متى زلت عن مكانك كان له ملكك ولا يدع جهدًا إلاَّ بلغه فيك. وقد كان يقال: إذا عرف الملك من أحد رعيته أنه قد ساواه في المنزلة والحال فليصرعه. فإن هو لم يفعل به ذلك كان هو المصروع. وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها. والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه. فإنك لا تأمن أن يكون وأن تستدركه، فإنه يقال: الرجال ثلاثة حازم وأحزم منه وعاجز؛ فالحازم مَنْ إذا نزل به الأمر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شعاعا[١٣٢] ولم تعي به[١٣٣] حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه، وأحزم من هذا المقدام ذو العدَّة الذي يعرف الابتلاء[١٣٤] قبل وقوعه فيعظمة إعظامًا ويحتال له حيلة حتى كأنه قد لزمه فيحسم الدَّاء قبل أن يُبتلَى به ويدفع الأمر قبل وقوعه وأمَّا العاجز فهو في تردُّد وتمنٍ وتوان[١٣٥] حتى يهلك، ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

مثل السمكات الثلاث

قال دمنة: زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث من السمك: كيِّسة[١٣٦] وأكيس منها وعاجزة. وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد، ويقربه نهر حارٍ، فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما

[١٢٩] خبرت: امتحنت.

[١٣٠] بلوت: جرَّبت.

[١٣١] يؤول: يرجع.

[١٣٢] شعاعًا: متفرقًا.

[١٣٣] تعي: تعجز.

[١٣٤] الابتلاء: المحنة.

[١٣٥] توانٍ: تقصير.

[١٣٦] كيسة: حسنة التأني.

فيه من السمك؛ فسمعت السمكات قولهما؛ فأمَّا أكيسهن فلمَّا سمعت قولهما ارتابت[١٣٧] بهما وتخوَّفت منهما فلم تعرج[١٣٨] على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت بنفسها، وأمَّا الكيِّسة الأخرى فإنها مكثت مكانها وتهاونت في الأمر حتى جاء الصيادان، فلمَّا رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء فإذا بهما قد سدَّا ذلك المكان فحينئذ قالت: فرَّطت[١٣٩] وهذه عاقبة التفريط فيكف الحيلة على هذه الحال؟ وقلَّما تنجح حيلة العجلة والإرهاق[١٤٠] غير أن العاقل لا يقنط[١٤١] من منافع الرأي ولا ييأس على حال ولا يدع الرأي والجهد، ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها؛ فأخذها الصيادان وظنَّاها ميتة فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت. وأمَّا العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صِيدَت.

قال الأسد: قد فهمت ذلك ولا أظن الثور يغشُّني ولا يرجو لي الغوائل، وكيف يفعل ذلك ولم يرَ مني سوءًا قط ولم أدع خيرًا إلاَّ فعلته معه ولا أمنية إلاَّ بلغته إياها!

قال دمنة: أيها الملك إنه لم يحمله على ذلك إلاَّ ما ذكرته من إكرامك له وتبليغك إياه كل منزلة خلا منزلتك وإنه متطلع إليها؛ فإن اللئيم لا يزال نافعًا ناصحًا حتى يُرفَعَ إلى المنزلة التي ليس لها بأهلٍ. فإذا بلغها اشرأبت[١٤٢] نفسه إلى ما فوقها ولا سيما أهل الخيانة والفجور. فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلاَّ من فرق[١٤٣] أو حاجة، فإذا استغنى وذهبت الهيبة والحاجة عاد إلى جوهره، كذنب الكلب الذي يُربَطُ ليستقيم فلا يزال مستويًا مادام مربوطًا فإذا حُلَّ انحنى وتعوَّج كما كان.

واعلم أيها الملك أنه مَنْ لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينصحون له لم يحمد غبَّ[١٤٤] رأيه. كالمريض الذي يدع ما يصف له الطبيب ويعمد لما تشتهيه نفسه،

[١٣٧] ارتابت: شكَّت.

[١٣٨] لم تعرج. لم تقف.

[١٣٩] فرَّطت: قصَّرت.

[١٤٠] الإرهاق: التأخُّر.

[١٤١] لا يقنط: أي لا يقطع الأمل.

[١٤٢] اشرأبت: ارتفعت.

[١٤٣] فرق: خوف.

[١٤٤] غبُّ: غاقبة.

وحق على مؤازر[١٤٥] السلطان أن يبالغ في التحضيض[١٤٦] له على ما يزيد به سلطانه قوَّة ويزيِّنه والكف عما يضره ويشينه. وخير الإخوان والأعوان أقلُّهم مداهنة[١٤٧] في النصيحة، وخير الأعمال أحمدها عاقبة، وخير النساء الموافقة لبعلها، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، وأفضل الملوك مَنْ لا يخالطه بطر[١٤٨] ولا يستكبر عن قبول النصيحة، وخير الأخلاق أعوانها على الورع.[١٤٩]

وقد قيل: لو أن امرءًا توسَّد النار وافترش الحيَّات كان أحق أن يهنئه النوم ممَنْ يحسُّ من صاحبه بعداوة يريده بها ويطمئن إليه، وأعجز الملوك آخذهم بالهويناء وأقلُّهم ينظرًا في مستقبل الأمور وأشبههم بالفيل الهائج الذي لا يلتفت إلى شيء. فإن أحزنه أمر تهاون به[١٥٠] وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه.

قال الأسد: لقد أغلظت في القول وقول الناصح مقبول محمول، وإن كان شتربة معاديًا لي كما تقول فإنه لا يستطيع أن يضرَّني ولا أن يفتَّ في ساعدي،[١٥١] وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشبٍ وأنا آكل لحم؟ وإنما هو لي طعام وليس عليَّ منه مخافة، ثم ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذي جعلته له وبعد إكرامي له وثنائي عليه، وإن غيرت ما كان مني وبدلته فقد سفَّهت رأيي وجهَّلت نفسي وغدرت بذمتي ونقضت[١٥٢] عهدي.

قال دمنة: لا يغرَّنّـك قولك هو لي طعام وليس عليَّ منه مخافة. فإن شتربة إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره، ويقال إن استضافك ضيف ساعة من نهار وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك ولا تأمن أن يصيبك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

---

[١٤٥] مؤازر: معاون.

[١٤٦] التحضيض: الحثُّ.

[١٤٧] مداهنة: غشًا وتدليسًا.

[١٤٨] بطر: طغيان بالنعمة.

[١٤٩] الورع. التقوى.

[١٥٠] تهاون به: استحقره واستهزأ به.

[١٥١] يفتُّ في ساعدي: يضعفني.

[١٥٢] نقضت: أبطلته.

مثل القملة والبرغوث

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهرًا فكانت تصيب من دمه وهو نائم لا يشعر وتدبُّ دبيبًا رفيقًا، فمكثت كذلك حينًا حتى استضافها ليلة من الليالي برغوث، فقالت له: بت الليلة عندنا في دم طيب وفراش لين؛ فأقام البرغوث عندها حتى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغة أيقظته وأطارت النوم عنه؛ فقام الرجل وأمر أن يفتش فراشه فنظر فلم ير إلاَّ القملة فأخذت فقصعت[١٥٣] وفرَّ البرغوث.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب الشرِّ لا يسلم من شرِّه أحد، وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشرُّ بسببه، وإن كنت لا تخاف من شتربة فخفْ غيره من جندك الذين قد حرَّشهم عليك[١٥٤] وحملهم على عداوتك؛ فوقع في نفس الأسد كلام دمنة فقال: فما الذي ترى إذن وبماذا تشير؟ قال دمنة: إن الضرس المأكول لا يزال صاحبه منه في ألم وأذى حتى يقلعه، والطعام الذي قد عفن في البطن الراحة في قذفه، والعدو المخيف دواؤه قتله. قال الأسد: لقد تركتني أكره مجاورة شتربة إياي. وأنا مرسل إليه وذاكر له ما وقع في نفسي منه، ثم آمره باللحاق حيث أحبَّ.

فكره دمنة ذلك وعلم أن الأسد متى كلَّم شتربة في ذلك وسمع منه جوابًا عرف باطل ما أتى هو به واطلع على غدره وكذبه ولم يخف عليه أمره؛ فقال للأسد: أمَّا إرسالك إلى شتربة فلا أراه لك رأيًا ولا حزمًا. فلينظر الملك في ذلك فإنه لا يزال في نفسك الخيار ما دام لا يعلم أن أمره قد وصل إليك. فإنه متى علم ذلك خفتُ أن يعاجل الملك بالمكابرة. وهو إن قاتلك قاتلك مستعدًا وإن فارقك فارقك فراقًا يليك[١٥٥] منه النقص ويلزمك منه العار. مع أن ذوي الرأي من الملوك لا يعلنون عقوبة مَنْ لم يعلن ذنبه. ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة. فلذنب العلانية عقوبة العلانية، ولذنب السرِّ عقوبة السرِّ.

قال الأسد: إن الملك إذ عاقب أحدًا عن ظنَّةٍ[١٥٦] ظنَّها من غير تيقُّن لجرمه فنفسه عاقب وإياها ظلم وكان ناقص البصيرة.

---

[١٥٣] قُصِعَت: أي قُتِلَت بالظفر.

[١٥٤] حرَّشهم عليك: أغراهم بك.

[١٥٥] يليك: يلحقك.

[١٥٦] ظنَّة: تهمة.

قال دمنة: أمَّا إذا كان هذا رأي الملك فلا يدخلنَّ عليك شتربة إلاَّ وأنت مستعد له، وإياك أن تصيبه منك غرَّة أو غفلة، فإني لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلاَّ سيعرف أنه قد همَّ بعظيمة، ومن علامات ذلك أنك ترى هيئته متغيرة، وترى أوصاله ترعد[١٥٧] وتراه ملتفتًا يمينًا وشمالاً، وتراه يصوِّب قرنيه فعل الذي همَّ بالنطاح والقتال.

قال الأسد: سأكون منه على حذر وإن رأيت منه ما يدلُّ على ما ذكرت علمت أن ما في أمره شكٌّ.

فلمَّا فرغ دمنة من تحريش الأسد على الثور وعرف أنه قد وقع في نفسه ما كان يلتمس، وأن الأسد سيتحذَّر من الثور ويتهيأ له أراد أن يأتي الثور ليغريه بالأسد، وأحبَّ أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به، فقال: أيها الملك ألاَّ آتي شتربة فأنظر إلى حاله وأمره وأسمع كلامه لعلي أن أطلع على سره فأطلع الملك على ذلك وعلى ما يظهر لي منه؟ فأذن له الأسد في ذلك. فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين. فلمَّا رآه الثور رحَّب به، وقال: ما كان سبب انقطاعك عني فإني لم أرك منذ أيام، أسلامة هو؟ قال دمنة: ومتى كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه وأمره بيد غيره ممَنْ لا يوثق به ولا ينفك على خطر وخوف حتى ما من ساعة تمرُّ ويأمن فيها على نفسه!

قال شتربة: وما الذي حدث؟ قال دمنة: ما قُدِّر وهو كائن، ومَنْ ذا الذي غالب القدر؟ ومَنْ ذا الذي بلغ من الدُّنيا جسيمًا من الأمور فلم يبطر؟ ومَنْ ذا الذي بلغ مناه فلم يغتر؟[١٥٨] ومَنْ ذا الذي تبع هواه فلم يخسر؟ ومَنْ ذا الذي حادث النساء فلم يصب؟[١٥٩] ومَنْ ذا الذي طلب من اللئام[١٦٠] فلم يحرم؟ ومَنْ ذا الذي خالط الأشرار فسلم؟ ومَنْ ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟ ولقد صدق الذي قال: مثل السلاطين في قلة وفائهم لمَنْ صحبهم وسخاء أنفسهم بمَنْ فقدوا من قرنائهم كمثل صاحب الخان كلَّما فقد واحدًا جاء آخر.

قال شتربة: إني أسمع منك كلامًا يدلُّ على أنه قد رابك من الأسد رائب وهالك منه أمر.

---

[١٥٧] ترعد: تضطرب وتهتزُّ.

[١٥٨] لم يغتر: أي فلم يغفل ولم يخدع.

[١٥٩] لم يصب: أي فلم تحلُّ به المصائب.

[١٦٠] اللئام: البخلاء الأدنياء.

قال دمنة: أجل لقد رابني منه ذلك وليس هو في أمر نفسي.

قال شتربة: ففي نفس من رأيك؟ قال دمنة: قد تعلم ما بيني وبينك وتعلم حقَّك عليَّ وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيام أرسلني الأسد إليك؛ فلم أجد بدًا من حفظك وإطلاعك على ما اطلعت عليه مما أخاف عليك منه.

قال شتربة: وما الذي بلغك؟ قال دمنة: حدثني الخبير الصدوق الذي لا مرية[١٦١] في قوله أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه: قد أعجبني سمن الثور وليس لي إلى حياته حاجة فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه. فلمَّا بلغني هذا القول وعرفت غدره وسوء عهده أقبلت إليك لأقضي حقك وتحتال أنت لأمرك.

فلمَّا سمع شتربة كلام دمنة وتذكَّر ما كان دمنة جعل له من العهد والميثاق وفكَّر في أمر الأسد ظنَّ أن دمنة قد صدقه ونصح له، ورأى أن الأمر شبيه بما قال دمنة. فأهمَّه ذلك وقال: ما كان للأسد أن يغدر بي ولم آتِ إليه ذنبًا ولا على أحد من جنده منذ صحبته، ولا أظن الأسد إلاَّ قد حُمِلَ عليَّ[١٦٢] بالكذب وشبِّه[١٦٣] عليه أمري فإن الأسد قد صحبه قوم سوء وجرَّب منهم الكذب وأمورًا تصدق إذا بلغته عن غيرهم؛ فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء ظن بالأخيار وحمله ما يختبره منهم على الخطأ في حق غيرهم، كخطأ البطة التي زعموا أنها رأت في الماء ضوء كوكب فظنته سمكة فحاولت أن تصيدها فلمَّا جرَّبت ذلك مرارًا علمت أنه ليس بشيء يصاد فتركته، ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة. فظنت أنها مثل الذي رأته بالأمس فتركتها ولم تطلب صيدها.

فإن كان الأسد قد بلغه عني كذبٌ فصدَّقه عليَّ وسمعه فيَّ فما جرى على غيري يجري عليَّ، وإن كان لم يبلغه شيء وأراد السوء بي من غير علَّة فإن ذلك لمن أعجب الأمور، وقد كان يقال: إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط؛ فإذا كانت الموجدة[١٦٤] عن علَّة كان الرضا موجودًا والعفو مأمولاً، وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء؛ لأن العلَّة إذا كانت الموجودة في

[١٦١] لا مرية: أي لا شكٌّ.

[١٦٢] حُمِلَ عليَّ: أي أغروه ليوقع بي.

[١٦٣] شبِّه: التبس.

[١٦٤] الموجدة: الغضب.

ورودها[١٦٥] كان الرضا مأمولاً في صدورها، وقد نظرت فلا أعلم بيني وبين الأسد جرمًا لا كبير ذنبٍ ولا صغيره، ولعمري لا يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس في كل شيء من أمره ولا أن يتحفَّظ من أن يكون منه كبيرة أو صغيرة يكرهها صاحبه. ولكن الرجل ذا العقل والوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها وعرف قدر مبلغ خطئه عمدًا كان أو خطأ. ثم ينظر هل في الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه فلا يؤخذ صاحبه بشيء يجد فيه على الصفح عنه سبيلاً.

فإن كان الأسد قد اعتقد عليَّ ذنبًا فلست أعلمه إلاَّ أني خالفته في بعض رأيه بطرًا مني نصيحة له. فلعله أن يكون قد أنزل أمري على الجراءة عليه والمخالفة له، ولا أجد لي في هذا المحضر إثمًا ما؛ لأني لم أخالفه في شيء إلاَّ ما قد ندر عنه مخالفته الرشد[١٦٦] والمنفعة والدين، ولم أجاهر بشيء من ذلك على رءوس جنده وعند أصحابه ولكن كنت أخلو به وأكلِّمه سرًا كلام الهائب[١٦٧] الموقِّر. وعلمت أنه مَنْ التمس الرُّخص[١٦٨] من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة فقد أخطأ منافع الرأي وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورُّطًا وحمل الوزر.[١٦٩]

وإن لم يكن هذا فلعله أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان فإن صحبة السلطان خطرة، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة فربما عثر مصاحبه العثرة فلا ينتعش ولا تقال عثرته، وإن لم يكن هذا فبعض ما أوتيت من الفضل قد جُعِلَ ليَّ فيه الهلاك، وبعض المحاسن آفة لصاحبها. فإن الشجرة اللذيذة الثمر ربما كان أذاها في حملها فلويت أغصانها وهُصِرَت[١٧٠] أطرافها حتى تتكسر، والطاووس الذي ذنبه أفضله ينسل فيؤلمه، والفرس المطهم الجري ربما ركب حتى ينقطع، والبلبل الحسن الصوت يحبس دون غيره من الطير، وإن لم يكن هذا ولا هذا فهو إذن من

[١٦٥] الورود: بلوغ الماء والقرب منه من غير دخول وقد يحصل دخول فيه، والصدور خلافه وكلاهما هنا على الاستعارة والضمير للعلَّة.

[١٦٦] الرشد: الاستقامة على طريق الحق.

[١٦٧] الهائب: اسم فاعل من هابه إذا أجلَّه وخافه.

[١٦٨] الرُّخص: جمع رخصة وهي اليسر والسهولة.

[١٦٩] الوزر: الإثم.

[١٧٠] هصرت: عطفت.

مواقع القضاء والقدر الذي لا يدفع، والقدر هو الذي يسلب الأسد قوته وشدَّته ويدخله القبر، وهو الذي يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج، وهو الذي يسلط على الحيَّة ذات الحمة مَنْ ينزع حمتها ويلعب بها، وهو الذي يصير العاجز حازمًا ويثبط[١٧١] السهم المنطلق ويوسِّع على المقتر[١٧٢] ويشجِّع الجبان ويجبن الشجاع عندما تعتريه[١٧٣] المقادير بالعلل التي اتفقت لها.

قال دمنة: إن إرادة الأسد بك ليست من تحريش الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك، ولكنها الغدر والفجور منه فإنه فاجر خوَّان غدَّار لطعامه حلاوة وآخره سمٌّ مميت.

قال شتربة: فأراني قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها وقد انتهيت على آخرها الذي هو الموت، ولولا الحين ما كان مقامي عند الأسد وهو آكل لحم وأنا آكل عشب؛ فأنا في هذه الورطة كالنحلة التي تجلس على نور[١٧٤] النيلوفر[١٧٥] إذ تستلذُّ ريحه وطعمه فتحبسها تلك اللذة عن الحين الذي ينبغي أن تطير فيه، فإذا جاء الليل ينضم عليها فترتبك فيه وتموت، ومَنْ لم يرض من الدُّنيا بالكفاف الذي يغنيه وطمحت عينه إلى ما سوى ذلك ولم يتخوَّف عاقبته كان كالذُّباب الذي لا يرضى بالشجر والرياحين ولا يقنعه ذلك حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل فيضربه الفيل بأذنيه فيهلكه، ومَنْ يبدِ ودَّه ونصيحته لَمَنْ لا يشكره فهو كمَنْ يبذر في السباخ[١٧٦] ومَنْ يشر على المعجب كمَنْ يشاور الميت أو يسار الأصم.

قال دمنة: دعْ عنك هذا الكلام واحتل لنفسك. قال شتربة: بأي شيء أحتال لنفسي إذا أراد الأسد أكلي مع ما عرَّفتني من رأي الأسد وسوء أخلاقه؟ وأعلم أنه لو لم يرد بي إلاَّ خيرًا ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي لقدروا على ذلك. فإنه إذا اجتمع

[١٧١] يثبط: يعوِّق.

[١٧٢] المقتر: المفتقر.

[١٧٣] تعتريه: تصيبه.

[١٧٤] نور: زهر.

[١٧٥] النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ومتى ساوى سطح الماء أورق وأزهر.

[١٧٦] السباخ: من الأرض ما لم يحرث ولم يعمر.

المكرة الظلمة على البريء الصالح كانوا خلقاء أن يهلكوه وإن كانوا ضعفاء وهو قوي. كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل الذئب والغراب وابن آوى الجمل

قال شتربة: زعموا أن أسدًا كان في أجمة مجاورة لطريقٍ من طرق الناس وكان له أصحاب ثلاثة: ذئب وغراب وابن آوى، وإن رعاة مرُّوا بذلك الطريق ومعهم جمال، فتخلَّف منها جمل فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد، فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ قال: من موضع كذا. قال: فما حاجتك؟ قال: ما يأمرني به الملك. قال: تقيم عندنا في السَّعة والأمن والخصب؛ فأقام الأسد والجمل معه زمانًا طويلاً، ثم إن الأسد مضى في بعض الأيام لطلب الصيد، فلقي فيلاً عظيمًا فقاتله قتالاً شديدًا وأفلت منه مثقلاً مثخنًا[١٧٧] بالجراح يسيل منه الدَّم، وقد خدشه الفيل بأنيابه، فلمَّا وصل إلى مكانه وقع لا يستطيع حراكًا ولا يقدر على طلب الصيد؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوى أيامًا لا يجدون طعامًا؛ لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه فأصابهم وأصابه جوع شديد وهزال، وعرف الأسد منهم ذلك فقال: لقد جهدتم واحتجتم إلى ما تأكلون. فقالوا: لا تهمنا أنفسنا، لكنَّا نرى الملك على ما نراه فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه. قال الأسد: ما أشكُّ في نصيحتكم ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدًا تأتوني به فيصيبني ويصيبكم عنه رزق.

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحوا وائتمروا فيما بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الآكل العشب الذي ليس شأنه من شأننا ولا رأيه من رأينا، ألا نزيِّن للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد لأنه قد أمَّن الجمل وجعل له من ذمته. قال الغراب: أنا أكفيكم أمر الأسد. ثم انطلق فدخل عليه فقال له الأسد: هل أصبت شيئًا؟ قال الغراب: إنما يصيب مَنْ يسعى ويبصر. وأمَّا نحن فلا سعي لنا ولا بصر لما بنا من الجوع، ولكن قد وفقنا إلى أمر واجتمعنا عليه إن

[١٧٧] مثخنًا: أي مبالغًا بجراحه.

وافقنا الملك فنحن له مجيبون. قال الأسد: وما ذاك؟ قال الغراب: هذا الجمل آكل العشب المتمرِّغ بيننا من غير منفعة لنا منه ولا ردٍّ عائدةٍ[١٧٨] ولا عمل يعقب مصلحة.

فلمَّا سمع الأسد ذلك غضب وقال: ما أخطأ رأيك وما أعجز مقالك وأبعدك عن الوفاء والرحمة وما كنت حقيقًا أن تجترئ عليَّ بهذه المقالة وتستقبلني بهذه الخطاب مع ما علمت من أني قد أمَّنت الجمل وجعلت له من ذمتي، أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هي أعظم أجرًا ممَنْ أمَّن نفسًا خائفة وحقن دمًا مهدورًا؟ أمَّنته ولست بغادر به ولا خافر[١٧٩] له ذمة.

قال الغراب: إني لأعرف ما يقول الملك ولكن النفس الواحدة يُفتدَى بها أهل البيت وأهل البيت تُفتدَى بهم القبيلة، والقبيلة يُفتدَى بها أهل المصر وأهل المصر[١٨٠] فِدَى الملك. وقد نزلت بالملك الحاجة وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا على أن لا يتكلَّف الملك ذلك ولا يليه بنفسه ولا يأمر به أحدًا، ولكنا نحتال بحيلة لنا وله فيها صلاح وظفر.

فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب. فلمَّا عرف الغراب إقرار الأسد أتى صاحبيه فقال لهما: قد كلَّمت الأسد في أكله الجمل على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد فنذكر ما أصابه ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره وحرصًا على صلاحه، ويعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملاً ليأكله فيردُّ الآخران عليه ويسفها رأيه ويبينا الضرر في أكله. فإذا جاءت نوبة الجمل صوبنا رأيه؛ فهلك وسلمنا كلنا ورضي الأسد عنا.

ففعلوا ذلك وتقدَّموا إلى الأسد، فقال الغراب: قد احتجت أيها الملك إلى ما يقوتك. ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك فإنا بك نعيش فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك ولا لنا في الحياة من خيرة، فليأكلني الملك فقد طبت بذلك نفسًا؛ فأجابه الذئب وابن أوى أن اسكت فلا خير للملك في أكلك وليس فيك شبع.

قال ابن آوى: لكن أنا أشبع الملك فليأكلني فقد رضيت بذلك وطبت نفسًا؛ فردَّ عليه الذئب والغراب بقولهما: إنك لمنتن قذر.

قال الذئب: إني لست كذلك فليأكلني الملك فقد سمحت بذلك وطابت به نفسي؛ فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا: قد قالت الأطباء مَنْ أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب.

---

[١٧٨] عائدة: معروف.

[١٧٩] خافر: ناقض.

[١٨٠] المصر: المدينة والصقع.

فظنَّ الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل التمسوا له عذرًا كما التمس بعضهم لبعض الأعذار فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك وينجو من المهالك. فقال: لكن أنا فيَّ للملك شبع وري ولحمي طيب هني وبطني نظيف فليأكلني الملك ويطعم أصحابه وخدمه فقد رضيت بذلك وطابت نفسي به.

فقال الذئب وابن آوى والغراب: لقد صدق الجمل وكرم وقال ما عرف؛ ثم إنهم وثبوا عليه فمزَّقوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكي فإني لست أقدر أن أمتنع منهم ولا أحترس، وإن كان رأي الأسد في على غير ما هم عليه من الرأي فإن ذلك لا ينفعني ولا يغني عني شيئًا، وقد يقال خير السلاطين مَنْ أشبه النسر وحوله الجيف لا مَنْ أشبه الجيفة وحولها النسور، ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلاَّ الخير والرحمة لغيَّرته كثرة الأقاويل. فإنها إذا كثرت لم تكف دون أن تذهب الرِّقة والرأفة. ألا ترى أن الماء ليس كالقول، وأن الحجر أشدُّ من الإنسان؟ والماء إذا دام انحداره على الحجر لم يزل به حتى يثقبه ويؤثر فيه، وكذلك القول في الإنسان.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟ قال شتربة: ما أرى إلاَّ الاجتهاد والمجاهدة بالقتال، فإنه ليس للمصلي في صلاته، ولا للمتحسب[181] في صدقته، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه إذا كانت مجاهدته على الحق.

قال دمنة: لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه وهو يستطيع غير ذلك، ولكن ذا الرأي جاعل القتال آخر الحيل وبادئ قبل ذلك بما استطاع من رفقٍ وتمحُّلٍ[182] الأعوان. فكيف بالأسد على جراءته وشدَّته! فإن مَنْ حقَّر عدوِّه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى.

قال شتربة: وكيف كان ذلك؟

[181] المحتسب: المتصدِّق لوجه الله.

[182] تمحُّل: احتيال.

مثل وكيل البحر والطيطوى

قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له. فلمَّا جاء أوان إفراخهما قالت الأنثى للذكر: لو التمسنا مكانًا حريزًا[١٨٣] غير هذا نفرخ فيه فإني أخاف من البحر إذا مدَّ الماء أن يذهب بفراخنا. فقال لها: ما أراه يحمل علينا فإن وكيل البحر يخافني أن أنتقم منه، فأفرخي في مكانك فإنه موافق النار والماء والزَّهر منا قريب. قالت له: يا غافل ما أشدَّ عنادك وتصلُّبك! أما تذكر وعيده وتهدُّده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك في وعيد من لا طاقة لك به؟ فأبي أن يطيعها. فلمَّا أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له: إن مَنْ لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين. قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

مثل السلحفاة والبطتين

قالت الأنثى: زعموا أن غديرًا كان عنده عشب، وكان فيه بطتان، وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة، فاتفق أن غيض[١٨٤] ذلك الماء فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا: السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه؛ فقالت: إنما بين نقصان الماء على مثلي التي كأني السفينة لا أقدر على العيش إلاَّ بالماء. فأمَّا أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما، فاذهبا بي معكما، قالتا: نعم. قالت: كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا: نأخذ بطرفي عود وتقبضين بفيك على وسطه ونطير بك في الجوِّ، وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي، ثم أخذتاها فطارتا بها في الجوِّ. فقال الناس: عجبٌ سلحفاة بين بطتين قد حملتاها! فلمَّا سمعت ذلك قالت: فقأ الله أعينكم أيها الناس. فلمَّا فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر: قد سمعت مقالتك فلا تخافي وكيل البحر.

---

[١٨٣] حريزًا: حصينًا منيعًا.

[١٨٤] غيض: نقص.

فلمَّا مدَّ الماء ودنا وكيل البحر فذهب بفراخهما. فقالت الأنثى: قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائن وما أصابنا إنما هو بتفريطك.[١٨٥] قال الذكر: قد قلت ما قلت وأنا على قولي وسوف ترين صنعي به وانتقامي منه.

ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن: إنكن أخواتي وثقاتي فأعنني.

قلن: ماذا تريد أن تفعل؟ قال: تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر ونقول لهنَّ إنكنَّ طير مثلنا فأعننا. فقالت له جماعة الطير: إن العنقاء بنت الريح هي سيدتنا وملكتنا. فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها فتظهر لنا فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوَّة ملكها.

ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى فاستغثنها[١٨٦] وصحن بها فتراءت لهنَّ فأخبرنها بقصتهنَّ وسألنها أن تطير معهنَّ إلى محاربة وكيل البحر. فأجابتهنَّ إلى ذلك.

فلمَّا علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له به، فردَّ فراخ الطيطوى وصالحه؛ فرجعت العنقاء عنه.

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأيًا.

قال شتربة: فما أنا بمقاتل الأسد ولا ناصب له العداوة سرًا ولا علانية ولا متغير له عما كنت عليه حتى يبدو لي منه ما أتخوَّف فأغالبه.

فكره دمنة قوله وعلم أن الأسد إن لم يرَ من الثور العلامات التي كان ذكرها له اتهمه وأساء به الظن. فقال لشتربة: اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك.

قال شتربة: وكيف أعرف ذلك؟ قال دمنة: سترى الأسد حين تدخل عليه مُقعيًا[١٨٧] على ذنبه رافعًا صدره إليك مادًا بصره نحوك قد صرَّ[١٨٨] أذنيه وفغر فاه واستوى للوثبة. قال: إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك في قولك.

ثم إن دمنة لَمَّا فرغ من تحريش الأسد على الثور والثور على الأسد توجَّه إلى كليلة: فلمَّا التقيا قال كليلة: إلام انتهى عملك الذي كنت فيه؟ قال دمنة: قريب من الفراغ على ما أحبُّ وتحبُّ.

---

[١٨٥] بتفريطك: بتقصيرك.

[١٨٦] استغثنها: أي طلبن مساعدتها.

[١٨٧] مُقعيًا: أي جالسًا على استه ناصبًا فخذيه كجلوس الكلب.

[١٨٨] صرَّ: نصب.

ثم إن كليلة ودمنة انطلقا ليحضرا قتال الأسد والثور وينظرا ما يجري بينهما وما يؤول إليه أمرهما وجاء شتربة فدخل على الأسد فرآه مُقعيًا كما وصفه له دمنة فقال: ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحيَّة التي في صدره لا يدري متى تهيج عليه.

ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة فلم يشكُّ أنه جاء لقتاله. فواثبه ونشأت بينهما الحرب واشتدَّ قتال الثور والأسد وطال وسالت بينهما الدماء.

فلمَّا رأى كليلة أن الأسد قد بلغ من القتال ما بلغ قال لدمنة: أيها الفسل[١٨٩] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك! قال دمنة: وما ذاك؟ قال كليلة: جُرِحَ الأسد وهلك الثور، وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال وهو يجد إلى غير ذلك سبيلاً، وإنما الرجل إذا أمكنته الفرصة من عدوِّه يتركه مخافة التعرُّض له بالمجاهرة ورجاء أن يقدر عليه بدون ذلك. وإن العاقل يدبِّر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها، فما رجا أن يتمَّ له منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذَّر عليه منها انحرف عنه ولم يلتفت إليه، وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا، فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل. أين معاهدتك إياي أنك لا تضرُّ بالأسد في تدبيرك؟ وقد قيل: لا خير في القول إلاَّ مع العمل، ولا في الفقه إلاَّ مع الورع، ولا في الصدقة إلاَّ مع المنية، ولا في المال إلاَّ مع الجود، ولا في الصدق إلاَّ مع الوفاء، ولا في الحياة إلاَّ مع الصحة، ولا في الأمن إلاَّ مع السرور، وقد شرطت أمرًا لا يقدر عليه إلاَّ العاقل الرفيق.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ويزيد الأحمق طيشًا، كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظرًا ويزيد الخفاش سوء النظر، فذو العقل لا يبطر من منزلة أصابها وإن تعاظم أمره وقدره، ويكون عند ذلك كالجبل الذي لا تحرِّكه الرياح الشديدة، والسخيف كالعشب يحرِّكه أدنى ريح.

وقد أذكرني أمرك شيئًا سمعته، ومثله في ذلك مثل الماء الطيب الذي فيه التماسيح لا يقدر أحد أن يتناوله وإن كان إلى الماء محتاجًا، وإنما الملك زينته أن يكون جنوده ووزراؤه ذوي صلاح فيسددون[١٩٠] أحوال الناس وينظرون في صلاحهم وأنت يا دمنة أردت أن لا يدنو من الأسد أحد سواك؛ وهذا أمر لا يصحُّ ولا يتمُّ أبدًا وذلك للمثل

[١٨٩] الفسل: الضعيف الرذل الذي لا مروءة له.

[١٩٠] يسدِّدون: يقومون.

المضروب: إن البحر بأمواجه والسلطان بأصحابه، ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، والتماس الآخرة بالرياء، ومودَّة النساء بالغلظة، ونفع النفس بضرِّ الغير، وما عظتي وتأديبي إياك إلاَّ كما قال الرجل للطائر: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ولا تعالج تأديب ما لا يتأدب.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل الرجل والطائر

قال كليلة: زعموا أن جماعة من القردة كانوا ساكنين في جبلٍ. فالتمسوا في ليلة باردة ذات رياح وأمطار نارًا فلم يجدوا فرأوا يراعة[١٩١] تطير كأنها شرارة نار فظنُّوها نارًا وجمعوا حطبًا كثيرًا فألقوه عليها وجعلوا ينفخون بأفواههم ويتروحون[١٩٢] بأيديهم طمعًا في أن يوقدوا نارًا يصطلون[١٩٣] بها من البرد، وكان قريبًا منهم طائر على شجرة ينظرون إليه وينظر إليهم وقد رأى ما صنعوا فجعل يناديهم ويقول: لا تتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنار.

فلمَّا طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه. فمرَّ به رجل فعرف ما عزم عليه فقال له: لا تلتمس تقوِّم ما لا يستقيم، فإن الحجر الصلب الذي لا ينقطع لا تجرَّب عليه السيوف، والعود الذي لا ينحني لا تعمل منه القوس، فلا تتعب. فأبى الطائر أن يطيعه وتقدَّم إلى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليست بنارٍ، فتناوله بعض القرد فضرب به الأرض فمات. فهذا مثلك معي في ذلك. ثمَّ قد غلب عليك الخبِّ[١٩٤] والفجور[١٩٥] وهما خلتا[١٩٦] سوء، والخبُّ شرُّهما عاقبة؛ ولهذا مثل. قال دمنة: وما ذلك المثل؟

[١٩١] يراعة: ذبابة تطير بالليل كأنها نار وتُعرَفُ عند بعض العامة بسراج الليل.

[١٩٢] يتروَّحون: يجلبون الريح كما يُفعَلُ بالمروحة.

[١٩٣] يصطلون: يتدفئون.

[١٩٤] الخب: الخبث والخداع والغش.

[١٩٥] الفجور: المعصية والكذب.

[١٩٦] خلتا: خصلتا.

مثل الخب والمغفل

قال كليلة: زعموا أن خبًا ومغفلاً اشتركا في تجارة وسافرا. فبينما هما في الطريق تخلَّف المغفل لبعض حاجته فوجد كيسًا فيه ألف دينارٍ فأخذه. فأحسَّ به الخب فرجعا إلى بلدهما حتى إذا دنوا من المدينة قعدا لاقتسام المال. فقال المغفل: خذ نصفه وأعطني نصفه. وكان الخبُّ قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جميعها، فقال: لا نقتسم فإن الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصفاء والمخالطة. ولكن آخذ نفقة وتأخذ مثلها وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة فهو مكان حريز[١٩٧] وذلك أكتم لأمرنا. فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه ولا يعلم بموضعنا أحد. فأخذا منها يسيرًا ودفنا الباقي في أصل الشجرة ودخلا البلد.

ثم إن الخبَّ خالف المغفل إلى الدنانير فأخذها وسوَّى الأرض كما كانت. وجاء المغفل بعد ذلك فقال للخبِّ: قد احتجت إلى نفقة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا. فقام الخبُّ معه وذهبا إلى المكان فحفرا فلم يجدا شيئًا. فأقبل الخبُّ على وجهه يلطمه ويقول: لا تغتر بصحبة صاحب.

خالفتني إلى الدنانير فأخذتها. فجعل المغفل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخبُّ إلاَّ شدَّة في اللطم وقال: ما أخذها غيرك، وهل شعر بها أحد سواك؟

ثم طال بينهما ذلك، فترافعا إلى القاضي، فاقتصَّ القاضي قصتهما.

فادَّعى الخبُّ أن المغفل أخذها وجحد[١٩٨] المغفل. فقال للخبِّ: ألك على دعواك بينة؟ قال: نعم، الشجرة التي كانت الدنانير عندها تشهد لي أن المغفل قد أخذها، وكان الخبُّ قد أتى أباه فقصَّ عليه القصة وطلب إليه أن يذهب فيتوارى في الشجرة بحيث إذا سُئِلَ أجاب. فقال له أبوه: رُبَّ متحيِّل أوقعه تحيُّله في ورطة عظيمة لا يقدر على الخلاص منها. فإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم. قال الخبُّ: وكيف كان ذلك؟

---

[١٩٧] حريز: حصين.

[١٩٨] جحد: أنكر.

مثل العلجوم والحيَّة وابن عرس

قال أبوه: زعموا أن علجومًا جاور حيَّة فكان كلَّما أفرخ جاءت إلى عشه وأكلت فراخه؛ ففزع[١٩٩] في ذلك إلى السرطان فقال له السرطان: إن بقربك جحرًا يسكنه ابن عرس وهو يأكل الحيَّات، فاجمع سمكًا كثيرًا وفرِّقه من جحر ابن عرس إلى جحر الحيَّة فإنه إذا بدأ في أكل السمك انتهى إلى جحر الحية فأكلها. ففعل وكان كذلك. ثمَّ تدرَّج ابن عرس من جحر الحية في طلب غيرها حتى بلغ إلى حجر العلجوم فأكله أيضًا وفراخه جميعًا.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن مَنْ لم يتثبت في الحيل ويتدبرها وينظر فيها أوقعته حيلته في أشدَّ مما يحتال له. قال الخبُّ: قد فهمت ما ذكرت ولكن لا تخف فإن الأمر يسير حقير. ولم يزل به حتى طاوعه وانطلق معه فدخل جوف الشجرة.

ثم إن القاضي لَّما سمع من الخبِّ حديث شهادة الشجرة أكبره وانطلق هو وأصحابه والخبُّ والمغفل معه حتى وافى الشجرة فسألها عن الخبر. فقال الشيخ من جوفها: نعم، المغفل أخذها. فلمَّا سمع القاضي ذلك اشتدَّ تعجبُّه وجعل يطوف بالشجرة حتى بان له خرق فيها، فتأمله فلم ير فيه شيئًا، فدعا بحطب وأمر أن تُحرق الشجرة، فأضرمت حولها النيران؛ فاستغاث أبو الخبِّ عند ذلك فأُخرِج وقد أشرف على الهلاك. فسأله القاضي عن القصة فأخبره بالخبر؛ فأوقع بالخبِّ ضربًا وبأبيه صفعًا وأركبه مشهورًا وغرَّم الخبُّ الدنانير فأخذها وأعطاها المغفل.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الخبَّ والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون، وإنك يا دمنة جامع للخبِّ والخديعة والفجور، وإني أخشى عليك ثمرة عملك مع أنك لست بناجٍ من العقوبة لأنك ذو لونين ولسانين. وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار، وصلاح أهل البيت ما لم يكن بينهم المفسد، وإنه لا شيء أشبه بك من الحيَّة ذات اللسانين التي فيها السمُّ فإنه قد يجري من لسانك كسمِّها. وإني لم أزل لذلك السمِّ من لسانك خائفًا ولما يحل بك متوقعًا، والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحيَّة التي يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها ثم لا يكون له منها غير اللدغ، وقد يقال الزم ذا العقل وذا الكرم وذا الأصل الطيب واسترسل إليهم وإياك ومفارقتهم، واصحب الصاحب إذا كان عاقلاً كريمًا أو عاقلاً غير كريمٍ أو كريمًا غير عاقل؛ فالعاقل

[١٩٩] فزع: التجأ.

الكريم كامل، والعاقل غير الكريم اصحبه وإن كان غير محمود الخليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق، وإني بالفرار منك لجدير.

وكيف يرجو إخوانك عندك كرمًا وودًا وقد صنعت بملكك الذي أكرمك وشرَّفك ما صنعت؟ وإن مثلك مثل التاجر الذي قال: إن أرضًا تأكل جرذانها مئة مَنٍّ[٢٠٠] حديدًا ليس بمستنكر لبزاتها[٢٠١] أن تختطف الفيلة؟ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل التاجر والأرض التي تأكل جرذانها الحديد

قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر فأراد الخروج إلى بعض الوجوه[٢٠٢] لابتغاء الرزق، وكان عنده مئة مَنٍّ حديدًا، فأودعها رجلاً من إخوانه وذهب في وجهه. ثم قدم بعد ذلك بمدَّةٍ فجاء، والتمس الحديد فقال له: قد أكلته الجرذان. فقال: قد سمعت أن لا شيء أقطع من أنيابها للحديد. ففرح الرجل بتصديقه على ما قال وادَّعى.

ثم إن التاجر خرج فلقي ابنًا للرجل فأخذه وذهب به إلى منزله. ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له: هل عندك علم من ابني؟ فقال له التاجر: إني لمَّا خرجت من عندك بالأمس رأيت بازيًا قد اختطف صبيًا صفته كذا ولعله ابنك. فلطم الرجل رأسه وقال: يا قوم هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تختطف الصبيان؟ فقال: نعم. وإن أرضًا تأكل جراذنها مئة مَنٍّ حديدًا ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة. قال له الرجل: أنا أكلت حديدك هذا ثمنه فاردد عليَّ ابني.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن مَنْ غدر بملكه وصاحب نعماه فليس بعجب أن يغدر بغيره، وإذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمَنْ سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودَّة موضع، فلا شيء أضيع من مودة تُمنَحُ مَنْ لا وفاء له، وحباء[٢٠٣] يُصطنع

[٢٠٠] مَنٌّ: المنُّ رطلان.

[٢٠١] بزاتها: جمع باز وهو من جوارح الطير.

[٢٠٢] الوجوه: النواحي.

[٢٠٣] حباء: عطاء.

عند مَنْ لا شكر له، وأدب يحمل إلى مَنْ لا يتأدب به ولا يسمعه، وسرٌّ يُسْتَوَدَعُ مَنْ لا يحفظه. وإن الشجرة المرَّة لو طُلِيت بالعسل لم يُجدِها ذلك شيئًا، وإن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشرَّ. كالريح إذا مرَّت بالطيب حملت طيبًا، وإذا مرَّت بالنتن حملت نتنًا، وقد طال وثقل كلامي عليك.

فانتهى كليلة من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور، ثم فكر في قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب وقال: لقد فجعني[٢٠٤] شتربة بنفسه وكان ذا عقل ورأي وخلق كريم، ولا أدري لعله كان بريئًا أو مكذوبًا عليه؛ فحزن وندم على ما كان منه. وتبين ذلك في وجهه وبصر به دمنة فترك مجاورة كليلة وتقدَّم إلى الأسد فقال له: ليهنئك الظفر، إذا أهلك الله أعداءك، فما يحزنك أيها الملك؟ قال: أنا حزين على عقل شتربة ورأيه وأدبه. قال له دمنة: لا ترحمه أيها الملك فإن العاقل لا يرحم مَنْ يخافه، وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم قرَّبه وأدناه لما يعلم عنده من الغناء[٢٠٥] والكفاءة فعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع رجاء منفعته. وربما أحبَّ الرجل وعزَّ عليه فأقصاه وأهلكه مخافة ضرره، كالذي تلدغه الحية في إصبعه فيقطعها ويتبرأ منها؛ مخافة أن يسري سمُّها إلى بدنه.

فرضي الأسد بقول دمنة، ثم علم بعد ذلك بكذبه وفجوره فقتله شرَّ قتلة.

---

[٢٠٤] فجعني: أوجعني بفقده.

[٢٠٥] الغناء: المنفعة.

الفصل الخامس

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال كيف يفسد بالنميمة المودَّة الثابتة بين المتحابين، فحدثني إن رأيت بما كان من حال دمنة وإلام آل مآله بعد قتل شتربة، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه في الثور وأدخل النَّميمة على دمنة، وما كانت حجته التي احتجَّ بها.

قال الفيلسوف: إني وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم على قتله وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته وأنه كان أكرم أصحابه عليه وأخصُّهم منزلة لديه وأقربهم وأدناهم إليه، وكان يواصل له المشورة دون خواصه.[1] وكان من أخصِّ أصحابه عنده بعد الثور والنمر، فاتفق أنه أمسى النمر ذات ليلة عند الأسد فخرج من عنده جوف الليل يريد منزله فاجتاز على منزل كليلة ودمنة. فلمَّا انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه ويلومه في النَّميمة واستعمالها مع الكذب والبهتان في حق الخاصة، وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول منه فوقف يستمع ما يجري بينهما؛ فكان فيما قال كليلة لدمنة: لقد ارتكبت مركبًا صعبًا ودخلت مدخلاً ضيقًا وجنيت على نفسك جناية موبقة[2] وعاقبتها وخيمة، وسوف يكون مصرعك شديدًا إذا انكشف للأسد أمرك واطلع عليه وعرف غدرك ومحالك[3] وبقيت لا ناصر لك.

[1] خواصه: المقربين من رجال دولته.

[2] موبقة: مهلكة.

[3] محالك: أي طلبك الأمر بالحيل والمكر.

فيجتمع عليك الهوان والقتل مخافة شرِّك وحذرًا من غلوائك. فلست بمتخذك بعد اليوم خليلاً ولا مفشٍ لك سرًا؛ لأن العلماء قد قالوا: تباعد مَمَنْ لا رغبة لك فيه، وأنا جدير بمباعدتك والتماس الخلاص لي مما وقع في نفس الأسد من هذا الأمر.

فلمَّا سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعًا فدخل على أمِّ الأسد فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تبوح بما يسرُّ إليها فعاهدته على ذلك؛ فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة، فلمَّا أصبحت دخلت على الأسد فوجدته كئيبًا حزينًا مهمومًا لما ورد عليه من قتل شتربة، فقالت له: ما هذا الهمُّ الذي أخذ منك وغلب عليك؟ قال يحزنني قتل شتربة إذ تذكرت صحبته ومواظبته معي وما كنت أسمع من مؤامرته وأسكن إليه في مشاورته وأقبل من مناصحته. قالت أمُّ الأسد: إن كنت ترى أن لك في قتله فرجًا لا ينبغي لك أن تحزن وإلاَّ فقلبك يشهد أن عملك الذي عملته لم يكن صوابًا ولا عدلاً؛ لأن العلماء قد قالوا: إذا أردت أن تعلم عدوك من صديقك ففكِّر في نفسك فإن لم يكن قلبك له سليمًا فاعلم أنه لك كذلك.

فانظر الآن وابحث في ذات نفسك هل ترى ضميرك يشهد لك أن الذي فعلته بالثور كان عدلاً أم ظلمًا؟

فقال الأسد: إن صحَّ ما تقولين فإني لم أقتل الثور إلاَّ ظلمًا لأني قد بحثت في نفسي كما تقولين فلم أجد فيها إلاَّ ما يدلُّ على براءة شتربة وقتله ظلمًا وبغيًا[٤] مكذوبًا عليه من الأشرار، وإن كثرة البحث عن الأمور تحقُّ الحق وتبطل الباطل، وإن حديثك ليدلُّ على مكنون أمر. أفبلغك شيء عن هذا الأمر؟

فقالت أمُّ الأسد: إن أشدَّ ما شهد امرؤ على نفسه. وهذا خطأ عظيم، كيف أقدمت على قتل الثور بلا علم ولا يقين؟ ولولا ما قالت العلماء من إذاعة الأسرار وما فيها من الإثم والشنار[٥] لذكرت لك وأخبرتك بما علمت. فإن العلماء قد قالوا: إن أحمد الناس عاقبة في الدُّنيا والآخرة أكتمهم للسرِّ.

قال الأسد: إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة ومعانٍ مختلفة. فإنهم قد قالوا أيضًا: مَنْ اطلع على ذنوب المذنبين فكتمها عن السلطان فلم يعاقبوا على ذنوبهم عوقب هو

[٤] بغيًا: تعديًا.

[٥] الشنار: العار.

يوم القيامة، وإن الذي أطلعك على هذا السر العظيم لم يطلعك عليه إلاَّ لتعلميني به، فأطلعيني على ما أسرَّ إليك من ذلك وأخبريني به ولا تطويه عني.

فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه وقالت: إني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار. ولكنني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك. فقد قالت العلماء: إن فساد عامة الأشياء يكون من حالتين: إحداهما إفشاء السرِّ، والأخرى ترك عقوبة مَنْ يستوجب العقوبة، ولإفشاء السرِّ خيرٌ من أن يُبقى على هذا الخائن دمنة الذي أدخل الفساد بينك وبين الثور بمكره وفجوره. فلو كُتِمَ أمره لنجا من العقاب على فعله ولخيف منه أكبر من هذه الفعلة من عمله، وقد أمر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب، ولكنهم قد نهوا عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير.

فلمَّا قضت أمُّ الأسد هذا الكلام صحَّ عند الأسد ما فعل دمنة؛ فاستدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه، ثمَّ أمر أن يُؤتَى بدمنة. فلمَّا حضر دمنة نكس الأسد رأسه إلى الأرض مليًا. فالتفت دمنة إلى بعض الحاضرين فقال: ما الذي حدث وعلام اجتمعتم وما الذي أحزن الملك؟ فالتفتت أمُّ الأسد إليه وقالت له: أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين، ولن يدعك بعد اليوم حيًا.

قال دمنة: وما حدث من أمري حتى وجب به قتلي؟

قالت: إنه قد بان للملك كذبك وفجورك وخديعتك في قتل الثور من غير ذنب كان منه، فلست حقيقًا أن تُترَكَ بالحياة طرفة عين.

قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئًا لأنه يقال: أشدُّ الناس في توقي الشرِّ يصيبه الشرُّ قبل المستسلم له. فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء، ولقد صدق مَنْ قال: كلَّما ازداد الإنسان في الخير اجتهادًا كان الشرُّ إليه أسرع. وقد قيل: من صحب الأشرار وهو يعلم حالهم كان أذاه من نفسه؛ ولذلك انقطعت النُسَّاك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحبَّ العمل لله على حبِّ الدُّنيا وأهلها، ومَنْ يجزي بالخير خيرًا وبالإحسان إحسانًا إلاَّ الله؟ ومَنْ طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقًا أن يحظى بالحرمان إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله وطلب الجزاء من الناس، ولكن عاقبة ما ينبغي أن يعاقب به الفُجَّار يصاب به الأخيار، وهذا الأمر شبيه بشأني؛ لأنني حملني حبُّ الملك ونصحي له وإشفاقي عليه أن أطلعه على سرِّ عدوه الخائن، وإن الملك قد شاهد منه ذلك عيانًا وظهرت له منه العلامات التي ذكرتها له. أفهذا جزائي منه أن أُقتَلَ؟

فلمَّا سمع الأسد ذلك من كلام دمنة أمر أن يخرج من عنده حتى ينظر في أمره؛ ليجتهد بالفحص عنه لئلا يعود إلى العجلة والندامة، فعند ذلك سجد دمنة للأسد شكرًا ودعا له وقال: أيها الملك لا تعجل في قتلي ولا تسمع في كلام الأشرار وليبحث الملك عن أمري حتى يتبين به صدقي، وقد قالت الحكماء: إن النار أخفيت في الحجارة فلا تستخرج منها إلاَّ بالمعالجة والقدح، ولو كنت أعلم لنفسي ذنبًا فيما بيني وبين الملك لم أقم بين يديك، وإنا أرغب إلى الملك إن كان في شك من أمري أن يأمر بالنظر فيه ويكون مَنْ يتولى ذلك لا تأخذه في الله لومه لائم، وإلاَّ فلا ملجأ لي في ذلك إلاَّ الله وهو الذي يعلم سرائر العباد وما تكن صدورهم. وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير، وإن الباطل قد يتلبَّس[٦] بالحق حتى يتشابها كما أصاب الخازن الذي فضح سرَّه بالتلبيس عليه قال الأسد وكيف كان ذلك؟

مثل الخازن الذي فضح سرَّه بالتلبيس عليه

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن تاجر، وكان له خازن[٧] لبيت ماله وإن الخازن أراد اختلاس شيء من المال فلم يستطع؛ لأن التاجر كان إذا دخل الخازن بيت المال أقفل عليه الباب، فإذا أراد الخروج أتى ففتح له وفتشه قبل أن يخرج وكان على جنب التاجر مصوِّر ماهر، وكان هو للخازن صديقًا. فقال له الخازن يومًا: هل لك أن تواطئني على الاختلاس من هذا المال؟ قال: نعم. قال: وما الحيلة ولا سبيل لي إلى الخروج إليك ولا سبيل لك إلى الدخول إليَّ؟ وذكر له حاله مع التاجر. قال المصوِّر: أو ما لبيت المال كوَّة إلى الخارج تناولني منها شيئًا في الظلام؟ قال: بلى، ولكن أخشى أن يرانا أحد. قال: فأنا أمرُّ قريبًا من الكوَّة إذا ابتدأ الظلام فأصفر لك أو أومئ إليك فترمي لي بصرَّةٍ فآخذها ولا يُشْعَرُ بنا؛ فرضي الخازن بذلك وأعجبه وأقاما عليه حينًا.

ثم إن الخازن قال ذات يوم للمصوِّر: إن استطعت أن تحتال بحيلة أعلم بها مجيئك من غير صفر ولا إيماء ولا ما يُرتَاب به من فعلك وفعلي، فإني قد تخوَّفت أن يحسَّ بنا

[٦] يتلبس: يختلط.

[٧] خازن: أمين يتولَّى حفظ ماله.

أحد. قال المصور: عندي من الحيلة ما سألت. إن عندي ملاءة[8] فيها من تهاويل الصور[9] وتماثيل الصنعة فإني ألبسها حين مجيئي وأتراءى لك فيها.

ثم إن المصور لبس الملاءة وتراءى له فرمي له بالصرَّة فتناولها. ولم يزالا على ذلك حتى بصر بهما في تلك الحالة جار للمصوِّر، وكان بينه وبين خادم للمصوِّر صداقة. فطلب الملاءة منه وقال: أريد أن أريها صديقًا لي لأسره بذلك، وأسرع الكرَّة بردِّها قبل أن يعلم بذلك مولاك. فأعطاه إياها، ولمَّا أتى الليل أسرع فلبسها ومرَّ من حيث كان يمرُّ المصور، فلمَّا رآه الخازن لم يشك في مجيئه فرمى له بالصرَّة فتناولها وانطلق فرجع بالملاءة إلى خادم المصور فدفعها إليه فوضعها موضعها.

وكان المصوِّر عن بيته غائبًا. فلمَّا عاد إلى منزله لبس الملاءة على عادته وتراءى للخازن، فعجب من رجوعه ولم يكن لديه ما يرمي له به، وانصرف المصور بلا شيء. ثم تلاقيا بعد ذلك فقال له المصوِّر: لِمَ لَمْ ترمِ لي بالصرَّة؟ قال: أولم تمر قبيل مرورك ورميت لك بها؟ فرجع المصوِر إلى منزله فدعا خادمه وتوعَّده بالقتل أو يخبره بالحقيقة؛ فأخبره بالقصة فأخذ الملاءة فأحرقها.

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة أن لا يعجل الملك في أمري بشبهة، ولست أقول هذا كراهة للموت، فإنه وإن كان كريهًا لا منجى منه وكل حي هالك، وإن العلماء قد قالوا: مَنْ اقترف خطيئة أو إثمًا ثم أسلم نفسه إلى القتل من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك عفا الله عنه وأنجاه في الآخرة من عذاب النار، ولو كانت لي مئة نفس وأعلم أن هوى الملك في إتلافهنَّ طبت له بذلك نفسًا.

فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبه الملك ولكن لخلاص نفسه والتماس العذر لها.

فقال له دمنة: ويلك! وهل عليَّ في التماس العذر لنفسي عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه، وإذا لم يلتمس لهذا العذر فمَنْ يلتمسه؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تمتلك كتمانه من الحسد والبغضاء، ولقد عرف مَنْ سمع منك أنك لا تحب لأحد خيرًا وأنك عدو نفسك فمَنْ سواها بالأولى. فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم فضلاً عن أن يكون مع الملك وأن يكون ببابه.

[8] ملاءة: كساء يلتفُّ به.

[9] تهاويل الصور: زينتها.

فلمَّا أجابه دمنة بذلك خرج مكتئبًا حزينًا مستحييًا. فقالت أمُّ الأسد لدمنة: لقد عجبت منك أيها المحتال في قلَّة حيائك وكثرة قحتك وسرعة جوابك لَمَنْ كلَّمك! قال دمنة: لأنك تنظرين إليَّ بعين واحدة وتسمعين بأذن واحدة مع أن شقاوة جدي[10] قد زوت[11] عني كل شيء حتى لقد سعوا إلى الملك بالنَّميمة عليَّ.

وإني أرى كل شيء قد تنكَّر حتى صار الناس لا ينطقون بالحق، وصار مَنْ بباب الملك لاستخفافهم به وطول كرامته إياهم وما هم فيه من العيش والنعمة لا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام، ولا متى يجب عليهم السكوت.

قالت: ألا تنظرون إلى هذا الخبيث مع عظيم ذنبه كيف يجعل نفسه بريئًا كمَنْ لا ذنب له؟ قال دمنة: إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء، كالذي يضع الرماد موضعًا ينبغي أن يضع فيه الرمل ويستعمل فيه السِّرجين.[12] والرجل الذي يلبس لباس المرأة، والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يقول أنا ربُّ البيت، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه، وإنما الخبيث مَنْ لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس، ولا يقدر على دفع الشرِّ عن نفسه ولا يستطيع ذلك.

قالت أمُّ الأسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك ولا يسجنك؟

قال دمنة: الغادر هو الذي لا يأمن عدوه مكره، وإذا استمكن من عدوِّه قتله على غير ذنب. قالت أمُّ الأسد: أيها الغادر الكذوب أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟

قال دمنة: الكذوب هو الذي يقول ما لم يكن ويأتي بما لم يقل ولم يفعل، وأمَّا أنا فكلامي حق والملك يعلم أنني لو كنت كاذبًا لم يكن لي جرأة أن أتكلَّم هذا الكلام بين يديه؛ لأنه قد قيل: ليس أشجع من بريء وأذلق من ذي حق.

قالت أمُّ الأسد: العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفضل الخطاب، ثم نهضت فخرجت فدفع الأسد دمنة إلى القاضي فأمر القاضي بسجنه فألقي في عنقه غلٌّ[13] وأُنطُلِقَ به إلى السجن.

---

[10] جدِّي: حظِّي.

[11] زوت: منعت.

[12] السرجين: الزبل.

[13] غلٌّ: طوق من حديد أو قد من جلد.

فلمَّا انتصف الليل أُخبِرَ كليلة أن دمنة في السجن؛ فأتاه مستخفيًا، فلمَّا رآه وما هو عليه من ضيق القيود وحرج[١٤] المكان بكى وقال: ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلاَّ لاستعمالك الخديعة والمكر وإضرابك عن العظة والنصح، ولأن لم يكن لي بد فيما مضى من إنظارك والنصيحة لـك والمسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك. فإنه لكل مقام مقال ولكل موضع مجال، ولو كنت قصَّرت في عظتك حين كنت في عافية لكنت اليوم شريكك في ذنبك. غير أن العجب دخل مدخلاً قهر رأيك وغلب على عقلك. وكنت أضرب لك الأمثال كثيرًا وأذكِّرك قول العلماء. وقد قالت العلماء: إن المحتال يموت قبل أجله.

قال دمنة: قد عرفت صدق مقالك، وقد قالت العلماء: لا تجزع من العذاب إذا وقفت منك على خطيئة، ولإن تعذَّب في الدُّنيا بجرمك خير من أن تعذَّب في الآخرة بجهنم مع الإثم.

قال كليلة: قد فهمت كلامك. ولكن ذنبك عظيم وعقاب الأسد شديد أليم.

وكان بقربهما في السجن فهد معتقل يسمع كلامهما ولا يريانه؛ فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله وما كان منه وأن دمنة مقرٌّ بسوء عمله وعظيم ذنبه؛ فحفظ المحاورة بينهما وكتمها ليشهد بها إن سُئِلَ عنها.

ثم إن كليلة انصرف إلى منزله ودخلت أمُّ الأسد حين أصبحت على الأسد فقالت له: يا سيد الوحوش حوشيت[١٥] أن تنسى ما قلت بالأمس، وأنك أمرت به لوقته وأرضيت به رب العباد. وقد قالت العلماء: لا ينبغي للإنسان أن يتوانى في الجدِّ للتقوى، بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم.

فلمَّا سمع الأسد كلام أمِّه أمر أن يُحضَرَ النمر وهو صاحب القضاء. فلمَّا حضر قال له وللجوَّاس[١٦] اجلسا في موضع الحكم وناديا في الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة ويبحثوا عن شأنه ويفحصوا عن ذنبه ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء وارفعا إليَّ ذلك يومًا فيومًا.

[١٤] حرج: ضيق.

[١٥] حوشيت: نُزِّهت.

[١٦] الجوَّاس: المحقق، وهو مبالغة من جاس الشيء إذا طلبه بالاستقصاء.

فلمَّا سمع النمر ذلك والجوَّاس أمر الأسد، قالا: سمعًا وطاعة لما أمر الملك! وخرجا من عنده فعملا بمقتضى ما أمرهما به. حتى إذا مضى من اليوم الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات أمر القاضي أن يُؤتَى بدمنة، فأُتِي به، فوقف بين يديه والجماعة حضور.

فلمَّا استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوته: أيها الجمع إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خاثر[١٧] النفس كثير الهمِّ والحزن يرى أنه قد قتل شتربة بغير ذنب وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته، وهذا القاضي قد أُمِرَ أن يجلس مجلس القضاء ويبحث عن شأن دمنة. فمَنْ علم منكم شيئًا في أمر دمنة من خير أو شر فيقل ذلك وليتكلم به على رءوس الجمع والأشهاد ليكون القضاء في أمره بحسب ذلك. فإذا استوجب القتل فالتثبُّت في أمره أولى، والعجلة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذلٌّ.

فعندها قال القاضي: أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم ولا تكتموا ما عرفتم من أمره، واعتبروا في تجنُّب الستر عليه ثلاث خصال، أمَّا إحداهن وهي أهمهن فألا تزدروا فعله ولا تعدُّوه يسيرًا؛ فإنه من أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة، ومَنْ علم من أمر هذا الكذَّاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته شيئًا فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة، والثانية أنه إذا اعترف المذنب بذنبه كان أسلم له، والأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا، والثالثة ترك مراعاة أهل الذمِّ والفجور وقطع أسباب مواصلتهم ومودَّتهم عن الخاصة والعامة. فمَنْ علم من أمر هذا المحتال شيئًا فليتكلم به على رءوس الأشهاد ممَنْ حضر ليكون ذلك حجَّة عليه، وقد قيل إن مَنْ كتم شهادة ميت أُلجِم بلجام من نار يوم القيامة، فليقل كل واحد منكم ما علم.

فلمَّا سمع ذلك الجمع كلامه أمسكوا عن القول. فقال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلَّموا بما علمتم واعلموا أن لكل كلمة جوابًا. وقد قالت العلماء: مَنْ يشهد بما لم يرَ ويقل ما لا يعلم يصبه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه إني أعلمه. قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

[١٧] خاثر: مضطرب ومرتبك.

مثل الطبيب والجاهل

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم، وكان ذا فطنة فيما يجري على يده من المعالجات؛ فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره، وكان لملك تلك المدينة ابن وحيد، فأصابه مرض، فجيء بهذا الطبيب. فلمَّا سأل الفتى عن وجعه وما يجد، فأخبره، فعرف داءه ودواءه وقال: لو كنت أبصر لجمعت الأخلاط[١٨] على معرفتي بأجناسها ولا أثق في ذلك بأحد غيري.

وكان في المدينة رجل جاهل فبلغه الخبر فأتاهم وادَّعى علم الطب وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته، فلمَّا دخل الجاهل الخزانة وعُرِضَت عليه الأدوية ولا يدري ما هي ولا له بها معرفة أخذ في جملة ما أخذ منها صرَّة فيها سمٌّ قاتل لوقته ودافه[١٩] بالأدوية ولا علم له به ولا معرفة عنده بجنسه، فلمَّا تمت أخلاط الأدوية سقى الفتى منه فمات لوقته، فلمَّا عرف الملك ذلك دعا بالجاهل فسقاه من ذلك الدواء فمات من ساعته.

وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الذِّلَّة بالشبهة[٢٠] في الخروج عن الحدِّ، فمَنْ خرج منكم عن حدِّه أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ونفسه الملومة، وقد قالت العلماء: ربما جُزِي المتكلم بقوله، والكلام بين أيديكم فانظروا لأنفسكم.

فتكلَّم سيد الخنازير لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد، فقال: يا أهل الشرف من العلماء اسمعوا مقالتي وعوا بأحلامكم[٢١] كلامي. فالعلماء قالوا في شأن الصالحين إنهم يُعرَفون بسيماهم.[٢٢] وأنتم معاشر ذوي الاقتدار بحسن صنع الله لكم وتمام نعمته عليكم تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم وتخبرون الشيء الكبير بالشيء الصغير. وههنا أشياء كثيرة تدلُّ على هذه الخبيث دمنة وتخبر عن شرِّه فاطلبوها على ظاهر جسمه لتستيقنوا وتسكنوا إلى ذلك.

[١٨] الأخلاط: الأدوية المركَّبة من أجزاء.

[١٩] دافه: خلطه.

[٢٠] الشبهة: ما بين الخطأ والصواب.

[٢١] أحلامكم: عقولكم.

[٢٢] سيماهم: أي بعلاماتهم الحسنة.

قال القاضي لسيد الخنازير: قد علمت وعلم الجماعة الحاضرون أنك عارف بما في الصور من علامات السوء، ففسر لنا ما تقول وأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الخبيث.

فأخذ سيد الخنازير يذمُّ دمنة وقال: إن العلماء قد كتبوا وأخبروا أنه مَنْ كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهي لا تزال تختلج، وكان أنفه مائلاً إلى جنبه الأيمن فهو خبيث جامع للخبِّ والفجور؛ وكان دمنة على هذه الصفة.

فلمَّا سمع دمنة ذلك قال: من ههنا تقيسون الكلام وتتركون العلم، فاسمعوا مني ما أقوله لكم وتدبَّروا بعقولكم فقد وعيتم ما قال هذا، فإن كان يزعم أن ما في جسمي من هذه العلامات هو الدليل على صدق ما رُمِيت[٢٣] به فإني إذن أكون قد وُسِمت بسمات وعلامات اضطرتني إلى الإثم فعملت بها ما عملت؛ ففي ذلك براءة لي وعذر مما عملته.

ثم التفت إلى سيد الخنازير وقال: فقد بان لمَنْ حضر قلَّة عقلك، وما مثلك في ذلك إلاَّ مثل رجل قال لامرأته: انظري إلى عريك وبعد ذلك انظري إلى عري غيرك قيل له: وكيف كان ذلك؟

مثل الرجل وامرأتيه

قال دمنة: زعموا أن مدينة أغار عليها العدو فقتل وسبى وغنم وانطلق إلى بلاده، فاتفق أنه كان مع جندي مما وقع في قسمته رجل حرَّاث ومعه امرأتان له، وكان هذا الجندي يسيء إليهم في الطعام واللباس. فذهب الحرَّاث ذات يوم ومعه امرأتاه يحتطبون للجندي وهم عراة؛ فأصابت إحدى المرأتين في طريقها بالية فاستترت بها، ثمَّ قالت لزوجها: ألا تنظر إلى هذه القبيحة كيف لا تستحيي وتستتر؟ قال زوجها: لو بدأت بالنظر إلى نفسك وأن جسمك كله عار لما عيَّرت صاحبتك بما هو بعينه فيك.

وشأنك عجب أيها القذر ذو العلامات الفاضحة القبيحة. ثم العجب من جرأتك على طعام الملك وقيامك بين يديه مع ما بجسمك من القذر والقبح، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك، أفتتكلم في النقي الجسم الذي لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدي أطلع على عيبك لكن جميع مَنْ حضر قد عرف ذلك، وقد كان يحجزني عن إظهاره ما بيني وبينك من الصداقة، فأمَّا إذ قد كذبت عليَّ وبهتني في وجهي وقمت

[٢٣] ما رُمِيت: اتُّهمت.

بعداوتي فقلت ما قلت في بغير علم وعلى رءوس الحاضرين فإني اقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك وتعرفه الجماعة، وحق على مَنْ عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه. فلو كُلِّفت أن تعمل الزراعة لكنت جديرًا بالخذلان[٢٤] فيها. فالأحرى بك أن لا تدنو إلى عمل من الأعمال وأن لا تكون دباغًا ولا حجَّامًا لعامي فضلاً عن خاص خدمة الملك.

قال سيد الخنازير: أولي تقول هذه المقالة وتلقاني بهذا الملقى!

قال دمنة: نعم، وحقًا قلت فيك وإياك أعني أيها الأعرج المكسور الذي في وركه الناسور[٢٥] الأفدع[٢٦] الرجل المنفوخ البطن الأفلح[٢٧] الشفتين السيء المنظر والمخبر.[٢٨]

فلمَّا قال دمنة ذلك تغيَّر وجه سيد الخنازير واستعبر واستحيا وتلجلج لسانه واستكان وفتر نشاطه. فقال دمنة حين رأى انكساره وبكاءه: إنما ينبغي أن يطول بكاؤك إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه وحال بينك وبين خدمته وأبعدك عن حضرته.

ثم أن شعهرًا كان الأسد قد جرَّبه فوجد فيه أمانة وصدقًا فرتَّبه في خدمته وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم ويطلعه عليه؛ فقام الشعهر فدخل على الأسد فحدَّثه بالحديث كلَّه على جليته. فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله وأمر أن لا يدخل عليه ولا يرى وجهه. وأمر دمنة أن يُردَّ إلى السجن وقد مضى من النهار أكثره وجميع ما جرى وقالوا وقال كُتِبَ وخُتِمَ عليه بخاتم النمر ورجع كل واحد منهم إلى منزله.

ثم إن شعهرًا يقال له روزبة كان بينه وبين كليلة إخاء ومودَّة وكان عند الأسد وجيهًا وعليه كريمًا، واتفق أن كليلة أخذه الوجد إشفاقًا من أن يلتَّطخ بشيء من أمر أخيه وحذرًا عليه، وكان به مرض فهاج به مرضه ومات، فانطلق هذا الشعهر إلى دمنة فأخبره بموت كليلة فبكى وحزن وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي؟ واحر قلباه! إن الإنسان إذا ابتلي ببلية أتاه الشرُّ! من كل جانب واكتنفه[٢٩] الهمُّ والحزن من كل

[٢٤] الخذلان: الخيبة.

[٢٥] الناسور: هو عرق غبر في باطنه فساد كلَّما برئ أعلاه رجع غبرًا أي فاسدًا والغبر المندمل على فساد.

[٢٦] الأفدع: من به فدع وهو اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى أنسيهما.

[٢٧] الأفلح: المشقوق.

[٢٨] المخبر: خلاف المظهر؛ أي قبيح الظاهر والباطن.

[٢٩] اكتنفه: أحاط به.

مكانٍ، ولكن أحمد الله تعالى إذ لم يمت كليلة حتى أبقى لي من ذوي قرابتي أخًا مثلك. فإني قد وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إليَّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لي، وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه، فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى فتأتيني به.

ففعل الشعهر ما أمره به دمنة. فلمَّا وضع المال بين يديه أعطاه شطره وقال له: إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك. فتفرَّغ لشأني واصرف اهتمامك إليَّ واسمع ما أُذكَر به عند الأسد إذا رفع إليه ما يجري بيني وبين الخصوم، وما يبدو من أمِّ الأسد في حقي وما ترى من متابعة الأسد لها ومخالفته إياها في أمري واحفظ ذلك كله؛ فأخذ الشعهر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه إلى هذا العهد، فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه.

ثم إن الأسد بكَّر من الغد فجلس. حتى إذا مضى من النهار ساعتان استأذن عليه أصحابه في الدخول، فأذن لهم، فدخلوا عليه ووضعوا الكتب بين يديه. فلمَّا عرف قولهم وقول دمنة دعا بأمِّه فقرأ عليها ذلك. فلمَّا سمعت ما في الكتاب نادت بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت في القول فلا تلمني، فإنك لست تعرف ضرَّك من نفعك. أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه؛ لأنه كلام هذا المجرم المسيء إلينا الغادر بذمتنا! ثم إنها خرجت مغضبة وذلك بعين الشعهر الذي آخاه دمنة وبسمعه. فخرج في إثرها مسرعًا حتى أتى دمنة فحدَّثه بالحديث. فبينما هو عنده إذا جاء فيج[٣٠] الأسد فانطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضي.

فلمَّا مثل بين يدي القاضي استفتح سيد المجلس فقال: يا دمنة قد أنبأني عن خبرك الأمين الصادق. وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا؛ لأن العلماء قالوا إن الله تعالى جعل الدُّنيا سببًا إلى الآخرة ومصداقًا لها لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة الداعين إلى معرفة الله تعالى، وقد ثبت شأنك عندنا من وثقنا بقوله. إلاَّ أن سيدنا أمرنا بالعود إلى أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عنده ظاهرًا بينًا.

قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعوَّد العدل في القضاء. وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومَنْ لا ذنب له إلى قاضٍ غير عادل، بل المخاصمة لهم والذود عن حقوقهم.

[٣٠] فيج: رسول.

فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم وتعجِّل ذلك موافقة لهواك ولم تمضِ بعد ثلاثة أيام! ولكن صدق الذي قال إن الذي تعوَّد عمل البرِّ هين عمله وإن أضرَّ به.

قال القاضي: إنا نجد في كتب الأولين أن القاضي العدل ينبغي له أن يعرف عمل المحسن والمسيء؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصًا على الإحسان والمسيئون اجتنابًا للذنوب. والرأي إليك يا دمنة أن تنظر الذي وقعت فيه وتعترف بذنبك وتقرَّ وتتوب. فلإن يعاقب المرء في الدنيا خير من عقاب الآخرة.

فأجابه دمنة: إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن ولا يعملون به لا في الخاصة ولا في العامة لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وأنتم إن ظننتم أني مجرم فيما فعلت فإني أعلم بنفسي منكم وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه وعلمكم بي غاية الشك، وإنما قبَّح أمري عندكم أني سعيت بغيري، فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي كاذبًا عليها فأسلمتها إلى القتل والعطب على معرفة مني ببراءتي وسلامتي مما قُرِفت[٣١] به؟ ونفسي أعظم الأنفس عليَّ حرمة وأوجبها حقًّا. فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم لما وسعني[٣٢] في ديني ولا حسن بي في مروءتي ولا حق لي أن أفعله فكيف أفعله بنفسي؟

فاكفف أيها القاضي عن هذه المقالة فإنها إن كانت نصيحة فقد أخطأت موضعها، وإن كانت خديعة فإن أقبح الخداع ما كان من غير أهله، مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحي القضاة ولا ثقات الولاة، واعلم أن قولك مما يتخذه الجُهَّال والأشرار سنة[٣٣] يقتدون بها لأن أمور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب ويخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو الورع، وأنا خائف عليك أيها القاضي من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا، وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلاً في رأيك مقنعًا في عقلك مرضيًا في حكمك وعفافك وفضلك، وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في أمري. أوما بلغك عن العلماء أنهم قالوا: مَنْ علم ما لا يعلم وشهد على الغيب أصابه ما أصاب البازيار؟[٣٤] قال القاضي: وكيف كان ذلك؟

---

[٣١] قُرِفت: عبت واتهمت.

[٣٢] وسعني: أي لما جاز لي.

[٣٣] سنة: طريقة.

[٣٤] البازيار: حامل البازي ويقال له البازدار أيضًا.

مثل البازيار

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن رجل من المرازبة[٣٥] مذكور، وكانت له امرأة ذات جمال وعفاف، وكان للرجل بازيار خبير بعلاج البزاة وسياستها، وكان هذا البازيار عند هذا الرجل بمكان خليل بحيث أدخله داره وجعله كواحد من أهلها، فاتفق أن وقعت كلمة من البازيار فتسخَّطت لها زوجة مولاه ونفرت؛ فغضب وعمل على أن يكيدها بمكيدة.

فخرج يومًا إلى الصيد على عادته فأصاب فرخي ببغاء فأخذهما وجاء بهما إلى منزله ورباهما، فلمَّا كبرا فرَّق بينهما وجعلهما في قفصين وعلَّم أحدهما أن يقول: رأيت ريبة في بيت مولاي، وعلَّم الآخر أن يقول: أمَّا أنا فلا أقول شيئًا. ثم أدَّبهما على ذلك حتى أتقناه وحذقاه في ستة أشهر. فلمَّا بلغ الذي أراد منهما حملهما إلى مولاه، فلمَّا رآهما أعجباه ونطقا بين يديه فأطرباه. إلاَّ أنه لم يعلم ما يقولان لأن البازيار كان قد علمهما بلغة البلخيين، وإن المرزبان أعجب بهما إعجابًا شديدًا وحظي البازيار عنده بذلك حظوة كريمة، فأمر امرأته بالاحتياط عليهما والاحتفاظ بهما؛ ففعلت المرأة ذلك.

فاتفق أنه بعد مدة قدم على الرجل قوم من عظماء بلخ فتأنَّق لهم في الطعام والشراب وجمع من أصناف الفواكه والتحف شيئًا كثيرًا، وحضر القوم فلمَّا فرغوا من الطعام وشرعوا في الحديث أشار المرزبان إلى البازيار أن يأتي بالببغائين فأحضرهما، فلمَّا وضعتا بين يديه صاحتا بما كانت علمتاه، فعرف أولئك العظماء ما قالتا، فنظر بعضهم إلى بعض ونكسوا رءوسهم حياءً وخجلاً وجعل يغمز بعضهم بعضًا، فقال الرجل: ما أعلم ما تقولان ولكني يعجبني ذلك منهما، وسألهم عما تقولان فامتنعوا أن يقولوا ما قالتا؛ فألحَّ عليهم وأكثر السؤال عما قالتا. فقالوا: إنما تقولان كذا وكذا وليس من شأننا أن نأكل من بيت يُعمَلُ فيه الفجور.

فلمَّا قالوا ذلك سألهم الرجل أن يكلِّموهما بلسان البلخية بغير ما نطقتا به ففعلوا ذلك فلم يجدوهما تعرفان غير ما تكلمتا به، وبان لهم وللجماعة براءة البيت مما رُمِي به ووضح كذب البازيار؛ فأمر بالبازيار أن يدخل عليه وكان على يده باز أشهب[٣٦] فصاحت

---

[٣٥] المرازبة: جمع مرزبان وهو رئيس الفرس.

[٣٦] أشهب: أي بياضه غلب على سواده.

به امرأة المرزبان من داخل البيت: أيها العدوُّ لنفسه أنت رأيت في البيت ما ذكرت وعلمت به الببغاءين؟ قال: نعم، أنا رأيت فيه مثل ما تقولان. فوثب البازي إلى وجهه ففقأ عينه بمخالبه فقالت المرأة: بحق أصابك هذا، إنه لجزاء من الله تعالى لشهادتك بما لم تره عينك.

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها القاضي لتزداد علمًا بوخامة عاقبة الشهادة بالكذب في الدُّنيا والآخرة، فلمَّا سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة فرفعه إلى الأسد على وجهه[٣٧] فنظر فيه الأسد فدعا أمَّه فعرضه عليها؛ فقالت حين تدبَّرت[٣٨] كلام دمنة: لقد صار اهتمامي بما أتخوَّف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية[٣٩] حتى قتلت صديقك بغير ذنب؛ فوقع قولها في نفسه، فقال لها: أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك فيكون حجَّة لي في قتلي دمنة. فقالت: لأكره إفشاء سرَّ مَنْ استكتمنيه فلا يهنئني سروري بقتل دمنة إذا تذكَّرت أني استظهرت[٤٠] عليه بركوب[٤١] ما نهت عنه العلماء من كشف السرِّ. ولكني أطالب الذي استودعنيه أن يحلَّني من ذكره ويقوم هو بعلمه وما سمع منه.

ثم انصرفت وأرسلت إلى النمر وذكرت له ما يحق عليه من التزيين للأسد وحسن معاونته على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين وتثبيت حجَّة الحق في الحياة والممات. فإن العلماء قد قالت: مَنْ كتم حجَّة ميت أخطأ حجَّته يوم القيامة. فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة.

فلمَّا شهد النمر بذلك، أرسل الفهد المسجون الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال: إن عندي شهادة؛ فأخرجوه فشهد بما سمع من إقراره. فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوما بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة؟

[٣٧] رفعه على وجهه: أي على حكمه بدون مبالاة.

[٣٨] تدبَّرت: تأمَّلت.

[٣٩] السعاية: النَّميمة والوشاية.

[٤٠] استظهرت: استعنت.

[٤١] ركوب: ارتكاب.

فقال كل واحد منهما: قد علمت أن شهادة الواحد لا توجب حكمًا فكرهت التعرُّض لغير ما يمضي به الحكم حتى إذا شهد أحدنا قام الآخر؛ فقبل الأسد قولهما وأمر بدمنة أن يُقتَلَ ويصلب على رءوس الأشهاد. ونادى المنادي: هذا جزاء مَنْ يسعى بين الملوك وبين أجنادهم وبطانتهم[٤٢] بالكذب والبهتان.

فمَنْ نظر في هذا فليعلم أن مَنْ أراد منفعة نفسه بضرِّ غيره بالخلابة[٤٣] والمكر فإنه سيُجزَى على خلابته ومكره.

[٤٢] بطانة الرجل: أي خاصته الذي يعرِّفه سرَّه ثقة بمودَّته.

[٤٣] الخلابة: أي بالخديعة باللسان.

الفصل السادس

باب الحمامة المطوَّقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك، فحدثني إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض.

قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئًا؛ فالإخوان هم الأعوان على الخير كله والمؤاسون عند ما ينوب[1] من المكروه، ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوَّقة والجرذ والظبي والغراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الحمامة المطوَّقة والجرذ والظبي والغراب.

قال بيدبا: زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين عند مدينة داهر مكان كثير الصيد ينتابه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفَّة الورق فيها وكر غراب. فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر سيئ الخلق؛ وقبح منظره يدل على سوء مخبره،[2] على عاتقه شبكة وفي يده عصًا، مقبلاً نحو الشجرة؛ فذعر منه الغراب وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان إمَّا حيني وإمَّا حين غيري، فلأثبتنَّ مكاني حتى أنظر ماذا يصنع.

---

[1] ينوب: يصيب.

[2] مخبره: تجربته واختباره.

ثم إن الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحبَّ وكمن قريبًا منها فلم يلبث إلاَّ قليلاً حتى مرَّت به حمامة يقال لها المطوَّقة، وكانت سيدة الحمام، ومعها حمام كثير، فعميت هي وصاحباتها عن الشرك فوقعن على الحبِّ يلتقطنه فعلقن في الشبكة كلهن وأقبل الصياد فرحًا مسرورًا؛ فجعلت كل حمامة تتلجلج[٣] في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها، قالت المطوَّقة: لا تتخاذلن في المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أهمَّ إليها من نفس صاحبتها، ولكن نتعاون جميعنا ونطير كطائر واحد فينجو بعضنا ببعض.

فجمعن أنفسهن ووثبن وثبة واحدة؛ فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن وعلون بها في الجو، ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظنَّ أنهنَّ لا يجاوزن إلاَّ قريبًا حتى يقعن فقال الغراب: لأتبعهنَّ وأنظر ما يكون منهنَّ، فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن فقال للحمام: هذا الصياد جاد في طلبكن فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا، وإن نحن توجَّهنا إلى العمران خفي عليه أمرنا وانصرف، وبمكان كذا جرذ هو لي أخ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك؛ ففعلن ذلك وأيس الصياد منهن وانصرف، وتبعهن الغراب لينظر إليهن لعله يتعلَّم منهن حيلة تكون له عدَّة عند الحاجة، فلمَّا انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ أمرت الحمام أن يقعن فوقعن.

وكان للجرذ مئة جحر أعدَّها للمخاوف، فنادته المطوَّقة باسمه وكان اسمه زيرك، فأجابها الجرذ من جحره: مَنْ أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوَّقة؛ فأقبل إليها الجرذ يسعى فقال لها: ما أوقعك في هذه الورطة؟ قالت له: ألم تعلم أنه ليس من الخير والشرِّ شيء إلاَّ وهو مقدَّر على مَنْ تصيبه المقادير وهي التي أوقعتني في هذه الورطة، فقد لا يمتنع من القدر مَنْ هو أقوى مني وأعظم أمرًا، وقد تنكسف الشمس وينخسف القمر إذا قُضِي ذلك عليهما.

ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد الذي فيه المطوَّقة، فقالت له المطوَّقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدي، فأعادت عليه ذلك مرارًا وهو لا يلتفت إلى قولها، فلمَّا أكثرت عليه القول وكرَّرت قال لها: لقد كرَّرت القول عليَّ كأنك ليس لك في نفسك حاجة ولا لك عليها شفقة ولا ترعين[٤] لها حقًّا. قالت: إني أخاف إن أنت بدأت بقطع عقدي أن تملَّ وتكسل عن قطع ما بقي، وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلي وكنت أنا

---

[٣] تتلجلج: تهتزُّ وتضطرب.

[٤] لا ترعين: أي لا تحفظين.

الأخيرة لم ترضَ وإن أدركك الفتور أن أبقى في الشرك، قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة فيك والمودَّة لك، ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها؛ فانطلقت المطوَّقة وحمامها معها.

فلمَّا رأى الغراب صنع الجرذ رغب في مصادقته، وناداه باسمه؛ فأخرج الجرذ رأسه فقال له: ما حاجتك؟ قال: إني أريد مصادقتك، قال الجرذ: ليس بيني وبينك تواصل وإنما العاقل ينبغي له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلاً ويترك التماس ما ليس له إليه سبيل كمَنْ أراد أن يجري السفن في البرِّ والعجل في البحر، فإن[٥] أنت إلاَّ آكل وأنا طعام لك، قال الغراب: إن أكلي إياك وإن كنت لي طعامًا مما لا يُغنِي عني شيئًا، وإن مودَّتك آنس[٦] لي مما ذكرت، ولست بحقيق إذا جئت أطلب مودتك إن تردَّني خائبًا؛ فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغَّبني فيك وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك، فإن العاقل لا يخفى فضله وإن هو أخفاه كالمسك الذي يكتمُّ ثم لا يمنعه ذلك من النشر[٧] الطيب والأرج الفائح.

قال الجرذ: إن أشدَّ العداوة عداوة الجوهر، وهي عداوتان: منها ما هو متكافئ[٨] كعداوة الفيل والأسد فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد، ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كالتي بيني وبين السنور، وبينك وبيني. فإن العداوة التي بيننا ليست تضرُّك وإنما ضررها عليَّ، فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صُبَّ عليها، وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحيَّة يحملها في كمه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب.[٩]

قال الغراب: قد فهمت ما تقول وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليفتك وتعرف صدق مقالي ولا تصعِّب عليَّ الأمر بقولك ليس إلى التواصل بيننا سبيل؛ فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها، ومثل ذلك الكوز الذهب بطيء الانكسار سريع الإعادة هيِّن الإصلاح إن أصابه ثلم أو كسر.

[٥] فإن: حرف نفي بمعنى ما.

[٦] آنس: أفعل تفضيل من أنس ضد استوحش.

[٧] النشر: الرائحة.

[٨] متكافئ: متماثل.

[٩] الأريب: العاقل.

والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، ومثل ذلك مثل الكوز الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى شيء ولا وصل له أبدًا والكريم يودُّ الكريم، واللئيم لا يودُّ أحدًا إلاَّ عن رغبة أو رهبة، وأنا إلى ودِّك ومعروفك محتاج لأنك كريم، وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعامًا حتى تؤاخيني واعلم أني لو كنت أشاء ضرَّك لفعلت حين كنت محلقًا فوق رأسك عندما كنت تقطع حبائل الحمام.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك فإني لم أردد أحدًا عن حاجة قط وإنما بلوتك[١٠] بما بلوتك به إرادة التوثُّق[١١] لنفسي فإن أنت غدرت بي لم تقل إني وجدت الجرذ ضعيف الرأي سريع الانخداع.

ثم خرج من جحره فوقف عند الباب، فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إليَّ والاستئناس بي؟ أو في نفسك بعد مني ريبة؟

قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما، وهما ذات النفس وذات اليد. فالمتبادلون ذات النفس هم الأصفياء[١٢] وأمَّا المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض، ومَنْ كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطي كمثل الصياد وإلقائه الحبَّ للطير لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه؛ فتعاطي ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد، وإني واثق منك بذات نفسك ومنحتك من نفسي مثل ذلك، وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك وليس رأيهم فيَّ كرأيك.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا ولعدو صديقه عدوًا، وليس لي بصاحب ولا صديق مَنْ لا يكون له محبًا، وإنه يهون عليَّ قطيعة مَنْ كان كذلك من جوهري: فإن زراع الريحان إذا رأى بينه عشبًا يفسده قلعه ورمى به.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا وأنس كل واحد منهما بصاحبه، حتى إذا مضت لهما أيام قال الغراب للجرذ: إن حجرك قريب من طريق الناس وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر، ولي مكان في عزلة ولي فيه صديق من السلاحف وهو

---

[١٠] بلوتك: امتحنتك.

[١١] التوثُّق: التثبُّت والتحفُّظ.

[١٢] الأصفياء: الأحباء الصادقون.

مخصب من السمك ونحن واجدون هناك ما نأكل فأريد أن أنطلق بك إلى هناك لنعيش آمنين.

قال الجرذ: وإني أيضًا كاره لمكاني هذا ولي أخبار وقصص سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد، فافعل ما تشاء، فأخذ الغراب بذنب الجرذ وطار به حتى بلغ حيث أراد، فلمَّا دنا من العين التي فيها السلحفاة بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها؛ فناداها فخرجت إليه وسألته: من أين أقبلت؟ فأخبرها بقصته حتى تبع الحمام وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها. فلمَّا سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفائه ورحَّبت به وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟ قال الغراب للجرذ: اقصص عليَّ الأخبار التي قلت إنك تحدثني بها فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة فإنها عندك بمنزلتي. فبدأ الجرذ وقال:

> كان منزلي أول أمري بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك، وكان خاليًا من الأهل والعيال، وكان يُؤتَى في كل يوم بجونة[١٣] من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي، وكنت أرصد الناسك حتى يخرج وأثب إلى الجونة فلا أدع فيها طعامًا إلاَّ أكلته ورميت منه إلى الجرذان، فجهد الناسك مرارًا أن يعلِّق الجونة في مكان لا أناله فلم يقدر على ذلك حتى نزل به ذات ليلة ضيف فأكلا جميعًا ثم أخذا في الحديث، فقال الناسك للضيف: من أي أرض أقبلت وأين تريد الآن؟

وكان الرجل قد جاب الآفاق ورأى عجائب؛ فأنشأ يحدِّث الناسك عما وطئ من البلاد ورأى من العجائب. وجعل الناسك خلال هذا يصفق بيديه لينفرني عن الجونة؛ فغضب الضيف وقال: أنا أحدِّثك وأنت تهزأ بحديثي، فما حملك على أن سألتني؟ فاعتذر إليه الناسك وقال: إنما أصفق بيدي لأنفر جرذًا قد تحيَّرت في أمره ولست أضع في البيت شيئًا إلاَّ أكله. فقال: جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك: جرذان البيت كثيرة لكن فيها جرذًا واحدًا هو الذي غلبني فما أستطيع له حيلة.

قال الضيف: لقد ذكَّرتني قول الذي قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشورٍ. قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

[١٣] جونة: سلة صغيرة مغشاة بجلد.

مثل السمسم المقشور وغير المقشور

قال الضيف: نزلت مرَّة على رجل بمكان فتعشينا ثمَّ فرش لي وانقلب على فراشه. فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غدًا رهطًا ليأكلوا عندنا فاصنعي لهم طعامًا. فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك وأنت رجل لا تبقي شيئًا ولا تدخَّره؟ قال الرجل: لا تندمي على شيء أطعمناه وأنفقناه فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب. قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟

مثل الذئب والرجل والقوس

قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص ومعه قوسه ونشابه، فلم يجاوز غير بعيد حتى رمى ظبيًا فحمله ورجع طالبًا منزله، فاعترضه خنزير بري فرماه بنشبة نفذت فيه فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس ووقعا ميتين. فأتى عليهم ذئب فقال: هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدَّة. ولكن أبدأ بهذا الوتر فأكله فيكون قوت يومي وأدخر الباقي إلى غد فما وراءه فعالج الوتر حتى قطعه. فلمَّا انقطع طار سية[١٤] القوس فضرب حلقه فمات.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العاقبة. فقالت المرأة: نعمَّا قلت وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفرٍ أو أكثر. فأنا غادية على صنع الطعام فادع مَنْ أحببت.

وأخذت المرأة حين أصبحت سمسمًا وقشَّرته وبسطته في الشمس ليجف وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب، وتفرَّغت المرأة لصنعها، وتغافل الغلام عن السمسم فجاء كلب فعاث فيه فاستقذرته المرأة وكرهت أن تصنع منه طعامًا، فذهبت به على السوق فأخذت به مقايضة سمسمًا غير مقشور مثلاً بمثل وأنا واقف في السوق. فقال رجل: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشور.

وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرت أنه على غير علَّة ما يقدر على ما شكوت منه. فالتمس لي فأسًا فأتى بها الضيف وأنا حينئذ في جحر غير جحري أسمع كلامهما وفي جحري كيس فيه مئة دينار لا أدري مَنْ وضعها، فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى

[١٤] سية: طرف.

الدنانير فأخذها وقال للناسك: ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلاَّ بهذه الدنانير، فإن المال جُعِلَ قوة وزيادة في الرأي والتمكُّن.

وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب.

فلمَّا كان من الغد اجتمعت الجرذان التي كانت معي فقالت: قد أصابنا الجوع وأنت رجاؤنا؛ فانطلقت ومعي الجرذان إلى المكان الذي كنت أثب منه إلى الجونة فحاولت ذلك مرارًا فلم أقدر عليه، فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهنَّ يقلن: انصرفن عنه ولا تطمعن فيما عنده فإنا نرى له حالاً لا تحسبه إلاَّ قد احتاج معها إلى مَنْ يعوله فتركنني ولحقن بأعدائي وجفونني وأخذن في غيبتي[١٥] عند مَنْ يعاديني ويحسدني، وأصبحن كأنهنَّ لم يعرفنني وكأني لم أكن عليهنَّ رئيسًا قط.

فقلت في نفسي: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلاَّ بالمال، ووجدت مَنْ لا مال له إذا أراد أمرًا قعد به العدم[١٦] عما يريده. كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء لا يمرُّ إلى نهر ولا يجري إلى مكان على أن يفسد وينشف ولا ينتفع به، ووجدت مَنْ لا إخوان له لا أهل له، ومَنْ لا ولد له لا ذكر له، ومَنْ لا مال له لا عقل له ولا دنيا وآخرة له؛ لأن مَنْ نزل به الفقر لا يجد بدًا من ترك الحياء، ومَنْ ذهب حياؤه ذهب سروره، ومَنْ ذهب سروره مقت نفسه، ومَنْ مقت نفسه كثر حزنه، ومَنْ كثر حزنه قلَّ عقله وارتبك في أمره، ومَنْ قلَّ عقله كان أكثر قوله وعمله عليه لا له، ومَنْ كان كذلك فأحر به أن يكون أنكد الناس حظًا في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ إن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه وأهل ودِّه ومقتوه ورفضوه وأهانوه واضطره ذلك إلى أن يلتمس من الرزق ما يغرِّر فيه بنفسه ويفسد فيه آخرته فيخسر الدارين جميعًا. وإن الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس.

ووجدت الفقر رأس كل بلاء وجالبًا إلى صاحبه كل مقت ومعدن النَّميمة، ووجدت الرجل إذا افتقر اتَّهمه مَنْ كان له مؤتمنًا وأساء به الظن مَنْ كان يظن به حسنًا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا. وليس من خلة هي للغني مدح إلاَّ وهي للفقير ذمٌّ.

---

[١٥] أخذن في غيبتي: ذمِّي في غيابي.

[١٦] القدم: الفقر.

فإن كان شجاعًا قيل أهوج، وإن كان جوادًا سُمِّي مبذرًا، وإن كان حليمًا سُمِّي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سُمِّي بليدًا، وإن كان صموتًا سُمِّي عييًا،[١٧] وإن كان لسنًا سُمِّي مهذارًا.

فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة[١٨] ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام، فإن الكريم لو كُلِّف أن يدخل يده في فمِّ الأفعى فيخرج منه سمًا فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحبَّ إليه من مسألة البخيل اللئيم. حتى لقد جاء في قديم الأقاويل أن مَنْ اُبتِلِي بمرض في جسده لا يفارقه حتى يتسلَّط عليه ما هو أشدُّ منه من الحاجة والفقر.

وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك جعل الناسك نصيبه في خريطة[١٩] عند رأسه لمَّا جنَّ[٢٠] الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئًا فأرده على جحري، ورجوت أن يزيد ذلك في قوتي أو يراجعني بسببه بعض أصدقائي، فانطلقت إلى الناسك وهو نائم حتى انتهيت عند رأسه فوجدت الضيف يقظان وبيده قضيب فضربني على رأسي ضربة موجعة فانقلبت راجعًا إلى جحري، فلمَّا سكن عني الألم هيجني الحرص والشَّره فخرجت طمعًا كطمعي الأول، وإذا الضيف يرصدني فضربني بالقضيب ضربة أسالت مني الدم فتحاملت على نفسي وتقلَّبت ظهرًا لبطن إلى جحري فخررت مغشيًا عليَّ. فأصابني من الوجع ما بغَّض إليَّ المال حتى لا أسمع بذكره إلاَّ تداخلني من ذكر المال رعدة وهيبة.

ثم تذكَّرت فوجدت البلاء في الدُّنيا إنما يسوقه الحرص والشَّره لأنهما لا يزالان يدخلان صاحبهما من شيء إلى شيء، والأشياء لا تنفد ولا تنتهي ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب، ووددت ركوب الأهوال وتجشُّم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليَّ من بسط اليد إلى السخي بالمال فكيف بالشحيح به، ولم أر كالرضا شيئًا. ووجدت العلماء قد قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع ككف الأذى، ولا حسب[٢١] كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا. وأحق ما صبر الإنسان على الشيء نفسه، وأفضل البرِّ الرحمة.

---

[١٧] عييًا: عاجزًا غير قادر على النطق.

[١٨] تحوَّج إلى المسألة: الطلب على سبيل التكرم.

[١٩] خريطة: وعاء من جلد أو غيره.

[٢٠] جنَّ: أظلم.

[٢١] حسب: كرم.

ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون. وقالوا: الخرس خير من اللسان الكذوب، والضرُّ والفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس.

فصار أمري إلى أن رضيت وقنعت وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية، وكان لي صديق من الحمام فسيقت[٢٢] عليَّ بصداقته صداقة الغراب، والتفت إلى السلحفاة فقال: ثمَّ ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة وأخبرني أنه يريد إتيانك فأحببت أن آتيك معه، وكرهت الوحدة فإنه لا شيء من سرور الدُّنيا يعدل صحبة الإخوان ولا غمَّ فيها يعدل البعد عنهم، وجرَّبت فعلمت أنه لا ينبغي للملتمس من الدُّنيا غير الكفاف الذي يدفع به الأذى عن نفسه وهو يسير من المطعم والمشرب إذا أُعِين بصحة وسعة. ولو أن رجلاً وُهِبت له الدُّنيا بما فيها لم يكن ينتفع من ذلك إلاَّ بالقليل الذي يدفع به عن نفسه الحاجة وما سوى ذلك فليس له منه إلاَّ ما لغيره من النظر إليه حسب.

فلمَّا فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق وقالت: قد سمعت كلامك وما أحسن ما تكلَّمت به، إلاَّ أني رأيتك تذكر بقايا أمور هي في نفسك من حيث قلَّة مالك وسوء حالك واغترابك عن موطنك، فاطرح ذلك عن قلبك واعلم أن حسن الكلام لا يتمُّ إلاَّ بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداو به لم يغن علمه به شيئًا ولم يجد لدائه راحة ولا خفة. فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلَّة المال، فإن الرجل ذا المروءة قد يُكرَمُ على غير مال كالأسد الذي يُهَابُ وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءة له يُهَانُ وإن كان كثير المال كالكلب لا يُحفَلُ به وإن طُوِّق وخُلخِلَ بالذَّهب. فلا تكبرن عليك غربتك فإن العاقل لا غربة له كالأسد الذي لا ينقلب إلاَّ معه قوته.

فلتحسن تعهُّدك[٢٣] لنفسك، فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك من كل مكان كما يطلب الماء انحداره، وإنما جُعِلَ الفضل للحازم البصير، وأمَّا الكسلان المتردِّد فإن الفضل لا يصحبه، وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلُّ الغمامة[٢٤] في الصيف، وخلَّة الأشرار، وعشق النساء، والنبأ الكاذب، والمال الكثير، فالعاقل لا يحزن لقلَّته، ولكن ماله عقله وما قدَّم من صالح عمله، فهو واثق أنه لا يُسلَبُ ما عمل ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله، وهو خليق أن لا يغفل عن أمر آخرته؛ فإن الموت لا يأتي إلاَّ بغتة وليس بينه وبين

[٢٢] سيقت: تسببت.

[٢٣] تعهُّدك: تفقُّدك.

[٢٤] الغمامة: السحابة.

أحد أجل معلوم، وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم، ولكن رأيت أن أقضي من حقك فأنت أخونا وما قِبَلنا مبذول لك.

فلمَّا سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ومردودها عليه وإلطافها إياه فرح بذلك وقال: لقد سررتني وأنعمت عليَّ وأنت جديرة أن تسرِّي نفسك بمثل ما سررتني. وإن أولى أهل الدُّنيا بشدَّة السرور مَنْ لا يزال ربعه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورًا، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرُّهم ويسرُّونه ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد، فإن حسن الثناء لا يزال صاحبه في عاقبته حيثما توجَّه، فإن الكريم إذا عثر لا يقيل عثرته ويأخذ بيده إلاَّ الكرام كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلاَّ الفيلة. فبينما الغراب في كلامه والثلاثة مستأنسون بعضهم ببعض إذا أقبل نحوهم ظبي يسعى مذعورًا؛ فذعرت منه السلحفاة فغاصت في الماء، ودخل الجرذ بعض الحجار، وطار الغراب فوقع على شجرة، وانتهى الظبي إلى الماء فشرب منه يسيرًا ثم وقف خائفًا يلتفت يمينًا وشمالاً، ثم إن الغراب حلَّق في السماء لينظر هل للظبي طالب، فنظر فلم يرَ شيئًا، فنادى الجرذ والسلحفاة فخرجا، فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء ولا يقربه: اشرب إن كان بك عطش ولا تخف فإنه لا خوف عليك؛ فدنا الظبي فرحَّبت به السلحفاة وحيَّته وقالت له: من أين أقبلت؟

قال: كنت بهذه الصحارى راتعًا.[٢٥] فلم تزل الأساورة[٢٦] تطردني من مكان إلى مكان حتى رأيت اليوم شبحًا فخفت أن يكون قانصًا. قالت: لا تخف فإنا لم نرَ هاهنا قانصًا قط، ونحن في هذا المكان مجتمعون نتحدث ونتآنس، ونحن نبذل لك ودَّنا ومكاننا، والماء والمرعى كثير عندنا فارغب في صحبتنا.

فأقام الظبي معهم، وكان لهم عريش يجتمعون فيه ويتساقطون الأحاديث والأخبار، فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش إذ غاب الظبي فتوقعوه ساعة فلم يأتِ، فلمَّا أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت[٢٧] فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: انظر هل ترى مما يلينا شيئًا؟ فحلَّق الغراب في السماء فنظر فإذا الظبي في الحبائل مقتنصًا[٢٨] فانقض مسرعًا فأخبرهما بذلك. فقالت السلحفاة والغراب للجرذ: هذا أمر لا

[٢٥] راتعًا: آكلاً وشاربًا ما شاء في خصب وسعة.

[٢٦] الأساورة: جمع أسوار وهو الجيد الرمي بالسهام.

[٢٧] عنت: وقوع في أمر شاق.

[٢٨] مقتنصًا: مصطادًا.

يرجى فيه غيرك فأغث أخاك؛ فسعى الجرذ مسرعًا فأتى الظبي فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قال الظبي: ما يغني حذر من قدر ولا يجدي الكيس مع المقادير شيئًا.

فبينما هما في الحديث إذا وافتهما السلحفاة فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا فإن القانص لو انتهى إلينا وقطع الجرذ الحبائل سبقته عدوًا، وللجرذ أجحار كثيرة، والغراب يطير وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة وأخاف عليك القانص. قالت: لا عيش بعد فراق الأحبة، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سُلِبَ فؤاده وحُرِمَ سروره وغشي على بصره.

فلم ينته كلامهما حتى وافى القانص ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك فنجا الظبي بنفسه، وطار الغراب محلِّقًا، ودخل الجرذ بعض الأجحار، ولم يبقَ غير السلحفاة، ودنا الصياد فوجد حبائله مقطعة، فنظر يمينًا وشمالاً فلم يجد غير السلحفاة تدبُّ فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة، فاشتدَّ حزنهم وقال الجرذ: ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلاَّ صرنا إلى أشدَّ منها، ولقد صدق الذي قال: لا يزال الإنسان مستمرًا في إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر لجَّ[٢٩] به العثار وإن مشى في جدد[٣٠] الأرض. وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خلتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ولكنها خلة الكرم والشرف، خلَّة هي أفضل من خلَّة الولد لولده، خلَّة لا يزيلها إلاَّ الموت.

ويحٌ لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرُّف وتقلُّب ولا يدوم له شيء ولا يلبث معه أمر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ولا للآفل منها أفول، لكن لا يزال الطالع منها آفلاً والآفل طالعً،. وكما تكون آلام الكلوم وانتقاض الجراحات كذلك حالي أنا الذي ذكرني هذا البلاء سابق أحوالي كالجرح المندمل[٣١] تصيبه الضربة فيجتمع عليه ألمان؛ ألم الضربة وألم الجرح. وأخلق بمَنْ فقد إخوانه بعد اجتماعه بهم أن لا يزال منقصم[٣٢] الظهر حزين النفس.

[٢٩] لجَّ: تمادى.

[٣٠] جدد الأرض: الأرض الغليظة المستوية وعليها قولها.

[٣١] المندمل: الذي برئ.

[٣٢] منقصم: منكسر.

فقال الظبي والغراب للجرذ: إن حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان بليغًا لا يغني عن السلحفاة شيئًا، وإنه كما يقال إنما الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، والإخوان عند النوائب. قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأسعى أنا فأكون قريبًا من القانص مراقبًا له لعله يرمي ما معه من الآلة ويدع السلحفاة ويقصدك طامعًا فيك راجيًا تحصيلك، فإذا دنا منك ففرَّ عنه رويدًا بحيث لا ينقطع طمعه فيك وأمكنه من أخذك مرَّة بعد مرَّة حتى يبعد عنا، وانح منه هذا النحو ما استطعت؛ فإني أرجو ألا ينصرف إلاَّ وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة وأنجو بها.

ففعل الظبي والغراب ما أمرهما به الجرذ وتبعهما القانص. فاستطرد له[٣٣] الظبي حتى أبعده عن السلحفاة والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعها ونجا بالسلحفاة. وعاد القانص مجهودًا لاغبًا[٣٤] فوجد حبائله مقطَّعة.

ففكَّر في أمره مع الظبي فظن أنه خولط[٣٥] في عقله، وفكَّر في الظبي والغراب الذي كان كأنه يأكل منه وتقريض حبائله، فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جنٍّ أو سحرة؛ فرجع موليًا لا يلتمس شيئًا ولا يلتفت إليه، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلُّص من مرابط الهلكة مرَّة بعد أخرى بمودِّته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاع بعضه ببعض، فالإنسان الذي قد أُعطِي العقل والفهم، وأُلهِمَ الخير والشرّ، ومُنِحَ التمييز والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد.

فهذا مثلُ إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة.

---

[٣٣] استطرد له: أظهر له الانهزام مكيدة.

[٣٤] لاغبًا: تعبًا جدًا.

[٣٥] خولط في عقله: اضطرب واختلَّ.

الفصل السابع

باب البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لي مثل العدوِّ الذي لا ينبغي أن يغرَّ به وإن أظهر تضرُّعا وملقًا.[١]

وأخبرني عن العدو هل يصير صديقًا وهل يوثق من أمره بشيء، وكيف العداوة وما ضررها، وكيف ينبغي للملك أن يصنع إذا طلب عدوُّه مصالحته.

قال الفيلسوف: مَنْ اغترَّ بالعدوِّ الذي لا يزال عدوًا أصابه ما أصاب البوم من الغربان. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان في جبل من الجبال شجرة من شجر الدَّوح فيها وكر ألف غراب وعليهن والٍ من أنفسهن، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة وعليهن والٍ منهن. فخرج ملك البوم لبعض غدواته وروحاته وفي نفسه العداوة لملك الغربان، وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم، فأغار ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها فقتل وسبى منها خلقًا كثيرًا، وكانت الغارة ليلاً. فلمَّا أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له: قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم وما منا إلاَّ مَنْ أصبح قتيلاً أو جريحًا أو مكسور الجناح أو منتوف الريش أو مهلوب[٢] الذنب، وأشدُّ ما أصابنا ضرًا جرأتهنَّ علينا وعلمهنَّ بمكاننا، وهنَّ عائدات إلينا غير منقطعات عنا لعلمهنَّ بمكاننا، فإنما نحن لك أيها الملك فانظر لنا ولنفسك.

وكان في الغربان خمسة معترف لهنَّ بحسن الرأي يسند إليهنَّ في الأمور وتلقى إليهنَّ مقاليد الأحوال، وكان الملك كثيرًا ما يشاورهنَّ في الأمور ويأخذ آراءهنَّ في الحوادث

---

[١] ملقًا: تودُّدًا.

[٢] مهلوب: منتوف الهلب؛ وهو شعر الذنب.

والنوازل[٣] فقال الملك للأوَّل من الخمسة: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي قد سبقتنا إليه العلماء وذلك أنهم قالوا: ليس للعدو الحنق الذي لا طاقة لك به إلاُّ الهرب منه، قال الملك للثاني: ما رأيك أنت في هذا الأمر؟ قال: ما رأى هذا من الهرب؛ قال الملك: لا أرى لكما ذلك رأيًا أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أوَّل نكبة أصابتنا منه، ولا ينبغي لنا ذلك فنكون به لهم عونًا علينا، ولكن نجمع أمرنا ونستعدُّ لعدوِّنا ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدوِّنا ونحترس من الغرَّة إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه ولا حامين[٤] منه، وتلقى أطرافنا أطراف العدوِّ ونتحرَّز[٥] بحصوننا وندافع عدوَّنا بالأناة[٦] مرة وبالجلاد[٧] أخرى حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا وقد ثنينا عدوَّنا عنا.

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟ قال: لا أرى ما قالا رأيًا، ولكن نبثُّ العيون ونبعث الجواسيس ونرسل الطلائع بيننا وبين عدوِّنا فنعلم هل يريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية، فإن رأينا أمره أمر طامع في مال لم نكره الصلح على خراج نؤديه إليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا، فإن من آراء الملوك إذا اشتدَّت شوكة عدوِّهم فخافوا على أنفسهم وبلادهم أن يجعلوا الأموال جنة[٨] البلاد والملك والرعية.

قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال: لا أراه رأيًا بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدَّة المعيشة خير من أن نضيِّع أحسابنا[٩] ونخضع للعدوِّ الذي نحن أشرف منه، مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلاَّ بالشطط.[١٠] ويقال في الأمثال: قارب عدوَّك بعض المقاربة لتنال حاجتك ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك ويضعف جندك وتذلُّ نفسك، ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملتها

---

[٣] النوازل: الشدائد.

[٤] لا حامين: أي غير آنفين ولا يداخلنا عار بذلك.

[٥] نتحرَّز: نتحفَّظ.

[٦] الأناة: الرفق والانتظار.

[٧] الجلاد: المضاربة بالسيوف.

[٨] جنة: سترة.

[٩] أحسابنا: مفاخرنا.

[١٠] الشطط: مجاوزة الحدِّ.

قليلاً زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحدَّ في إمالتكها[١١] نقص الظل، وليس عدوُّنا راضيًا منا بالدُّون في المقاربة؛ فالرأي لنا ولك المحاربة.

قال الملك للخامس: ما تقول أنت وماذا ترى؟ القتال أم الصلح أم الجلاء عن الوطن؟ قال: أمَّا القتال فلا سبيل للمرء إلى مَنْ لا يقوى عليه، وقد يقال إنه مَنْ لا يعرف نفسه وعدوَّه وقاتل مَنْ لا يقوى عليه حمل نفسه على حتفها. مع أن العاقل لا يستصغر عدوًا. فإن مَنْ استصغر عدوَّه اغترَّ به ومَنْ اغترَّ بعدوِّه لم يسلم منه وأنا للبوم شديد الهيبة وإن أضربن عن قتالنا، وقد كنت أهابها قبل ذلك. فإن الحازم لا يأمن عدوَّه على كل حال، فإن كان بعيدًا لم يأمن سطوته، وإن كان مكثبًا[١٢] لم يأمن وثبته، وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره، وأحزم الأقوام وأكيسهم مَنْ كره القتال لأجل النفقة فيه. فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل. والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان. وربما اُكتُفِي عنه بالنفقة اليسيرة والكلام اللين.

فلا يكونن القتال للبوم من رأيك أيها الملك؛ فإن مَنْ قاتل من لا يقوى عليه فقد غرَّر بنفسه. فإذا كان الملك محصنًا للأسرار متخيرًا للوزراء مهيبًا في أعين الناس بعيدًا من أن يقدر عليه كان خليقًا لا يسلب صحيح ما أتي من الخير، وأنت أيها الملك كذلك والملك يزداد برأي وزرائه بصيرة كما يزيد البحر بمجاوره من الأنهار.

وقد استشرتني في أمر جوابك مني عنه في بعضه علني وقد أجبتك به، وفي بعضه سريٌّ، وللأسرار منازل منها ما يدخل فيه الرَّهط، ومنها ما يستعان فيه بالقوم، ومنها ما يدخل فيه الرجلان. ولست أرى لهذا السرِّ على قدر منزلته أن يشارك فيه إلاَّ أربع آذان ولسانان.

فنهض الملك من ساعته وخلا به فاستشاره. فكان أوَّل ما سأله عند الملك أنه قال: تعلم ابتداءً العداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم، كلمة تكلَّم بها غراب. قال الملك/وكيف كان ذلك؟

[١١] إمالتكها: إي إمالتك إياها.

[١٢] مكثبًا: قريبًا.

مثال الغراب والكراكي

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكي[١٣] لم يكن لها ملك. فأجمعت أمرها على أن تملِّك عليها ملك البوم. فبينما هي في مجمعها إذا وقع لها غراب فقالت: لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه في أمرنا. فلم يلبثن دون أن جاءهنَّ الغراب فاستشرنه. فقال: لو أن الطير بادت من الأقاليم وفُقِدَ الطاووس والبطُّ والنعام والحمام من العالم لما اضطررتنَّ إلى أن تملكنَّ عليكنَّ البوم التي هي أقبح الطير منظرًا وأسوأها خلقًا وأقلُّها عقلاً وأشدُّها غضبًا وأبعدها من كل رحمة. مع عماها وما بها من العشا[١٤] في النهار ونتن رائحتها حتى لا يطيق طائر أن يتقرَّب منها. وأشدُّ من ذلك وأقبح أمورها سفهها[١٥] وسوء أخلاقها. إلاَّ أن ترين أن تملِّكنها وتكنَّ أنتنَّ تدبرنَّ الأمور دونها برأيكنَّ وعقولكنَّ. فإن وزراء الملك إذا كانوا صالحين وكان يطيعهم في آرائهم لم يضرَّ في ملكه كونه جاهلاً واستقام أمره، كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها وعملت برأيها؛ قالت الطير: وكيف كان ذلك؟

مثل الأرنب وملك الفيلة

قال الغراب: زعموا أن أرضًا من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون وأجدبت[١٦] وقلَّ ماؤها وغارت عيونها وذوى[١٧] نبتها ويبس شجرها؛ فأصاب الفيلة عطش شديد. فشكون ذلك إلى ملكهنَّ فأرسل الملك رسله ورواده في طلب الماء في كل ناحية، فرجع إليه بعض الرُّسل فقال له: إني قد وجدت بمكان كذا عينًا يقال لها عين القمر كثيرة الماء. فتوجَّه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته، وكانت العين في أرض للأرانب فوطئن الأرانب في أجحارهن فأهلكن منهن كثيرًا؛ فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة. فقال: ليحضر منكنَّ كل ذي رأي رأيه.

---

[١٣] الكراكي: جمع كركي وهو طائر يقرب من الإوز.

[١٤] العشا: ضعف البصر.

[١٥] سفهها: خفَّتها وطيشها.

[١٦] أجدبت: أمحلت.

[١٧] ذوى: ذبل.

فتقدَّمت أرنب من الأرانب يقال لها فيروز، وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب. فقالت: إن رأى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويرسل معي أمينًا ليسمع ويرى ما أقول ويرفعه إلى الملك.

فقال لها الملك: أنت أمينة ونرضى بقولك فانطلقي إلى الفيلة وبلِّغي عني ما تريدين، واعلمي أن الرسول برأيه وعقله ولينه وفضله يخبر عن عقل المرسل، فعليك باللين والرفق والحلم والتأني، فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق.[١٨]

ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء حتى انتهت إلى الفيلة، وكرهت أن تدنو منهنَّ مخافة أن يطأنها بأرجلهنَّ فيقتلنها وإن كنَّ غير متعمدات فأشرفت على الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له: إن القمر أرسلني إليك والرسول غير ملوم فيما يبلغ وإن أغلظ في القول.

قال ملك الفيلة: فما الرسالة؟ قالت: يقول لك إنه من عرف فضل قوته على الضعفاء فاغترَّ في ذلك بالأقوياء قياسًا لهم على الضعفاء كانت قوته وبالاً عليه، وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب فغرَّك ذلك فعمدت إلى العين التي تُسمَّى باسمي فشربت منها ورنَّقتها[١٩] فأرسلني إليك فأنذرك أن لا تعود إلى مثل ذلك، وإنه إن فعلت يغشي على بصرك ويتلف نفسك. وإن كنت في شكٍّ من رسالتي فهلمَّ إلى العين من ساعتك فإنه موافيك بها.

فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول، فلمَّا نظر إليها رأى ضوء القمر فيها فقالت له فيروز الرسول: خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك واسجد للقمر؛ فأدخل الفيل خرطومه في الماء فتحرَّك فخُيِّل إلى الفيل أن القمر ارتعد. فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أترينه غضب من إدخالي خرطومي في الماء؟ قالت فيروز الأرنب: نعم. فسجد الفيل للقمر مرَّة أخرى وتاب إليه مما صنع وشرط أن لا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحدٌ من فيلته.

[١٨] خرق: جهل وحمق.

[١٩] رنَّقتها: كدَّرتها.

قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر البوم فإن فيها الخبَّ والمكر والخديعة، وشرُّ الملوك المخادع، ومَنْ أُبتُلِي بسلطان مخادع وخدمه أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد[٢٠] حين احتكما إلى السنور. قال الكراكي: وكيف كان ذلك؟

مثل الأرنب والصَّفرد والسنور.

قال الغراب: كان لي جار من الصَّفاردة في أصل شجرة قريبة من وكري، وكان يكثر مواصلتي. ثم فقدته فلم أعلم أين غاب، وطالت غيبته عني. فجاءت أرنب إلى مكان الصَّفرد فسكنته. فكرهت أن أخاصم الأرنب فلبثت فيه زمانًا.

ثم إن الصَّفرد. عاد بعد زمان فأتى منزله فوجد فيه الأرنب فقال لها: هذا المكان لي فانتقلي منه. قالت الأرنب: المسكن وتحت يدي وأنت مدَّع له. فإن كان لك حق فاستعد[٢١] عليَّ قال الصَّفرد: القاضي منا قريب فهلمي بنا إليه. قالت الأرنب: ومَنْ القاضي؟ قال الصَّفرد: إن بساحل البحر سنورًا متعبدًا يصوم النهار ويقوم الليل كله ولا يؤذي دابة ولا يهريق[٢٢] دمًا. عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر. فإن أحببت تحاكمنا إليه ورضينا به.

قالت الأرنب: ما أرضاني به إذا كان كما وصفت! فانطلقا إليه. فتبعتهما لأنظر إلى حكومة الصوَّام القوَّام. ثمَّ إنهما ذهبا إليه فلمَّا بصر السنور بالأرنب والصَّفرد مقبلين نحوه انتصب قائمًا يصلي وأظهر الخشوع والتنسُّك. فعجبًا لما رأيا من حاله ودنوا منه هائبين له[٢٣] وسلَّما عليه وسألاه أن يقضي بينهما؛ فأمرهما أن يقصَّا عليه القصة ففعلا. فقال لهما: قد بلغني الكبر وثقلت أذناي فادنوا مني فأسمعاني ما تقولان. فدنوا منه وأعادوا عليه القصة وسألاه الحكم.

فقال: قد فهمت ما قلتما وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة. فأنا آمركما بتقوى الله، وأن لا تطلبا إلاَّ الحق. فإن طالب الحق هو الذي يفلح وإن قضي عليه، وطال

---

[٢٠] الصَّفرد: طائر من خشاش الطير تكنيه العامة أبا المليح يُضرَبُ به المثل في الجبن.

[٢١] استعد: استعن.

[٢٢] يهريق: يريق أي يسفك.

[٢٣] هائبين له: أي معظِّمين إياه.

بالباطل مخصوم وإن قُضِي له. وليس لصاحب الدُّنيا من دنياه شيء لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدِّمه. فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غدًا وأن يمقت بسعيه ما سوى ذلك من أمور الدُّنيا. فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر،[٢٤] ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشرِّ بمنزلة نفسه.

ثمَّ إن السنور لم يزل يقصُّ عليهما من جنس هذا وأشباهه حتى أنسا إليه وأقبلا عليه ودنوا منه فوثب عليهما فقتلهما.

قال الغراب: ثم إن البوم تجمع مع ما وصفت لكن من الشؤم سائر العيوب، فلا يكونن تمليك البوم من رأيكنَّ.

فلمَّا سمعت الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم، وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا فقال للغراب: لقد وترتني[٢٥] أعظم التِّرة ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوء أوجب هذا، وبعد فاعلم أن الفأس يقطع بها الشجر فيعود ينبت، والسيف يقطع اللحم ثم يرجع فيندمل. واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى[٢٦] مقاطعه. والنَّصل من السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج، وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولكل حريق مطفئ؛ فللنار الماء، وللسمِّ الدواء، وللحزن الصبر، وللعشق الفرقة. ونار الحقد لا تخبو أبدًا، وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء.

فلمَّا قضى البوم مقالته ولَّى مُغضبًا فأخبر ملك البوم بما جرى، وبكل ما كان من قول الغراب.

ثم إن الغراب ندم على ما فرط منه وقال: والله لقد خرقت في قولي الذي جلبت به العداوة والبغضاء على نفسي وقومي، وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال ولم أعلمها بهذا الأمر، ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت وعلم أضعاف ما علمت فمنعها من الكلام بمثل ما تكلَّمت اتِّقاء ما لم اتَّق والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب، ولا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام يلقى منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد

[٢٤] المدر: التراب المتلبد.

[٢٥] وترتني: أصبتني بعداوة وحقد.

[٢٦] تؤسى: تداوى.

والضغينة، فلا ينبغي أن تُسمَّى أشباه هذا الكلام كلامًا ولكن سهامًا، وإن الكلام الرديء هو الذي يرمي صاحبه في الحقد والعداوة، والعاقل إن كان واثقًا بقوَّته وفضله لا ينبغي أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة. كما وإن كان عنده التِّرياق لا ينبغي له أن يشرب السمَّ اتِّكالاً على ما عنده.

وصاحب العمل وإن قصر به القول في مستقبل الأمر كان فضله بينًا واضحًا في العاقبة والاختبار، وصاحب حسن القول وإن أعجب الناس منه حسن صفته للأمور لم تحمد مغبة[٢٧] أمره، وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة. أو ليس من سفهي اجترائي على التكلُّم في أمر لم أستشر فيه أحدًا ولم أعمل فيه رأيًا؟ ومَنْ لم يستشر النصحاء والأولياء وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية لم يغتبط بمواقع رأيه. فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا وما وقعت فيه من الهمِّ! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب.

هذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم، وأمَّا القتال فقد علمت رأيي فيه وكراهتي له، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى. فإنه ربَّ قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا، ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك وأخذوا عريضة[٢٨] قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الجماعة والنَّاسك وعريضه

قال الغراب: زعموا أن ناسكًا اشترى عريضًا ضخمًا ليجعله قربانًا، فانطلق به يقوده، فبصر به قوم من المكرة، فائتمروا بينهم أن يأخذوه من النَّاسك. فعرض له أحدهم فقال له: أيها النَّاسك ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه: ما هذا ناسكًا؛ لأن الناسك لا يقود كلبًا. فلم يزل مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أن الذي يقوده كلب، وأن الذي باعه إياه سحر عينيه؛ فأطلقه من يده فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به.

[٢٧] مغبَّة: عاقبة.

[٢٨] العريض من المعز: ما أتى عليه سنة، وتناول النبت بعرض شدقه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرِّفق والحيلة، وإني أريد من الملك أن ينقرني[٢٩] على رءوس الأشهاد وينتف ريشي وذنبي ثمَّ يطرحني في أصل هذه الشجرة ويرتحل الملك وجنوده على مكان كذا، فإني أرجو أني أصبر وأطلع على أحوالهم ومواضع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى.

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟ قال: نعم، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الرَّاحات للملك وجنوده! ففعل الملك بالغراب ما ذكر ثم ارتحل عنه. فلمَّا جنَّ الليل أقبل ملك البوم وجنده ليوقع بالغربان، فلم يجدهم، وهمَّ بالانصراف. فجعل الغراب يئن ويهمس حتى سمعته البوم ورأينه يئنُّ فأخبرن ملكهنَّ بذلك؛ فقصد نحوه ليسأله عن الغربان. فلمَّا دنا منه أمر بومًا أن يسأله فقال له: مَنْ أنت وأين الغربان؟ فقال: أمَّا اسمي ففلان. وأمَّا ما سألتني عنه فإني أحسبك ترى أن حالي حال مَنْ لا يعلم الأسرار. فقيل لملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه فنسأله بأي ذنب صنع به ما صنع. فسُئِلَ الغراب عن أمره فقالك إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ، وكنت يومئذ بمحضر من الأمر، فقال: أيها الغربان ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم لأنهنَّ أشدُّ بطشًا وأحدُّ قلبًا منا، ولكن أرى أن نلتمس الصلح ثم نبذل الفدية في ذلك فإن قبلت البوم ذلك منا وإلاَّ هربنا في البلاد.

وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيرًا لهنَّ وشرًا لنا؛ فالصلح أفضل من الخصومة، وأمرتهنَّ بالرجوع عن الحرب وضربت لهنَّ الأمثال في ذلك وقلت لهنَّ إن العدوَّ الشديد لا يردُّ بأسه مثل الخضوع له، ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت والشجر العاتي يكسر بها ويحطم؟

فعصينني في ذلك وزعمن أنهنَّ يردن القتال واتهمنني فيما قلت وقلن: إنك قد مالأت[٣٠] البوم علينا، ورددن قولي ونصيحتي وعذبنني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وارتحل ولا علم لي بهنَّ بعد ذلك.

فلمَّا سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب وما ترى فيه؟ قال: ما أرى إلاَّ المعاجلة له بالقتل فإن هذا أفضل عدد الغربان، وفي قتله لنا راحة

---

[٢٩] ينقرني: يعيبني ويضربني.

[٣٠] مالأت: ساعدت.

من مكره، وفقده على الغربان شديد. فإذا قتل ثُلَّ[٣١] ملكه وتقوَّض[٣٢] وما أراه إلاَّ فتحًا قد أرسله الله إليك. ويقال: مَنْ ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم. فإن الأمور مرهونة بأوقاتها، ومَنْ طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر، وهو خليق أن لا تعود الفرصة ثانية، ومَنْ وجد عدوَّه ضعيفًا ولم ينجز قتله ندم إذا ستقوى ولم يقدر عليه.

قال الملك لوزير آخر: ما ترى أنت في هذا الغراب؟ قال: أرى أن لا تقتله لأنه قد لقي من أصحابه ما تراه فهو خليق أن يكون دليلاً لك على عوراتهم ومعينًا لك على ما فيه هلاكهم، وإن العدوَّ الذليل الذي لا ناصر له أهل لأن يؤمن ولا سيما المستجير الخائف، والعدوُّ إذا صدرت منه المنفعة ولو كان غير متعمِّد لها أهل لأن يصفح عنه بسببها كالتاجر الذي عطف على سارق لاصطلاحه مع امرأته بسببه. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل التاجر وامرأته والسارق

قال الوزير: زعموا أنه كان تاجر كثير المال والمتاع، وكان بينه وبين امرأته وحشة[٣٣] وأن سارقًا تسوَّر بيت التاجر[٣٤] فدخل فوجده نائمًا ووجد امرأته مستيقظة فذعرت من السارق ووثبت إلى التاجر فالتزمته وأيقظته ولم يكن يجري بينهما كلام؛ فاستيقظ التاجر وتكالما وانحلَّت الوحشة من بينهما، ثم بصر بالسارق فقال: أيها السارق أنت في حلٍّ مما أخذت من مالي ومتاعي ولك الفضل بما أصلحت بيننا. قال ملك البوم لوزير من وزرائه: ما تقول في أمر الغراب؟ قال: أرى أن تستبقيه وتحسن إليه فإنه خليق أن ينصحك. والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضًا ظفرًا حسنًا، ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصًا لنفسه منهم ونجاة كنجاة النَّاسك من اللصِّ والشيطان حين اختلفا عليه. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

---

[٣١] ثلَّ: أذهب.

[٣٢] تقوَّض: انهدم.

[٣٣] وحشة: نفور.

[٣٤] تسوَّر: أي صعد على الحائط.

مثل الناسك واللصِّ والشيطان

قال الوزير: زعموا أن ناسكًا أصاب من رجل بقرة حلوبًا فانطلق بها يقودها إلى منزله، فعرض له لصٌّ أراد سرقتها وتبعه شيطان يريد اختطافه وقد تزيا بزي إنسان. فقال الشيطان للصِّ: مَنْ أنت؟ قال: أنا اللصُّ أريد أن أسرق هذه البقرة من النَّاسك إذا نام، فمَنْ أنت؟ قال: أنا الشيطان أريد أن أختطفه إذا نام وأذهب به.

فانتهيا على هذا إلى المنزل، فدخل النَّاسك منزله ودخلا خلفه وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل وتعشَّى ونام؛ فأقبل اللصُّ والشيطان يأتمران فيه واختلفا على مَنْ يبدأ بشغله أولاً. فقال الشيطان: إن أنت بدأت بأخذ البقرة ربما استيقظ وصاح واجتمع الناس فلا أقدر على أخذه. فانتظرني ريثما آخذه وشأنك وما تريد. فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه أن يستيقظ فلا يقدر على أخذ البقرة. فقال:

> لا بل أنظرني أنت حتى آخذ البقرة وشأنك وما تريد. قال الشيطان: رويدًا حتى يستغرق النَّاس في النوم فنظفر بهما جميعًا.

فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادى اللصُّ: أيها النَّاسك انتبه فهذا الشيطان يريد اختطافك. ونادى الشيطان: أيها النَّاسك انتبه فهذا اللصُّ يريد أن يسرق بقرتك؛ فانتبه النَّاسك وجيرانه بأصواتهما وهرب الخبيثان.

فقال الوزير الأوَّل الذي أشار بقتل الغراب: أظنُّ أن الغراب قد خدعكنَّ ووقع كلامه في نفس الغبي منكنَّ موقعه فتردن أن تضعن الرأي غير موضعه. فمهلاً مهلاً أيها الملك عن هذا الرأي ولا تكونن لما تسمع أشدَّ تصديقًا منك لما ترى، كالرجل الذي كذَّب بما رأى وصدَّق بما سمع وانخدع بالمحال. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الرجل الذي انخدع بالمحال

قال الوزير: زعموا أنه كان رجل نائمًا وحده إحدى الليالي في بيته، وإذا لصوص قد دخلوا عليه البيت وأخذوا في جمع ما فيه من المتاع حتى أفضوا[٣٥] إلى حيث هو نائم؛

[٣٥] أفضوا: وصلوا.

فانتبه عليهم وخاف أن يقوم إليهم حذرًا أن يبطشوا به. وكان للحجرة التي هو فيها باب آخر إلى الطريق. فقال في نفسه: الرأي أن لا أشعرهم بانتباهي ولا أذعرهم حتى يفرغوا مما يريدون أخذه ويخرجوه إلى حيث يريدون احتماله، فأخرج من الباب الآخر وأدعو الجيران فنفجأهم ونوقع بهم.

فلبث على فراشه متناومًا حتى فرغ اللصوص مما أرادوا جمعه وخرجوا يريدون حمله، فهمَّ الرجل بالقيام فشعروا بحركة منه فهمس إليهم رئيسهم أن قفوا ولا ترتاعوا وتعالوا نحتل له بحيلة نخدعه بها ولا يذهب تعبنا ضياعًا. وأنا الآن رافع صوتي ومخاطبكم بشيء فصوِّبوا فيه رأيي وأجيبوني إليه. قالوا: نعم. فرفع اللصُّ صوته بحيث يسمَعُ الرجل وقال لأصحابه: إني أرى هذه الأحمال ثقيلة شاقة وما أرى قيمتها تفي بحملها والمخاطرة فيها. وقد ظهر لي أن هذا الرجل سيء الحال، وقد أخذتني عليه الشفقة والرأفة، وراجعت رأيي فيه فرأيت أن ندع له متاعه فإنه بحسب علينا سرقة وما هو بشيء يستحق العناء ولا لنا فيه كبير فائدة، وقد كنت أسمع من بعض مشاهير اللصوص يقول: مَنْ عفَّ عن متاع فقير فلم يسرقه وهو قادر عليه غفر له ذلك سرقة مئة غني، وإن أولى السرقة وأحلَّها سرقة الأغنياء ولا سيما ذوي البخل والحرص منهم الذين ما بيوتهم وخزائنهم إلاَّ مدافن لأموال حبسوها فلا انتفعوا بها ولا تركوها للناس، فهلمَّ بنا إلى أحد هؤلاء ودعوا هذا الحطام الذي لا خير فيه واغتنموا أجر هذا الرجل المسكين. فقالوا كلهم: صدقت وأحسنت! وتظاهروا أنهم يفكون الأحمال وخرجوا وكمنوا ينتظرون نوم الرجل.

وإن الرجل لَمَّا سمع كلامهم وثق به واطمأن إليه واعتقد أنهم خرجوا فسكن ونام، ولبث اللصوص حتى أيقنوا أنه قد نام فثاروا إلى الأحمال فاحتملوها وفازوا بها.

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة أن لا تكون كذلك الرجل الذي كذب بما رأى وصدق بما سمع، فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر بالغراب أن يحمل إلى منازل البوم ويكرم ويستوصي به خيرًا.

ثمَّ إن الغراب قال للملك يومًا وعنده جماعة من البوم وفيهنَّ الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك قد علمت ما جرى عليَّ من الغربان وإنه لا يستريح قلبي دون الأخذ بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت لأني غراب، وقد رُوِي عن العلماء أنهم قالوا: مَنْ طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرَّب لله أعظم القربان لا يدعو عند ذلك بدعوة إلاَّ استجيب له. فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي أن يحوِّلني بومًا فأكون أشدَّ عداوة للغربان وأقوى بأسًا عليهن لعلي أنتقم منهن.

فقال الوزير الذي أشار بقتله: ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تضمر بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السمُّ. أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار أن جوهرك وطبعك متغير؟ أو ليست أخلاقك تدور معك حيث درت وتصير بعد ذلك على أصلك تتخيرهم حتى رجعت إلى أصلها وتزوَّجت الجرذ. قيل له: وكيف كان ذلك.

مثل الفأرة التي خُيِّرت بين الأزواج

قال: زعموا أنه كان ناسك مستجاب الدعوة. فبينما هو ذات يوم جالس على ساحل البحر إذا مرَّت به حدأة[٣٦] في رجلها درص[٣٧] فأرة. فوقعت منها عند الناسك وأدركته لها رحمة فأخذها ولفَّها في ورقة وذهب بها إلى منزله. ثمَّ خاف أن تشقَّ على أهله تربيتها فدعا ربه أن يحوِّلها جارية فتحوَّلت جارية حسناء، فانطلق بها إلى امرأته فقال لها: هذه ابنتي فاصنعي معها صنيعك بولدي.

فلمَّا كبرت قال لها الناسك: يا بنية اختاري مَنْ أحببت حتى أزوِّجك إياه. فقالت: أمَّا إذا خيرتني فإني أختار زوجًا يكون أقوى الأشياء. فقال الناسك: لعلك تريدين الشمس. ثمَّ انطلق إلى الشمس فقال: أيها الخلق العظيم لي جارية وقد طلبت زوجًا يكون أقوى الأشياء فهل أنت متزوِّجها؟ فقالت الشمس: أنا أدلك على مَنْ هو أقوى مني، السحاب الذي يغطيني ويردُّ جرم شعاعي ويكسف أشعة أنواري.

فذهب النَّاسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس. فقال السحاب: وأنا أدلُّك على مَنْ هو أقوى مني، فاذهب إلى الريح التي تقبل بي وتدبر وتهبُّ بي شرقًا وغربًا.

فجاء النَّاسك إلى الريح فقال لها كقوله للسحاب. فقالت: وأنا أدلُّك على مَنْ هو أقوى مني وهو الجبل الذي لا أقدر على تحريكه.

فمضى إلى الجبل فقال له القول فأجابه الجبل وقال له: أنا أدلُّك على مَنْ هو أقوى مني: الجرذ الذي لا أستطيع الامتناع منه إذا خرقني واتَّخذني مسكنًا.

[٣٦] حدأة: طائر يصطاد الجرذان ويعرف عند العامة بالشوحة.

[٣٧] درص: ولد الفأرة.

فانطلق النَّاسك إلى الجرذ فقال له: هل أنت متزوِّج هذه الجارية؟ فقال: وكيف أتزوَّجها ومسكني ضيق؟ وإنما يتزوَّج الجرذ الفأرة. فدعا النَّاسك ربَّه أن يحوِّلها فأرة كما كانت وذلك برضا الجارية، فأعادها الله إلى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ.

فهذا مثلك أيها المخادع، فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول ورفق بالغراب ولم يزدد له إلاَّ إكرامًا. حتى إذا طاب عيشه ونبتت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ[٣٨] روغة فأتى أصحابه بما رأى وسمع، فقال للملك: إني قد فرغت مما كنت أريد ولم يبقَ إلاَّ أن تسمع وتطيع. قال له: أنا والجند تحت أمرك فاحتكم كيف شئت.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب، وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راعٍ ونحن مصيبون[٣٩] هناك نارًا ونلقيها في أثقاب البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتروَّح عليها ضربًا بأجنحتنا حتى تضطرم النار في الحطب فمَنْ خرج منهنَّ احترق ومَنْ لم يخرج مات بالدُّخان موضعه.

ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ قال الغراب: إن ما قلته أيها الملك لكذلك، فإنه يقال لذع النار أيسر على المرء من صحبة الأشرار والإقامة معهم، ولكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع الذي يخاف من عدم تحمُّله الجائحة[٤٠] على نفسه وقومه لم يجزع من شدَّة الصبر عليه لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير، فلم يجد لذلك ألمًا ولم تكره نفسه الخضوع لَمْنْ هو دونه حتى يبلغ حاجته فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره.

فقال الملك: أخبرني عن عقول البوم. قال الغراب: لم أجد فيهنَّ عاقلاً إلاَّ الذي كان يحثُّهنَّ على قتلي وكان حرَّضهنَّ على ذلك مرارًا فكنَّ أضعف شيء رأيًا فلم ينظرن في أمري ويذكرن أني قد كنت ذا منزلة في الغربان وأني أُعدُّ من ذوي الرأي ولم يتخوَّفن مكري وحيلتي ولا قبلن من الناصح الشفيق ولا أخفين دوني أسرارهن وقد قالت العلماء: ينبغي للملك أن يحصِّن أموره من أهل النَّميمة ولا يطلع أحدًا منهم على مواضع سرِّه.

---

[٣٨] راغ: مال بحيلة.

[٣٩] مصيبون: واجدون.

[٤٠] الجائحة: المصيبة العظيمة التي تهلك الناس.

وقد قيل: ينبغي للمرء أن يتحفَّظ من عدوه في كل شيء حتى في الماء الذي يشربه ويغتسل به، والفراش الذي ينام عليه، والحلة التي يلبسها. والدابة التي يركبها، ولا يأمن على نفسه إلاَّ الثقة الأمين السالم الباطن والظاهر ويكون بعد ذلك كله على حذر منه؛ لأن عدوَّه لا يتوصَّل إليه إلاَّ من جهة ثقاته، فربما كان أحدهم لعدوِّه صديقًا فيصل العدو إلى مراده منه.

فقال الملك: ما أهلك البوم في نفسي إلاَّ البغي وضعف رأي الملك وموافقته وزراء السوء فقال الغراب: صدقت أيها الملك، إنه قلَّما ظفر أحد ولم يطغَ، وقلَّما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح، وقلَّ مَنْ أكثر من الطعام ولم يمرض، وقلَّ مَنْ وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك، وكان يقال: لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخبُّ في حسن الصديق، ولا السيئ الآداب في الشرف، ولا الشحيح في البرِّ، ولا الحريص في قلَّة الذنوب، ولا الملك المختال المتهاون بالأمور الضعيف الوزراء في ثبات ملكه وصلاح رعيته.

قال الملك: لقد احتملت مشقَّة شديدة في تصنُّعك للبوم وتضرُّعك إليهن. قال الغراب: إنه مَنْ احتمل مشقَّة يرجو نفعها ونحى نفسه الأنفة[٤١] والحمية[٤٢] ووطَّنها على الصبر حمد غبَّ[٤٣] رأيه. وإنه يقال: لو أن رجلاً حمل عدوَّه على عنقه وهو يرجو هلاكه وراحته منه لكان ذلك عنده خفيفًا كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره وشبع بذلك وعاش. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الأسود وملك الضفادع

قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيَّات كبر وضعف بصره وذهبت قوته فلم يستطع صيدًا ولم يقدر على طعام. وإنه انساب يلتمس شيئًا يعيش به حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتيها قبل ذلك فيصيب من ضفادعها رزقه. فرمى نفسه قريبًا منهنَّ مظهرًا للكآبة والحزن. فقال له أحدها: ما لي أراك أيها الأسود كئيبًا حزينًا؟ قال:

[٤١] الأنفة: عزَّة النفس.

[٤٢] الحميَّة: النخوة والمروءة والحماسة.

[٤٣] غبُّ: عاقبة.

ومَنْ أحرى بطول الحزن مني؟ وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت ببلاء حرمت عليَّ الضفادع من أجله حتى إني إذا التقيت ببعضها لا أقدر على إمساكه.

فانطلق الضفدع إلى ملك الضفادع فبشَّره بما سمع من الأسود؛ فأتى ملك الضفادع إلى الأسود فقال له: كيف كان أمرك؟ قال: سعيت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررته إلى بيت ناسك ودخلت في أثره في الظلمة، وفي البيت ابن للنَّاسك. فأصبت إصبعه فظننت أنها الضفدع فلدغته فمات؛ فخرجت هاربًا فتبعني النَّاسك في أثري ودعا عليَّ ولعنني وقال: كما قتلت ابني البريء ظلمًا وتعديًا أدعو عليك أن تذلَّ وتصير مركبًا لملك الضفادع فلا تستطيع أخذها ولا أكل شيء منها إلاَّ ما يتصدَّق به عليك ملكها؛ فأتيت إليك لتركبني مُقرًا بذلك راضيًا به.

فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود وظنَّ أن ذلك فخر له وشرف ورفعة فركبه واستطاب ذلك. فقال له الأسود: قد علمت أيها الملك أني محروم فاجعل لي رزقًا أعيش به. قال ملك الضفادع: لعمري لا بد من رزق يقوم بك إذا كنت مركبي فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان إليه؛ فعاش بذلك ولم يضرَّه خضوعه للعدوِّ الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقًا ومعيشة.

وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه التماسًا لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن والظفر وهلاك العدوِّ والراحة منه. ووجدت صرعة[٤٤] اللين والرِّفق أسرع وأشدُّ استئصالاً للعدوِّ من صرعة المكابرة والعناد، فإن النار لا تزيد بحدَّتها وحرِّها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها، ويقال: أربعة أشياء لا يستقلُّ قليلها: النار والمرض والعدو والدِّين.

قال الغراب: وكل ذلك كان من رأي الملك وأدبه وسعادة جدِّه. وإنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به منهما أفضلهما مروءة، فإن اعتدلا في المروءة فأشدُّهما عزمًا، فإن استويا في العزم فأسعدهما جدًا. وكان يقال: مَنْ حارب الملك الحازم الأريب[٤٥] المتضرِّع الذي لا تبطره السرَّاء ولا تدهشه الضرَّاء كان هو داعي الحتف إلى نفسه.

[٤٤] صرعة: أي إهلاك.

[٤٥] الأريب: الحاذق بكل عمل.

ولاسيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال ومواضع الشدَّة واللين والغضب والرضا والمعاجلة والأناة الناظر في أمر يومه وغده وعواقب أعماله.

قال الملك للغراب: بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك. فإن رأي الرجل الواحد العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدوِّ من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدد والعدَّة، وإن من عجيب أمرك عندي طول لبثك[٤٦] بين ظهراني[٤٧] البوم تسمع الكلام الغليظ ثمَّ لم تسقط بينهن بكلمة.

قال الغراب: لم أزل متمسكا بأدبك أيها الملك أصحب البعيد والقريب بالرِّفق واللين والمبالغة والمؤاتاة[٤٨]

قال الملك: أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليس لها عاقبة حميدة، فقد منَّ الله علينا بك منَّة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذَّة الطعام والشراب ولا النوم ولا القرار، وكان يقال: لا يجد المريض لذَّة الطعام والنوم حتى يبرأ، ولا الرجل الشَّره الذي قد أطمعه سلطانه في مال وعمل في يده حتى ينجزه له، ولا الرجل الذي قد ألحَّ عليه عدوُّه وهو يخافه صباحًا ومساءً حتى يستريح منه قلبه، ومَنْ وضع الحمل الثقيل عن يده أراح نفسه، ومَنْ أمن عدوَّه ثلج صدره.

قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوك أن يمتِّعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيتك ويشركهم في قرَّة العين بملكك، فإن الملك إذا لم يكن في ملكه قرَّة عيون رعيته فمثله مثل زنمة[٤٩] العنز التي يمصُّها الجدي وهو يحسبها حلمة الضرع[٥٠] فلا يصادف فيها خيرًا.

قال الملك: أيها الوزير الصالح كيف كانت سيرة البوم وملكها في حروبها وفيما كانت فيه من أمورها؟

قال الغراب: كانت سيرته سيرة بطر وأشر[٥١] وخيلاء وعجز وفخر مع ما فيه من الصفات الذميمة، وكل أصحابه ووزرائه شبيه به إلاَّ الوزير الذي كان يشير عليه بقتلي

[٤٦] لبثك: إقامتك.

[٤٧] ظهراني: أي في وسطهم.

[٤٨] المؤاتاة: الملاينة والموافقة.

[٤٩] زنمة: لحمة تتدلى من عنق العنز.

[٥٠] الضرع: لذات الظلف، كالثدي للمرأة، والخلف للناقة.

[٥١] أشر: نزق واختيال.

فإنه كان حكيمًا أريبًا فيلسوفًا حازمًا قلَّما يُرَى مثله في علو الهمة وكمال العقل وجودة الرأي.

قال الملك: وأي خصلة كانت أدلُّ على عقله. قال: خلَّتان إحداهما رأيه في قتلي، والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحته وإن استقلَّها، ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ولا يصرِّح بحقيقة الحال بل يضرب له الأمثال ويحدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلاً، وكان مما سمعته يقول لملكه أنه قال: لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره فإنه أمر جسيم لا يظفر به من الناس إلاَّ قليل ولا يدرك إلاَّ بالحزم، فإن المُلْكَ عزيز فمَنْ ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، فإنه قد قيل إنه في قلَّة بقائه بمنزلة قلَّة بقاء الظلِّ عن ورق النيلوفر. وهو في خفة زواله وسرعة إقباله وإدباره كالرِّيح، وفي قلة ثباته كاللبيب[٥٢] مع اللئام، وفي سرعة اضمحلاله كحباب الماء من وقع المطر.

فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي أن يغترَّ بهم وإن هم أظهروا تودُّدًا وتضرُّعًا.

[٥٢] اللبيب: العاقل.

الفصل الثامن

باب القرد والغيلم[1]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها، ومَنْ ظفر بالحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم: قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أن قردًا كان ملك القردة يقال له ماهر، وكان قد كبر وهرم، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلَّب عليه وأخذ مكانه؛ فخرج هاربًا على وجهه حتى انتهى إلى الساحل، فوجد شجرة من شجرة التين، فارتقى إليها وجعلها مقامه، فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين إذا سقطت من يده تينة في الماء فسمع لها صوتًا وإيقاعًا؛ فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك، فأكثر من تطريح التين في الماء وثمَّ[2] غيلم كلَّما وقعت تينة أكلها، فلمَّا كثر ذلك ظنَّ أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله؛ فرغب في مصادقته وأنس إليه وكلَّمه، وألف كل واحد منهما صاحبه.

وطالت غيبة الغيلم عن زوجته؛ فجزعت عليه وشكت ذلك إلى جارة لها وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله، فقالت لها: إن زوجك في الساحل قد ألف قردًا وألفه القرد فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتى تحتالي لهلاك القرد. قالت: وكيف أصنع؟ قالت جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي فإذا سألك عن حالك فقولي إن الأطباء وصفوا لي قلب قردٍ.

[1] الغيلم: ذكر السلحفاة.

[2] ثمَّ: هناك.

ثم إن الغيلم انطلق بعد مدَّة إلى منزله فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة. فقال لها: ما لي أراك هكذا؟ فأجابته جارتها وقالت: إن زوجتك مريضة مسكينة، وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه. قال الغيلم: هذا أمر عسير، من أين لنا قلب قرد، ونحن في الماء؟ وبقي متحيرًا. ثم قال في نفسه: ما لي قدرة على ذلك إلاَّ أن أغدر بخليلي وصاحبي. وإثمه عندي شديد، وأشدُّ من ذلك هلاك زوجتي؛ لأن الزوجة الصالحة لا يعدلها شيء لأنها عون على أمر الدُّنيا والآخرة.

ثم عاد إلى الساحل حزينًا كئيبًا مفكرًا في نفسه كيف يصنع. فقال له القرد: يا أخي ما حبسك عني؟ قال له الغيلم: ما حبسني عنك إلاَّ حيائي فلم أعرف كيف أكافئك على إحسانك إليَّ، وأريد أن تتم إحسانك إليَّ بزيارتك لي في منزلي، فإني ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة، فاركب ظهري لأسبح بك، فإن أفضل ما يلتمسه المرء من أخلائه أن يغشوا[٣] منزله وينالوا من طعامه وشرابه ويعرفهم أهله وولده وجيرانه، وأنت لم تطأ منزلي ولم تذق لي طعامًا ولا شرابًا؛ وذلك منقصة وعار عليَّ. قال له القرد: وما يريد المرء من خليله إلاَّ أن يبذل له ودَّه ويُصفِي له قلبه وما سوى ذلك ففضول.

قال الغيلم: نعم. غير أن الاجتماع على الطعام والشراب آكد للمودة والأنس؛ لأنا نرى الدواب إذا اعتلفت معًا ألف بعضها بعضًا، وكان يقال: لا ينبغي للعاقل أن يلحَّ على إخوانه في المسألة، فإن العجل إذا أكثر مصَّ ضرع أمه نطحته.

فرغب القرد في الذهاب معه فقال: حبًا وكرامة، ونزل فركب ظهر الغيلم فسبح به، حتى إذا تجاوز قليلاً عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه ووقف وقال في نفسه: كيف أغدر بخليلي لكلمة قالتها امرأة من الجاهلات؟ وما أدري لعل جارتي قد خدعتني وكذبت بما روت عن الأطباء. فإن الذَّهب يجرَّب بالنار، والرجال بالأخذ والعطاء، والدواب بالحمل والجري. ولا يقدر أحد أن يجرِّب مكر النساء ولا يقدر على كيدهنَّ وكثرة حيلهنَّ.

فقال له القرد: ما لي أراك مهتمًا؟ قال الغيلم: إنما همي لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض وذلك يمنعني من كثيرٍ مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك. قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مئونة التكلُّف.

[٣] يغشوا: يأتوا.

قال الغيلم: أجل. ومضى بالقرد ساعة ثمَّ توقَّف به ثانية؛ فساء ظنُّ القرد وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلاَّ لأمر. ولست آمنًا أن يكون قلبه قد تغيَّر لي وحال عن مودَّتي فأراد بي سوءًا. فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلُّبا من القلب. وقد يقال ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حالٍ. فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب، وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفُّظ منه، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته، فإن كان ما يظنُّ حقًا ظفر بالسلامة، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم ولم يَضُرَّه ذلك.

ثم قال للغيلم: ما يحبسك وما لي أراك مهتمًا كأنك تحدِّث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحبُّ لأن زوجتي مريضة. قال القرد: لا تغتم فإن الغمُّ لا يغني عنك شيئًا، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية، فإنه يقال: ليبذل ذوو المال مالهم في أربعة مواضع: في الصدقة، وفي وقت الحاجة، وعلى البنين، وعلى الأزواج ولا سيما إذا كنَّ صالحات. قال الغيلم: صدقت. وقد قالت الأطباء: إنه لا دواء لها إلاَّ قلب قرد.

فقال القرد في نفسه: واسوءتاه! لقد أدركني الحرص والشَّره على كبر سني حتى وقعت في شرٍّ ورطه، ولقد صدق الذي قال يعيش القانع الراضي مستريحًا مطمئنًا، وذو الحرص والشَّره يعيش ما عاش في تعب ونصب.[٤] وإني قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال للغيلم: وما منعك، أصلحك الله، أن تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي؟ فإن هذه سُنَّة[٥] فينا معاشر[٦] القردة إذا خرج أحدنا لزيارة صديق له خلَّف قلبه عند أهله أو في موضعه لننظر إذا نظرنا إلى حرم[٧] المزور وليس قلوبنا معنا. قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلَّفته في الشجرة، فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة حتى آتيك به.

[٤] نصب: إعياء.

[٥] سنة: طريقة.

[٦] معاشر: جماعات.

[٧] حرم: نساء.

ففرح الغيلم بذلك وقال: لقد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به، ثم رجع بالقرد إلى مكانه، فلمَّا قارب الساحل وثب عن ظهره فارتقى الشجرة، فلمَّا أبطأ على الغيلم ناداه: يا خليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني. فقال القرد: هيهات! أتظن أني كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان؟ قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟

مثل الأسد وابن آوى والحمار

قال القرد: زعموا أنه كان أسد في أجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فضلات طعامه. فأصاب الأسد جرب وضعف شديدً وجهد فلم يستطع الصيد.. فقال له ابن آوى: ما بالك يا سيد السباع قد تغيَّرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي قد جهدني وليس له دواء إلاَّ قلب حمار وأذناه.

قال ابن آوى: ما أيسر هذا! وقد عرفت بمكان كذا حمارًا مع قصَّار[8] يحمل عليه ثيابه وأنا آتيك به. ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلَّم عليه وقال له: ما لي أراك مهزولاً؟ قال: لسوء تدبير صاحبي، فإنه لا يزال يجيع بطني ويثقل ظهري، وما تجتمع هاتان الحالتان على جسم إلاَّ أنحلتاه وأسقمتاه. فقال له: كيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال: ما لي حيلة للهرب منه فلست أتوجَّه إلى جهة إلاَّ أضرَّ بي إنسان فكدني وأجاعني.

قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمرُّ به إنسان، خصيب المرعى فيه عانة[9] من الحمر ترعى آمنة مطمئنة. قال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها.

فانطلق به نحو الأسد، وتقدَّم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار.

فخرج إليه وأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلَّص الحمار منه فأفلت هلعًا على وجهه. فلمَّا رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار قال له: يا سيد السباع أعجزت إلى هذه الغاية؟ فقال له: إن جئتني به مرَّة أخرى فلن ينجو مني أبدًا.

فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له: ما الذي جرى عليك؟ إن أحد الحمر رآك غريبًا فخرج يتلقاك مرحبًا بك، ولو ثبت لآنسك ومضى بك إلى أصحابه.

---

[8] قصَّار: محوِّر الثياب أي مبيضها.

[9] عانة: قطيع من الحمير.

فلمَّا سمع الحمار ذلك ولم يكن رأى أسدًا قط صدَّق ما قاله ابن آوى وأخذ طريقه إلى الأسد. فسبقه ابن آوى إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له: استعد له فقد خدعته لك لا يدركنَّك الضعف في هذه النوبة. فإنه إن أفلت لن يعود معي أبدًا والفرص لا تصاب[١٠] في كل وقت.

فجاش جأش الأسد[١١] لتحريض ابن آوى له وخرج إلى موضع الحمار، فلمَّا بصر به عاجله بوثبة افترسه بها. ثم قال: قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلاَّ بعد الاغتسال والطهور. فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه وأترك ما سوى ذلك قوتًا لك.

فلمَّا ذهب الأسد ليغتسل عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطير[١٢] الأسد منه فلا يأكل منه شيئًا.

ثم إن الأسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يعقل به وأذنان يسمع بهما لم يرجع إليك بعدما أفلت ونجا من الهلكة!

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أني لست كذلك الحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان. ولكنك احتلت عليَّ وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك واستدركت فرط أمري. وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلاَّ العلم.

قال الغيلم: صدقت! إلاَّ أن الرجل الصالح يعترف بزلته، وإذا أذنب ذنبًا لم يستحي أن يؤدَّب لصدقه في قوله وفعله، وإن وقع في ورطة أمكنه التخلُّص منها بحيلته وعقله، كالرجل الذي يعثر على الأرض وعليها يعتمد في نهوضه.

فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

---

[١٠] لا تصاب: لا تدرك.

[١١] جأش الأسد: حميت نفسه.

[١٢] يتطير: يتشاءم.

الفصل التاسع

باب النَّاسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الرجل العجلان[١] في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب.

قال الفيلسوف: إنه مَنْ لم يكن في أمره متثبتًا لم يزل نادمًا ويصير أمره إلى ما صار إليه النَّاسك من قتل ابن عرس وقد كان له ودودًا. قال الملك وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكًا من النُسَّاك كان بأرض جرجان، وكانت له امرأة صالحة لها معه صحبة، فمكثا زمانًا لم يرزقا ولدًا، ثم حملت بعد الإياس، فسُرَّت المرأة وسُرَّ النَّاسك بذلك وحمد الله تعالى وسأله أن يكون الحمل ذكرًا، وقال لزوجته: أبشري فإني أرجو أن يكون غلامًا فيه لنا منافع وقرَّة عينٍ، أختار له أحسن الأسماء، وأحضر له جميع المؤدِّبين.

فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدري أيكون أم لا؟

ومَنْ فعل ذلك أصابه ما أصاب النَّاسك الذي أهرق على رأسه السمن والعسل. قال لها وكيف كان ذلك؟

مثل النَّاسك المخدوع

قالت: زعموا أن ناسكًا كان يجري عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل، وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرَّة فيعلِّقها في وتد في ناحية البيت حتى امتلأت.

---

[١] العجلان: المسرع.

فبينما النَّاسك ذات يوم مستلقٍ على ظهره والعكَّازة في يده والجرَّة معلَّقة فوق رأسه تفكَّر في غلاء السمن والعسل فقال: سأبيع ما في هذه الجرَّة بدينار وأشتري به عشر أعنز فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر مرَّة. ولا تلبث إلاَّ قليلاً حتى تصير معزًا كثيرًا إذا ولدت أولادها.

ثم حرَّر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمئة عنز. فقال: أنا أشتري بها مئة من البقر بكل أربع أعنز ثورًا أو بقرة، وأشتري أرضًا وبذرًا، وأستأجر أكرة[٢] وأزرع على الثيران وأنتفع بألبان الإناث ونتائجها. فلا تأتي عليَّ خمس سنين إلاَّ وقد أصبت من الزرع مالاً كثيرًا؛ فأبني بيتًا فاخرًا وأشتري إماءً[٣] وعبيدًا وأتزوَّج امرأة صالحة جميلة فتحمل ثم تأتي بغلام سري[٤] نجيب فاختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدَّبته وأحسنت تأديبه، وأشدد عليه في ذلك، فإن قبل مني وإلاَّ ضربته بهذه العكَّازة. وأشار بيده إلى الجرَّة فكسرها فسال ما فيها على وجهه.

وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره وما لا تدري أيصحُّ أم لا يصحُّ. ولكن ادعُ ربَّك وتوسَّل إليه وتوكَّل عليه. فإن التصاوير في الحائط إنما هي ما دام بناؤه قائمًا فإذا وقع وتهدَّم لم يُقدَر عليها، فاتَّعظ النَّاسك بما حكت زوجته.

ثم إن المرأة ولدت غلامًا جميلاً؛ ففرح به أبوه، وبعد أيام حان لها أن تغتسل، فقالت المرأة للنَّاسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل وأعود.

ثم إنها انطلقت إلى الحمام وخلَّفت زوجها والغلام. فلم يلبث أن جاء رسول الملك يستدعيه ولم يجد مَنْ يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن عنده كان قد ربَّاه صغيرًا فهو عنده عديل[٥] ولده، فتركه النَّاسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت وذهب مع الرسول؛ فخرج من بعض أحجار البيت حيَّة سوداء فدنت من الغلام؛ فضربها ابن عرس فوثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها.

[٢] أكرة: حرَّاثين.

[٣] إماء: جواري.

[٤] سري: صاحب مروءة في شرف.

[٥] عديل: مثل.

ثم جاء النَّاسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس كالمشير له بما صنع من قتل الحيَّة، فلمَّا رآه ملوثًا بالدم وهو مذعور طار عقله وظنَّ أنه قد خنق ولده، ولم يتثبَّت[٦] في أمره ولم يترَوَ فيه حتى يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما ظنَّ من ذلك ولكن عجَّل على ابن عرس وضربه بعكَّازة كانت في يده على أمِّ رأسه فمات، ودخل النَّاسك فرأى الغلام سليمًا حيًا وعنده أسود مقطع. فلما عرف القصة وتبيَّن له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه وقال: ليتني لم أرزق هذا الولد ولم أغدر هذا الغدر!.

ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال فقالت له: ما شأنك؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له. فقالت: هذه ثمرة العجلة؛ لأن الأمر إذا فرط مثل الكلام إذا خرج، والسهم إذا مرق لا مردَّ له. فهذا مثل مَنْ لا يتثبَّت في أمره بل يفعل أغراضه بالسرعة.

[٦] يتثبَّت: يتأنى.

الفصل العاشر

باب الجرذ والسنور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل رجلٍ كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة[1] بعض أعدائه ومصالحته؛ فسلم من الخوف وأمن. ثم وفى لمَنْ صالحه منهم، وأخبرني عن موضع الصلح وكيف ينبغي أن يكون.

قال الفيلسوف: إن المودَّة والعداوة لا تثبتان على حالة أبدًا، وربما حالت المودَّة إلى العداوة وصارت العداوة ولاية[2] وصداقة؛ ولهذا حوادث وعلل وتجارب، وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأيًا جديدًا. أمَّا من قبل العدوِّ فبالبأس وأمَّا من قبل الصديق فبالاستئناس، ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوِّه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مرهوب أو جرِّ مرغوب، ومَنْ عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته، ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا في الورطة فنجوا باصطلاحها جميعًا من الورطة والشدَّة. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أن شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له رومي، وكان قريبًا منه جحر جرذ يقال له فريدون، وكان الصيادون كثيرًا ما يتداولون ذلك المكان يصيدون فيه الوحش والطير، فأتى ذات يوم صياد فنصب حبالته قريبًا من موضع رومي فلم يلبث أن وقع فيها؛ فخرج الجرذ يدبُّ ويطلب ما يأكل وهو حذر من رومي فبينما هو يسعى إذ بصر به في الشَّرك فسُرَّ واستبشر، ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس

[1] موالاة: مصادقة.

[2] ولاية: نصرة ومحبة.

يريد أخذه، وفي الشجرة بومًا يريد اختطافه؛ فتحيَّر في أمره وخاف، إن رجع وراءه أخذه ابن عرس، وإن ذهب يمينًا أو شمالاً اختطفه البوم، وإن تقدَّم أمامه افترسه السنُّور.

فقال في نفسه: هذا بلاء قد اكتنفني وشرور تظاهرت[٣] عليَّ، ومحن قد أحاطت بي، وبعد ذلك فمعي عقلي فلا يفزعني أمري ولا يهولني شأني ولا يلحقني الدَّهش ولا يذهب قلبي شعاعًا؛[٤] فالعاقل لا يفرق عند سداد رأيه ولا يعزب[٥] عنه ذهنه على حال، وإنما العقل شبيه بالبحر الذي لا يدرك غوره، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهوده فيهلكه، وتحقُّق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغًا يبطره ويسكره فيُعمِي[٦] عليه أمره، ولست أرى لي من هذا البلاء مخلِّصًا إلاَّ مصالحة السنور، فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي أو بعضه، ولعلنا إن سمع كلامي الذي أكلمه به ووعى[٧] عني صحيح خطابي ومحض صدقي الذي لا خلاف فيه ولا خداع معه ففهمه وطمع في معونتي إياه نخلص جميعًا.

ثمَّ إنَّ الجرذ دنا من السنور فقال له: كيف حالك؟ قال له السنور: كما تحبُّ في ضنك[٨] وضيق، قال: وأنا اليوم شريكك في البلاء، ولست أرجو لنفسي خلاصًا إلاَّ بالذي أرجو لك فيه الخلاص، وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة، وابن عرس ها هو كامن لي، واليوم يرصدني، وكلاهما لي ولك عدوٌّ، وإني وإياك وإن كنا مختلفي الطباع لكننا متفقا الحالة.

والذين حالتهم واحدة وطباعهم مختلفة تجمعهم الحالة وإن فرَّقتهم الطباع، فإن أنت جعلت لي الأمان قطعت حبائلك وخلَّصتك من هذه الورطة، فإن كان ذلك تخلَّص كل واحد منا بسبب صاحبه، كالسفينة والرُّكاب في البحر فبالسفينة ينجون وبهم تنجو السفينة.

---

[٣] تظاهرت: تعاونت.

[٤] شعاعًا: متبدِّدًا من الخوف.

[٥] يعزب: أي لا يغيب.

[٦] يعمى عليه: يلتبس.

[٧] وعى: حفظ.

[٨] ضنك: ضعف.

فلمَّا سمع السنور كلام الجرذ وعرف أنه صادق قال له: إن قولك هذا لشبيه بالحق، وأنا أيضًا راغب فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص، ثم إني إن فعلت ذلك سأشكرك ما بقيت.

قال الجرذ: فإني سأدنو منك فأقطع الحبائل كلها إلاَّ حبلاً واحدًا أبقيه لأستوثق لنفسي منك، وأخذ في تقريض حبائله، ثم إن البوم وابن عرس لَمَّا رأيا دنوَّ الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا.

ثم إن الجرذ أبطأ على رومي في قطع الحبائل فقال له: ما لي لا أراك جادًا في قطع حبائلي؟ فإن كنت قد ظفرت بحاجتك فتغيَّرت عما كنت عليه وتوانيت في حاجتي فما ذلك من فعل الصالحين؛ فإن الكريم لا يتوانى في حق صاحبه، وقد كان لك في سابق مودَّتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت، وأنت حقيق أن تكافئني بذلك ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك، فالذي بيني وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك مع ما في الوفاء من الفضل والأجر وما في الغدر من سوء العاقبة، فإن الكريم لا يكون إلاَّ شكورًا غير حقود تنسيه الخلَّة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة، وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر، ومَنْ إذا تُضُرِّع إليه وسُئِلَ العفو فلم يرحم ولم يعف فقد غدر.

قال الجرذ: إن الصديق صديقان، طائع ومضطر، وكلاهما يلتمسان المنفعة ويحترسان من المضرَّة، فأمَّا الطائع فيسترسل إليه ويؤمن في جميع الأحوال، وأمَّا المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل إليه وفي بعضها يُتحذَّر منه. ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته لبعض ما يتقي ويخاف، وليس غاية التواصل من كل من المتواصلين إلاَّ طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله، وأنا وافٍ لك بما وعدتك ومحترس منك مع ذلك من حيث أخافك تخوُّف أن يصيبني منك ما ألجأني خوفه إلى مصالحتك وألجأك إلى قبول ذلك مني؛ فإن لكل عمل حينًا، فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته، وأنا قاطع حبائلك كلها، غير أني تارك عقدة أرتهنك بها ولا أقطعها إلاَّ في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول وذلك عند معاينتي الصياد.

ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور، فبينما هو كذلك إذ وافى الصياد. فقال السنور: الآن جاء وقت الجدِّ في قطع حبائلي؛ فجهد الجرذ نفسه في القرض، حتى إذا فرغ وثب السنور إلى الشجرة على دهش من الصياد، ودخل الجرذ بعض الأجحار، وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطَّعة ثمَّ انصرف خائبًا.

ثمَّ إنَّ الجرذ خرج بعد ذلك وكره أن يدنو من السنور، فناداه السنور: أيها الصديق الناصح ذو البلاء[٩] الحسن عندي، ما منعك من الدنو إليَّ لأجازيك بأحسن ما أسديت إليَّ؟ هلمَّ إليَّ ولا تقطع إخائي، فإنه مَنْ اتخذ صديقًا وقطع إخاءه وأضاع صداقته حُرِمَ ثمرة إخائه وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء، وإن يدك عندي لا تنسى.

وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني وأصدقائي ولا تخاف مني شيئًا، واعلم أن ما قبلي لك مبذول، ثم حلف واجتهد على صديقه فيما قال.

فناداه الجرذ: رُبَّ صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة وهي أشدُّ من العداوة الظاهرة، ومَنْ لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل الهائج ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن[١٠] الفيل فيدوسه ويقتله، وإنما سُمِّي الصديق صديقًا لما يُرجى من صدقه ونفعه، وسُمِّي العدوُّ عدوًا لما يُخافُ من اعتدائه وضرره، والعاقل إذا رجا نفع العدوِّ أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضرَّ الصديق أظهر له العداوة. ألا ترى تتبع البهائم أماتها رجاء ألبانها فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها؟ وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله منه فلم يخف شرُّه لأن أصل أمره لم يكن عداوة، فأمَّا مَنْ كان أصل أمره عداوة جوهرية ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك فإنه إذا زالت الحاجة التي حملته على ذلك زالت صداقته فتحوَّلت وصارت إلى أصل أمره، كالماء الذي يسخن بالنار فإذا رفع عنها عاد باردًا، وليس من أعدائي عدوٌّ أضرُّ لي منك، وقد اضطرني وإياك حاجة إلى ما أحدثنا من المصالحة، وقد ذهب الأمر الذي احتجت إليَّ واحتجت إليك فيه، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة.

ولا خير للضعيف في قرب العدوِّ القوي، ولا للذليل في قرب العدوِّ العزيز، ولا أعلم لك قبلي حاجة إلاَّ أن تكون تريد أكلي، ولا أعلم لي قبلك حاجة وليس عندي بك ثقة؛ فإني قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي إذا اغترَّ بالضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصالح عدوَّه إذا اضطر إليه ويصانعه[١١] ويظهر له ودَّه ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدًا، ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلاً.

---

[٩] البلاء: الصنيع.

[١٠] فراسن: جمع فرسن؛ وهو للفيل كالقدم للإنسان.

[١١] يصانعه: يداريه ويداهنه.

واعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته، والعاقل يفي لِمَنْ صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه ولا يثق به كل الثقة ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه، وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع، وأنا أودُّك من بعيد وأحبُّ لك من البقاء والسلامة ما لم أكن أحبُّه لك من قبل، وليس عليك أن تجازيني على صنيعي إلاَّ بمثل ذلك إذ لا سبيل إلى اجتماعنا، والسلام.

الفصل الحادي عشر

باب الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل أهل الترات[1] الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض.

قال بيدبا: زعموا أن ملكًا من ملوك الهند كان يقال له بريدون، وكان له طائر يقال له فنزة، وكان له فرخ، وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجبًا؛ فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته وأمرها بالمحافظة عليهما، واتفق أن امرأة الملك كانت حاملاً فولدت غلامًا؛ فألف الفرخ الغلام وكلاهما طفلان يلعبان جميعًا.

وكان فنزة يذهب كل يوم إلى الجبل فيأتي بفاكهة لا تُعرَفُ فيطعم ابن الملك شطرها ويطعم فرخه شطرها؛ فأسرع ذلك في نشأتهما وشبابهما وبان عليهما أثره عند الملك؛ فازداد لفنزة إكرامًا وعظيمًا ومحبة.

حتى إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة وفرخه في حجر[2] الغلام حدث من الفرخ ما أغضب الغلام فأخذه فضرب به الأرض فمات، ثمَّ إنَّ فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال: قبحًا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء! ويل لَمَنْ اُبتُلِي بصحبة الملوك الذين لا ذمَّة لهم ولا حرمة ولا يحبون أحدًا ولا يكرم عليهم إلاَّ إذا طمعوا فيما عنده من غناء واحتاجوا إلى ما عنده من علم فيكرمونه لذلك، فإذا ظفروا بحاجتهم منه فلا ودَّ ولا إخاء ولا إحسان ولا غفران ذنب ولا معرفة حق، هم الذين أمرهم مبنيٌّ على الرياء والفجور، وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب

[1] الترات: جمع ترة وهي الثأر.

[2] حجر: حضن.

ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم، ومنهم هذا الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بإلفه وأخيه.

ثم وثب في شدَّة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينيه. ثمَّ طار فوقف على شجرة عالية.

وبلغ الملك ذلك فجزع أشدَّ الجزع، ثم طمع أن يحتال له فيهلكه. فركب من ساعته وتوجَّه إلى ناحية الطائر حتى وقف قريبًا منه وناداه وقال له: إنك آمن فانزل يا فنزة. فقال له: أيها الملك إن الغادر مأخوذ بغدره، وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه الآجل حتى إنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب وإن ابنك غدر بابني فعجَّلت له العقوبة.

قال الملك: لعمري قد غدر ابني بابنك وقد تناصفنا جميعًا فليس لك قبلنا وليس لنا قبلك وتر مطلوب؛ فارجع إلينا آمنًا ولا تخف.

قال فنزة: لست براجع إليك أبدًا. فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور[٣] فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمته إياك إلاَّ وحشة منه وسوء ظن به، فإنك لا تجد للحقود الموتور أمانًا هو أوثق لك من الذعر منه ولا أجود من البعد عنه، والاتقاء له أولى، وقد كان يقال: إن العاقل يعدُّ أبويه أصدقاء، والإخوة رفقاء، والأزواج ألفاء، والبنين ذكرًا والبنات خصماء، والأقارب غرباء، ويعدُّ نفسه فريدًا وحيدًا، وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد[٤] قد تزوَّدت من عندكم عبئًا ثقيلاً لا يحمله معي أحد، وأنا ذاهب فعليك مني السلام.

قال له الملك: إنك لم تكن قد اجتزيت منا فيما صنعناه بك، أو كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر، كان الأمر كما ذكرت، وأمَّا إذا كنا نحن قد بدأناك فما ذنبك وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلمَّ فارجع فإنك آمن.

قال فنزة: أعلم أن الأحقاد لها في القلوب مواضع ممكَّنة موجعة، فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة على اللسان من اللسان على القلب، وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك بصدقه ولا قلبك للساني.

قال الملك: ألا تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس، فمَنْ كان ذا عقل كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته؟

---

[٣] الموتور: مَنْ قُتِلَ له قتيل فلم يدرك دمه.

[٤] الطريد: المنفي والهارب.

قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت، ولكن لا ينبغي لذي الرأي مع ذلك أن يظنَّ أن الموتور الحقود ناسٍ ما وُتِرَ[٥] به أو مصروف عنه، وذو الرأي يتخوَّف المكر والخديعة والحيل، ويعلم أن كثيرًا من العدوِّ لا يستطاع بالشدَّة والمكابرة حتى يصاد بالرفق والملاينة كما يصطاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن.

قال الملك: إن العاقل الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ[٦] وإن هو خاف على نفسه. حتى إن هذا الخلق يكون في أوضح الدواب منزلة، فقد علمت أن اللَّعابين يلعبون بالكلاب ثم يذبحونها ويأكلونها، ويرى الكلب الذي قد ألفهم ذلك فيمنعه من مفارقتهم ألفته إياهم.

قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيث كانت، وأخوفها وأشدُّها ما كان في أنفس الملوك؛ فإن الملوك يدينون بالانتقام ويرون الدرك[٧] والطلب بالوتر مكرمة وفخرًا، وإن العاقل لا يغترُّ[٨] بسكون الحقد إذا سكن، فإنما مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محرِّكًا مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطبًا، فليس ينفك الحقد مطَّلعًا إلى العلل كما تبتغي النار الحطب. فإذا وجد علَّة استعر[٩] استعار النار فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرُّع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح، مع أنه رُبَّ واتر يطمع في مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه، ولكني أنا أضعف من أن أقدر على شيء يذهب به ما في نفسك، وبعد فلو كانت نفسك لي على ما تقول ما كان ذلك عني مغنيًا أيضًا ولا أزال في خوف ووحشة وسوء ظنٍّ ما اصطحبنا[١٠] فليس الرأي بيني وبينك إلاَّ الفراق، وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضرًا ولا نفعًا، وأنه لا شيء من الأشياء صغيرًا ولا كبيرًا يصيب أحدًا إلاَّ بقضاء وقدر معلوم، وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى ليس للخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى، وهلاك ما يهلك وليس

[٥] وُتِرَ: أصيب.

[٦] الحفاظ: المراعاة.

[٧] الدرك: اللحاق.

[٨] لا يغترُّ: لا ينخدع.

[٩] استعر: اتَّقد واشتعل.

[١٠] ما اصطحبنا: أي مدَّة اصطحابنا.

لك في الذي فعلت بابني ذنب ولا لابني فيما صنع بابنك ذنب، إنما كان ذلك كله قدرًا مقدورًا، وكلانا له علة وسبب فلا نؤاخذ بما أتانا به القدر.

قال فنزة: إن القدر لكما ذكرت، لكن لا يمنع الحازم من توقِّي المخاوف والاحتراس من المكاره، وإلاَّ كان المريض غير مصيب في طلبه الطبيب، وكان أهل المصائب يتركون النظر فيما فيه الفرج لهم، ولا ينفع الحذر والاحتراس مع القضاء لكن العاقل يجمع مع التصديق بالقدر الأخذ بالحزم والقوَّة لعل ما يستسلم إليه لا يكون مقدورًا عليه، وأنا أعلم أنك تكلمني بغير ما في نفسك، والأمر بيني وبينك غير صغير؛ لأن ابنك قتل ابني وأنا فقأت عيني ابنك، وأنت تريد أن تشتفي بقتلي وتختلني[١١] عن نفسي والنفس تأبى الموت، وقد كان يقال: الفاقة بلاء، والحزن بلاء، وقرب العدوِّ بلاء، وفراق الأحبة بلاء، والسقم بلاء، والهرم بلاء، ورأس البلايا كلُّها الموت، وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به. فأنا مما في نفسي عالم بما في نفسك للمثل الذي عندي من ذلك، ولا خير لي في صحبتك؛ فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك ولن أتذكر صنيع ابنك بابني إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييرًا.

قال الملك: لا خير في مَنْ لا يستطيع الإعراض عما في نفسه ولا ينساه ويهمله بحيث لا يذكر منه شيئًا ولا يكون له في نفسه موقع.

قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة[١٢] إن هو حرص على المشي لا بد أن تُنْكَأ[١٣] قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح تعرَّض لأن تزداد رمدًا، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور فقد عرَّض نفسه للهلاك.

ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلاَّ توقِّي المهالك والمتالف وتقدير الأمور وقلة الاتِّكال على الحمول والقوَّة، وقلة الاغترار بمَنْ لا يأمن؛ فإنه مَنْ اتَّكل على قوته فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه، ومَنْ لا يقدر لطاقته طعامه وشرابه وحمَّل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه، ومَنْ لم يقدر لقمته وعظمها فوق ما يسع فوه فربما غصَّ بها فمات، ومَنْ اغترَّ بكلام عدوِّه وانخدع له وضيَّع الحزم فهو

[١١] تختلني: تخدعني

[١٢] قرحة: جراحة متقادمة.

[١٣] تُنْكَأ: تقشر.

أعدى لنفسه من عدوِّه، وليس لأحد النظر في القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوَّة ومحاسبة نفسه في ذلك.

والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ولا يقيم على خوف يجد عنه مذهبًا، وأنا كثير المذاهب وأرجو أن لا أذهب وجهًا إلاَّ أصبت فيه ما يغنيني؛ فإن خلالاً خمسًا مَنْ تزوَّدهنَّ كفينه في كل وجه وآنسنه في كل غربة وقرَّبن له البعيد وأكسبنه المعاش والإخوان؛ أولاهن كفُّ الأذى، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الريب، والرابعة كرم الخلق، والخامسة النبل في العمل.

وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئًا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن، فإنه يرجو الخَلَفَ من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفًا. وشرُّ المال ما لا إنفاق منه. وشرُّ الأزواج التي لا تؤاتي بعلها، وشرُّ الولد العاصي العاق لوالديه، وشرُّ الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد والذي يحصي السيئات ويترك الحسنات، وشرُّ الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشرُّ البلاد بلاد لا خصب فيها ولا أمن، وإنه لا أمن لي عندك أيها الملك ولا طمأنينة لي في جوارك؛ ثم ودَّع الملك وطار.

فهذا مثل ذوي الأوتار[١٤] الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض.

---

[١٤] الأوتار: الثأرات.

الفصل الثاني عشر

باب الأسد وابن آوى النَّاسك

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الملك الذي يراجع مَنْ أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب.

قال الفيلسوف: إن الملك لو لم يراجع مَنْ أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب، ظُلِمَ أو لم يظلم، لأضر ذلك بالأمور، ولكن الملك حقيق أن ينظر في حال مَنْ اُبتُلِي بذلك ويخبر ما عنده من المنافع. فإن كان ممَنْ يوثق به في رأيه وأمانته فإن الملك حقيق بالحرص على مراجعته. فإن المُلْكَ لا يُستَطاعُ ضبطه إلاَّ مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلاَّ بالمودَّة والنصيحة، ولا مودَّة ولا نصيحة إلاَّ لذوي الرأي والعفاف.

وأعمال السلطان كثيرة، والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون، ومَنْ يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل، فيجب عليه أن يخبر وزراءه وذوي رأيه ويرى ما عند كل واحد منهم من الرأي والتدبير وما ينطوي عليه. فإذا استقرَّ ذلك عنده جعل لكل واحد منهم ما يصلح أن يفكر فيه ويدبره، وأن لا يوجِّه إلى الأعمال إلاَّ مَنْ يثق بدينه وأمانته وعفَّته، ثم عليه بعد ذلك إنفاذ مَنْ يثق به للكشف عن أعمالهم وتفقُّد أمورهم بالسرِّ الخفي حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء فإن لم يفعل ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفي عُرضِ[1] ذلك تهلك الرعية ويفسد الملك، والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى النَّاسك. وقال الملك. وكيف كان ذلك؟

[1] عرض: جانب.

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوى كان يسكن في بعض الدِّحال[٢] وكان متزهدًا متعففًا مع بنات آوى وذئاب وثعالب، ولم يكن يصنع ما يصنعن ولا يغير كما يغرن ولا يهريق دمًا ولا يأكل لحمًا ولا يظلم طرفة عين؛ فخاصمته تلك السباع وقلن: نحن لا نرى سيرتك ولا رأيك الذي أنت عليه من تزهُّدك مع أن تزهُّدك لا يغني عنك شيئًا، وأنت لا تستطيع أن تكون إلاَّ كأحدنا تسعى معنا وتفعل فعلنا، وأي شيء يشبه كفَّك عن الدماء وعن أكل اللحم؟

قال ابن آوى: إن صحبتي إياكنَّ لا تؤثمني إذا لم أؤثم نفسي؛ لأن الآثام ليست من قِبَل الأماكن والأصحاب ولكنها من قِبَل القلوب والأعمال، ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحًا وصاحب المكان السيئ يكون عمله فيه سيئًا كان حينئذ مَنْ قتل النَّاسك في محرابه[٣] لم يأثم ومَنْ استحياه[٤] في معركة القتال أثم، وإني إنما صحبتكنَّ بنفسي ولم أصحبكنَّ بقلبي وأعمالي؛ لأني أعرف ثمرة الأعمال فلزمت حالي، وإنما صحبتكنَّ مودَّة مني لكنَّ، فإن كانت صحبتي تضركنَّ فالأماكن والمواضع كثيرة.

وثبت ابن آوى على حاله تلك واشتهر بالنسك والتزهُّد حتى بلغ ذلك أسدًا كان ملك تلك الناحية؛ فرغب فيه لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزُّهد والأمانة، فأرسل إليه يستدعيه، فلمَّا حضر كلمه وآنسه فوجده في جميع أموره على غرضه، ثم دعاه بعد أيام إلى صحبته وقال له: تعلم أن عمالي كثير وأعواني جمٌّ غفير وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين، وقد اختبرتك فوجدتك كذلك فازددت فيك رغبة، وأنا موليك من عملي جسيمًا ورافعك إلى منزلة شريفة وجاعلك من خاصتي.

قال ابن آوي: إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم ممَنْ لهم الخبرة بذلك، وهم أحرى أن لا يكرهوا على ذلك أحدًا؛ فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل، وإني لعمل السلطان كاره وليس لي به تجربة ولا بالسلطان رفق، وأنت ملك السباع وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير فيهم أهل نبل وقوَّة ولهم على العمل حرص وعندهم به وبالسلطان رفق، فإن استعملتهم أغنوا عنك[٥] واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك.

---

[٢] الدِّحال: جمع دحل وهو ثقب فمه ضيق وأسفله متسع.

[٣] محرابه: غرفته.

[٤] استحياه: استبقاه حيًا.

[٥] أغنوا عنك: نفعوك.

قال الأسد: دع عنك هذا فإني غير معفيك من العمل.

قال ابن آوي: إنما يقدم على خدمة السلطان غير هائب رجلان لست بواحد منهما: إمَّا مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته، وإمَّا هين لا يحسده أحد، وأمَّا مَنْ أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف غير خالط ذلك بمصانعته فقلَّ أن يسلم على ذلك؛ لأنه يجتمع عليه عدوُّ السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، أمَّا الصديق فينافسه في منزلته ويبغي عليه ويعاديه لأجلها ويشي عليه كذبًا، فإذا لقيت الوشاية إذنًا واعية من الملك كان في ذلك هلاكه، وأمَّا عدوُّ السلطان فيضَّغن[٦] عليه لنصيحته لسلطانه وإغنائه عنه فيعمل على هلاكه ويتربص به ريب المنون؛ فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرَّض للهلاك.

قال الأسد: لا يكوننَّ بغي أصحابي عليك وحسدهم إياك وعداوة أعدائي لك مما يعرض في نفسك، فأنت معي وأنا أكفيك ذلك وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همَّتك.

قال ابن آوى: إن كان الملك يريد الإحسان إليَّ فليدعني في هذه البرية أعيش آمنًا قليل الهمِّ راضيًا بعيشي من الماء والعشب فإني قد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف في ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره في طول عمرهنَّ وأنه يتَّصل إليه النفع ساعة واحدة ثمَّ هو في الخوف سرمدًا، وإن قليلاً من العيش في أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعت مقالتك فلا تخف شيئًا مما أراك تخاف منه، ولست أجد بدًا من الاستعانة بك في أمري.

قال ابن آوى: أمَّا إذا أبى الملك إلاَّ ذلك فليجعل الملك لي عهدًا إن بغى عليَّ أحد من أصحابه ممَنْ هو فوقي مخافة على منزلته أو ممَنْ دوني لينازعني على منزلتي فذكر عند الملك منه ذاكر بلسانه أو على لسان غيره ما يريد به تحريش الملك عليَّ أن لا يعجل في أمري، وأن يتثبت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك ويفحص عنه ثم ليصنع ما بدا له، فإذا وثقت منه بذلك أعنته بنفسي فيما يحب إطاعة له وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد وحرصت على أن لا أجعل له على نفسي سبيلاً.

---

[٦] يضَّغن: يحقد.

قال الأسد: لك عليَّ ذلك وزيادة. ثمَّ ولَّاه خزائنه واختصَّ به دون أصحابه وزاد في كرامته.

فلمَّا رأى أصحاب الأسد ذلك غاظهم وساءهم، فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم على أن يحرِّشوا عليه الأسد.

وكان الأسد قد استطاب لحمًا فعزل منه مقدارًا وأمر ابن آوى بالاحتفاظ به وأن يرفعه في أحصن موضع طعامه وأحرزه[٧] ليعاد عليه؛ فأخذوه من موضعه وحملوه إلى بيت ابن آوى فخبئوه فيه ولا علم له به، ثمَّ حضروا يكذبونه إذا جرت في ذلك حال.

فلمَّا كان من الغد دعا الأسد بغدائه ففقد ذلك اللحم والتمسه فلم يجده، وابن آوى لم يشعر بما صُنِعَ في حقِّه من المكيدة وهو غائب في خدمة الأسد وأشغاله، فحضر الذين عملوا المكيدة وقعدوا في المجلس، ثمَّ إنَّ الملك سأل عن اللحم وشدَّد فيه وفي السؤال عنه فنظر بعضهم إلى بعض. فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا أن نخبر الملك بما يضرُّه وينفعه وإن شقَّ ذلك على مَنْ يشقُّ عليه. وإنه بلغني إن ابن آوى هو الذي ذهب باللحم إلى منزله ليأكله دون الملك.

قال الآخر: ما أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة.

فقال الآخر: لعمري ما تلبث السرائر[٨] أن تعرف، وأظنُّكم أن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم في بيت ابن آوى. وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحقُّ أن نصدقه.

قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقًا لم تكن بالخيانة فقط ولكن مع الخيانة كفر النعمة والجراءة على الملك.

قال الآخر: أنتم أهل العدل والفضل، ولا أستطيع أن أكذبكم ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته مَنْ يفتشه.

قال الآخر: إن كان الملك مفتشًا منزله فليعجل فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكانٍ.

ولم يزالوا في هذا الكلام وأشباهه حتى وقع في نفس الأسد ذلك فأمر بابن آوى فحضر، فقال له: أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟ قال: دفعته إلى صاحب الطعام ليقرِّبه إلى الملك.

---

[٧] أحرزه: أمنعه

[٨] السرائر: الخفايا.

فدعا الأسد بصاحب الطعام، وكان ممَنْ شايع وبايع مع القوم على ابن آوى، فقال: ما دفع إليَّ شيئًا؛ فأرسل الأسد أمينًا إلى بيت ابن آوى ليفتشه فوجد فيه ذلك اللحم فأتى به الأسد فدنا من الأسد ذئب لم يكن يتكلم في شيء من ذلك، وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون حتى يتبين لهم الحق. فقال: بعد أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى لا يعفون عنه، فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن ولا ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج وإن لم يحتفظ به. فقال بعض جلساء الملك: إني لعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا ولم يعرف خبَّه ومخادعته، وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه بعد الذي ظهر منه.

فأرسل الأسد بعضهم رسولاً إلى ابن آوى يلتمس منه العذر عن أمره، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اختلقها، فغضب الأسد من ذلك وأمر بابن آوي أن يُقتَلَ فعلمت أمُّ الأسد أنه قد عجل في أمره فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يرجئوه، ودخلت على ابنها فقالت: يا بني بأي ذنب أمرت بقتل ابن آوي؟ فأخبرها بالأمر. فقالت: يا بني عجلت وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبُّت والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة بسبب ضعف الرأي.

ومَنْ لم ينظر في أموره نظر مفكِّر كان نظره كنظر الذي يكون بعينيه سَبَلٌ[٩] فيُخيَّل له أن أمامهما كهيئة شعرة. وكان كالرجل الجاهل الذي يسمع صوت البعوضة في الليل فيظنَّها لشدَّة صوتها شيئًا فإذا وصلت إليه علم أنها ليست بشيء، وليس أحد أحوج إلى التوءدة والتثبُّت من الملوك؛ فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلِّم بالمعلم، والجند بالقائد، والنَّاسك بالدِّين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبُّت والأناة.[١٠] ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزالهم على طبقاتهم[١١] واتهامه بعضهم على بعض، فإنه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلاً لفعل.

وقد جرَّبت ابن آوي وبلوت رأيه وأمانته ومروءته ثمَّ لم تزل مادحًا راضيًا عنه، وقد اتَّهمته بشيء لا صحة له ولا عُلِمَ صدقه من كذبه، ولعل ذلك عمل أهل الكذب والحسد

---

[٩] سبل: شبه غشاوة تعرض في العين.

[١٠] الأناة: الحلم والرفق.

[١١] طبقاتهم: مراتبهم.

والخيانة من وزرائك؛ لأنَّ الملك إذا تهاون في أمر وزرائه وتغافل عنهم دخل عليه في ذلك ما تُكرَهُ عاقبته. والملك أخبر من طريق العقل أن الأشرار يحسدون الأخيار ويرقبونهم ليوقعوا بهم، وليس ينبغي للملك أن يخونه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له، ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلاَّ على العفَّة والنصيحة وما كان من رأي الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم.

وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوى، ولتعلم أنه لم يكن يتعرَّض للحم ولا يأكله فكيف للحم استودعته إياه! ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماء هم الذين ائتمروا بهذا الأمر وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه، فإن الحدأة إذا كان في رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم اجتمعت عليه الكلاب، وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع وكان محتملاً لكل ضرر في جنب منفعة تصل إليك، وكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يكن يطوي دونك سرًا.

فبينما أمُّ الأسد تقصُّ عليه هذه المقالة إذ دخل عليه بعض ثقاته فأخبره ببراءة ابن آوى. فقالت أمُّ الأسد: إن الملك بعد أن اطلع على براءة ابن آوى حقيق أن لا يتساهل مع مَنْ سعى به لئلا يتجرءوا على ما هو أعظم من ذلك، ولكن يعاقبهم عليه لكي لا يعودوا إلى مثله. ولا تحتقر ما فعلوا معك، فإن العشب وإن كان لا قوة له يُصْنَعُ منه الحبل الذي يوثق به الفيل. فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى الجريء على الغدر والزاهد في الخير والذي لا يوقن بالآخرة وينبغي أن يُجزَى بعمله.

وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة، ومَنْ سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير. والأولى لك أن تراجع ابن آوى وتعطف عليه ولا يوئسنَّك[١٢] من مناصحته ما فرط منك إليه الإساءة؛ فإن من الناس مَنْ لا ينبغي تركه على حال من الأحوال وهو مَنْ عُرِفَ بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبَّة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منهم المئونة. وأمَّا مَنْ ينبغي تركه فهو مَنْ عُرِفَ بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد عن الرحمة والورع واتَّصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها، وقد عرفت ابن آوى وجرَّبته وأنت حقيق بمواصلته.

[١٢] يوئسنَّك: يقطع أملك.

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيرًا وقال: إني معتذر إليك ورادك إلى منزلتك فقال ابن آوى: أوليس هذا الذي خفت منه في أوَّل اتصالي بك والذي لأجله امتنعت مما عرضته عليَّ من صحبتك وتولِّي خدمتك؟ وإن شرَّ الأخلاء مَنْ التمس منفعة بضرِّ أخيه، ومَنْ كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه، وكثيرًا ما يقع ذلك بين الأخلاء.

وقد كان من الملك إلى ما علم، ولا ينبغي للملك أن يطمئن إلى مَنْ عاقبه أشدَّ العقوبة من نزعه من عمله أو أخذ ماله بغير ذنب، أو مَنْ كان للكرامة أهلاً فلم يعرف له ذلك ولم يعطه ما هو أهله، أو كان مظلومًا ولم ينظر في أمره، أو كان من أهل الطمع فلم يصب ما يرجوه، أو كان بين قوم قد احترموا جريمة هو منها بريء فأخذ هو بها من بينهم وخُلِّي سبيلهم. فأمثال هؤلاء لا ينبغي للملك أن يصحبهم وأنا أيها الملك أحد هؤلاء، فلعل الملك يقول إن ابن آوى لا ينسى الذي لقيه من الهوان فيقتصُّ مني. وأنا يعلم الله أن ليس في قلبي شيء من قبل هذا وإنما خوفي أن يفعلوا بي ذلك مرة أخرى فلا يغلظن[١٣] على نفس الملك ما أخبره أني به غير واثق وأنه لا ينبغي لي أن أصحبه. وإن الملك لا ينبغي له أن يصحب من كان مثلي ولا ينبغي له أن يرفضه أصلاً. فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقًا للكرامة في حالة إبعاده والإقصاء له.

فلم يلتفت الأسد إلى كلامه ثمَّ قال له: إني قد بلوت طباعك وأخلاقك وجرَّبت أمانتك ووفاءك وعرفت كذب مَنْ مَحَل بك،[١٤] وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلَّة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة. وقد عدنا إلى الثقة بك فعد إلى الثقة بنا فإنه كائن لنا ولك بذلك غبطة وسرور.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الأسد الكرامة ولم تزده الأيام إلاَّ تقرُّبًا منه.

[١٣] لا يغلظنَّ: لا يصعبنَّ.

[١٤] محل بك: أي كادك بسعاية.

الفصل الثالث عشر

باب اللبؤة والإسوار والشعهر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في شأن مَنْ يدع ضرَّ غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضرر، ويكون له مما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره.

قال الفيلسوف: إنه لا يقدم على طلب ما يضرُّ بالناس وما يسوؤهم إلاَّ أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في العواقب من أمور الدُّنيا والآخرة وقلَّة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول، وإن سلم بعضهم من ضرر بعض باتفاق عرض له قبل أن ينزل به وبال ما صنع لم يسلم في كل مرَّة؛ فإن مَنْ لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب وكان حقيقًا أن يسلم من المعاطب، وربما اتَّعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرَّة من الغير فارتدع عن أن يغشى[1] أحدًا بمثل ذلك من الظلم والعدوان وحصل له نفع ما كَفَّ عنه من ضرره لغيره في العاقبة. ومثل ذلك حديث اللبؤة والإسوار والشعهر. قال الملك. وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كان في غيضة ولها شبلان وإنها خرجت في طلب الصيد وخلَّفتهما في كهفهما، فمر بهما إسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما وسلخ جلديهما فاحتقبهما[2] وانصرف بهما إلى منزله. ثمَّ إنها رجعت فلمَّا رأت ما حلَّ بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرًا لبطن وصاحت وضجَّت.

وكان إلى جنبها شعهر، فلمَّا سمع ذلك من صياحها قال لها: ما هذا الذي تصنعين وما نزل بك أخبريني به! قالت اللبؤة: شبلاي مرَّ بهما إسوار فقتلهما وسلخ جلديهما

[1] يغشى: يأتي.

[2] احتقبهما: أي شدَّهما في مؤخر رحل ركوبته.

فاحتقبهما ونبذهما[٣] في العراء. قال لها الشعهر: لا تضجِّي وأنصفي من نفسك، واعلمي أن الدُّنيا دار مكافأة، ففاعل الخير يحمده وفاعل الشرِّ يجني ثمره، وإن هذا الإسوار لم يأتِ إليك شيئًا إلاَّ وقد كنت تفعلين بغيرك مثله وتأتين مثل ذلك إلى غير واحد ممَنْ كان يجد[٤] بحميمه ومَنْ يعزُّ عليه مثل ما تجدين بشبليك فاصبري من غيرك على ما صبر غيرك عليه منك. فإنه قد قيل: كما تدين تُدان، وبكل عمل ثمرة من الثواب أو العقاب، وهما على قدره في الكثرة والقلَّة، كالزَّرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره.

قالت اللبؤة: بيِّن لي ما تقول وأفصح لي عن إشارته. قال الشعهر: كم لك من العمر؟ قالت اللبؤة: كذا وكذا سنة. قال الشعهر: ما كان قوتك فيه؟ قالت اللبؤة: لحم الوحش. قال الشعهر: ومَنْ كان يطعمك إياه؟ قالت اللبؤة: كنت أصيد الوحش وآكله. قال الشعهر: أرأيت الوحوش التي كنت تأكلين، أما كان لها آباء وأُمَّات؟ قالت: بلى. قال الشعهر: فما بالي لا أرى ولا أسمع لأولئك الآباء والأُمَّات من الجزع[٥] ما أرى وأسمع لك؟ أما أنه لم ينزل بك ما نزل إلاَّ لسوء نظرك في العواقب وقلَّة تفكُّرك فيها وجهالتك بما يرجع عليك من ضرِّها.

فلمَّا سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشعهر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها وأن عملها كان جورًا وظلمًا؛ فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى أكل الثمار والنسك والعبادة. فلمَّا رأى ذلك ورشان[٦] وكان صاحب تلك الغيضة، وكان عيشه من الثمار قال لها: قد كنت أظنُّ أن الشجر عامنا هذا لم تحمل لقلَّة الماء. فلمَّا أبصرتك تأكلينها وأنت آكلة اللحم فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك وتحوَّلت إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه، علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم وإنما أتت قلَّه الثمر من جهتك، فويل للشجر وويل للثمار وويل لمَنْ عيشهم منها ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم وغلبهم عليهم مَنْ ليس له فيها حظ ولم يكن معتادًا لأكلها!

فلمَّا سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركتْ أكل الثمار وأقبلت على أكل العشب والعبادة.

---

[٣] نبذهما: طرحهما.

[٤] يجد: يحزن.

[٥] الجزع: عدم الصبر.

[٦] ورشان: طائر يقال له ساق حر وهو ذكر القماري؛ لأن حكاية صوته ساق حر أو الساق الحمام والحر فرخه يعني أنه فرخ الحمام.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضرٍّ يصيبه عن ضرِّ الناس كاللبؤة التي انصرفت لما لقيت في شبليها عن أكل اللحم ثمَّ عن أكل الثمار بقول الورشان وأقبلت على النسك والعبادة.

والناس أحقُّ بحسن النظر في ذلك فإنه قد قيل: ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك، فإن في ذلك العدل، وفي العدل رضا الله تعالى ورضا الناس.

الفصل الرابع عشر

باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه، ويثبِّت بها سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه[1]: الحلم أم المروءة أم الشجاعة أم الجود؟

قال بيدبا: إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم وبه تثبت السلطنة. والحلم رأس الأمور وملاكها وأجود ما كان في الملوك. كالذي زعموا أنه كان ملك يُدْعَى بلاذ وكان له وزير يُدْعَى إيلاذ وكان متعبدًا ناسكًا، وإن الملك نام ذات ليلة فرأى في منامة ثمانية أحلام أفزعته فاستيقظ مرعوبًا فدعا بالبراهمة وهم النُسَّاك ليعبِّروا رؤياه، فلمَّا حضروا بين يديه قصَّ عليهم ما رأى فقالوا بأجمعهم: لقد رأى الملك عجبًا. فإن أمهلنا سبعة أيام جئناه بتأويله.

قال الملك: قد أمهلتكم. فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا في منزل أحدهم وائتمروا بينهم وقالوا: قد وجدتم علمًا واسعًا تدركون به ثأركم وتنتقمون من عدوكم، وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثنى عشر ألفًا، وها هو قد أطلعنا على سرِّه وسألنا تفسير رؤياه، فهلموا نغلظ له القول ونخفه حتى يحمله الفرق والجزع على أن يفعل الذي نريد، ونأمره فنقول: ادفع إلينا أحباءك ومَنْ يكرم عليك حتى نقتلهم؛ فإنا قد نظرنا في كتبنا فلم نرَ أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما وقعت فيه من هذا الشرِّ إلاَّ بقتل مَنْ نُسمِّي لك.

فإن قال الملك: ومَنْ تريدون أن تقتلوا؟ سمُّوهم لي.. قلنا نريد الملكة إيراخت أم جوير المحمودة أكرم نسائك عليك، ونريد جوير أحبَّ بنيك إليك وأفضلَّهم عندك.

---

[1] ملاكه: قوامه.

ونريد كالا الكاتب صاحب سرِّك، وسيفك الذي لا يوجد مثله، والفيل الأبيض الذي لا تلحقه الخيل، والفرس الذي هو مركبك في القتال، ونريد الفيلين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر، ونريد البختي[٢] السريع القوي، ونريد كباريون الحكيم الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا.

ثم نقول له: إنما ينبغي لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك ثم تجعل دماءهم في حوض تملؤه ثم تقعد فيه. فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدُّهن الطيب، ثم تقوم إلى منزلك البهي فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوَّفه عليك، فإن صبرت أيها الملك وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا لك وجعلتهم فداك تخلَّصت من البلاء واستقام لك ملكك وسلطانك واستخلفت من بعدهم مَنْ أحببت، وإن أنت لم تفعل تخوَّفنا عليك أن يغضب ملكك أو تهلك، فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه شرَّ قتلة.

فلمَّا أجمعوا أمرهم على ما ائتمروا فيه رجعوا إليه في اليوم الثامن وقالوا له: أيها الملك إنا نظرنا في كتبنا تفسير ما رأيت وفحصنا عن الرأي فيما بيننا. فليكن لك أيها الملك الطاهر الصالح والكرامة. ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلاَّ أن تخلو بنا وتؤمننا.

فأخرج الملك مَنْ كان عنده وخلا بهم فحدَّثوه بالذي ائتمروا فيه: فقال لهم: الموت خير لي من الحياة إن أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي.

وأنا ميت لا محالة والحياة قصيرة ولست كل الدَّهر ملكًا، وإن الموت عندي وفراق الأحباب سواءٌ فضلاً عما أرتكبه من الإثم في قتلهم.

قال له البرهميون: إن أنت لم تغضب أخبرناك. فأذن لهم فقالوا: أيها الملك إنك لم تقل صوابًا حين تجعل نفس غيرك أعزَّ عندك من نفسك، فاحتفظ بنفسك وملكك هذا الذي فيه لك الرجاء العظيم على ثقة ويقين وقرَّ عينًا بملكك في وجوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم، ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثارًا[٣] لمَنْ تحبُّ.

[٢] البختي: واحد البخت وهي الإبل الخراسانية.

[٣] إيثارًا: تفضيلاً.

واعلم أيها الملك أن الإنسان إنما يحب الحياة محبةً لنفسه وأنه لا يحب مَنْ أحبَّ من الأحباب إلاَّ ليتمتع به في حياته، وإنما قوام نفسك بعد الله بملكك، وإنك لم تنل ملكك إلاَّ بالمشقة والعناء الكثير في الشهور والسنين وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك، فاستمع كلامنا وانظر لنفسك مناها ودع ما سواها فإنه لا خطر له.[٤]

فلمَّا رأى الملك أن البرهميين قد أغلظوا له في القول واجترءوا عليه في الكلام اشتدَّ غمُّه وحزنه وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى حجرته فخرَّ على وجهه يبكي ويتقلَّب كما تتقلَّب السمكة إذا خرجت من الماء، وجعل يقول في نفسه: ما أدري أي الأمرين أعظم في نفسي، الهلكة أم قتل أحبائي؟ ولن أنال الفرح ما عشت وليس ملكي بباقٍ عليَّ إلى الأبد ولست بالمصيب سؤلي في ملكي، وإني لزاهد في الحياة إذا لم أر إيراخت وجوير، وكيف أقدر على القيام بملكي إذا هلك وزيري إيلاذ، وكيف أضبط أمري إذا هلك فيلي الأبيض وفرسي الجواد، وكيف أُدعَى ملكًا وقد قتلت مَنْ أشار البراهمة بقتله وما أصنع بالدُّنيا بعدهم؟

ثم إن الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمه. فلمَّا رأى إيلاذ ما نال الملك من الهمِّ والحزن فكَّر في حكمته ونظر وقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذي قد ناله من غير أن يدعوني.

ثم انطلق إلى إيراخت فقال: إني منذ خدمت الملك إلى الآن لم يعمل عملاً إلاَّ بمشورتي ورأيي، وأراه يكتم عني أمرًا لا أعلم ما هو ولا أراه يظهر منه شيئًا، وإني رأيته خاليًا من جماعة البرهميين منذ ليالٍ وقد احتجب عنا فيها، وأنا خائف من أن يكون قد أطلعهم على شيء من أسراره فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضرُّه ويدخل عليه منه السوء.. فقومي وادخلي عليه فاسأليه عن أمره وشأنه وأخبريني بما هو عليه وأعلميني فإني لست أقدر على الدخول عليه، فلعل البرهميين قد زيَّنوا له أمرًا وحملوه على خطة قبيحة، وقد علمت أن من خلق الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحدًا وسواءُ عنده صغير الأمور وكبيرها.

فقالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه في هذه الحال. فقال لها إيلاذ: لا تحملي[٥] عليه الحقد في مثل هذا ولا يخطرنَّ ذلك على بالك،

---

[٤] لا خطر له: لا شرف له ولا علوَّ منزلة.

[٥] لا تحملي: لا تحفظي.

فليس يقدر على الدخول عليه أحدٌ سواك، وقد سمعته كثيرًا يقول: ما اشتدَّ غمي ودخلت عليَّ إيراخت إلاَّ سُرِّي ذلك عني. فقومي إليه واصفحي عنه وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذي يجده وأعلميني بما يكون جوابه فإن بذلك لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة.

فانطلقت إيراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه فقالت: ما الذي بك أيها الملك المحمود وما الذي سمعت من البراهمة؟ فإني أراك محزونًا. فأعلمني بما بك فقد ينبغي لنا أن نحزن معك ونؤاسيك بأنفسنا.

فقال الملك: أيتها المرأة لا تسأليني عن أمري فتزيديني غمًا وحزنًا؛ فإنه أمر لا ينبغي أن تسأليني عنه.

قالت: أو قد نزلت عندك منزلة مَنْ يستحق هذا؟ إنما أحمد الناس عقلاً مَنْ إذا نزلت به النازلات كان لنفسه أشدَّ ضبطًا، وأكثرهم استماعًا من أهل النصح حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة، فعظيم الذَّنب لا يقنط من الرحمة، ولا تدخلنَّ عليك شيئًا من الهمِّ والحزن فإنهما لا يردان شيئًا مقضيًا إلاَّ أنهما ينخلان الجسم ويشفيان العدوَّ، والصبر عند نزول المصيبة عبادة، وسوف تحمد أمرك إن أخبرتني.

قال لها الملك: لا تسأليني عن شيء فقد شققت[٦] والذي تسألينني عنه لا خير فيه؛ لأن عاقبته هلاكي وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتي ومَنْ هو عديل نفسي، وذاك أن البراهمة زعموا أنه لا بد من قتلك وقتل جوبر وكثير من أهل مودتي ولا خير في العيش بعدكم. وهل أحد يسمع بهذا إلاَّ اعتراه الحزن؟

فلمَّا سمعت ذلك إيراخت جزعت ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعًا، فقالت: أيها الملك لا تجزع فنحن لك الفداء ولك في سواي ومثلي ما تقرُّ به عينك، ولكني أطلب منك أيها الملك حاجة يحملني على طلبتها حبي لك وإيثاري وهي نصيحتي لك.

قال الملك: وما هي؟

قالت: أطلب منك أن لا تثق بعدها بأحد من البراهمة ولا تشاورهم في أمر حتى تتثبت في أمرك ثم تشاور فيه ثقاتك مرارًا؛ فإن القتل أمر عظيم ولست تقدر على أن تحيي مَنْ قتلت وقد قيل في الحديث: إذا لقيت جوهرًا لا خير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه مَنْ يعرفه.

---

[٦] شققت عليَّ: أوقعتني في المشقة.

وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك، واعلم أن البراهمة لا يحبُّونك وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفًا، ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك، ولعمري ما كنت جديرًا أن تخبرهم برؤياك ولا أن تطلعهم عليها، وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذي بينك وبينهم لعلهم يهلكونك ويهلكون أحباءك ووزيرك فيبلغوا قصدهم منك، وأظنك لو قبلت منهم فقتلت مَنْ أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك فيعود الملك إليهم كما كان؛ فإن الشجرة إذا أريد قلعها عُمِدَ أولا إلى أصولها وما تتثبت به في الأرض فقُطِعَت ثم قُلِعَت فهان قلعها فانطلق إلى كباريون الحكيم فهو فطن عالم فأخبره عما رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها.

فلمَّا سمع الملك ذلك سُرِّي عنه ما كان يجده من الغمِّ؛ فأمر بفرسه فأُسْرِجَ فركبه ثم انطلق إلى كباريون الحكيم. فلمَّا انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له وقام مطأطئًا الرأس بين يديه. فقال له الحكيم: ما بالك أيها الملك وما لي أراك متغير اللون؟

فقال له الملك: إني رأيت في المنام ثمانية أحلام قصصتها على البراهمة وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي، وأخشى أن يُغْصبَ مني مُلْكِي أو أن أُغلَبَ عليه.

فقال له الحكيم: إن شئت قصصت عليَّ أحلامك، وإن شئت قصصتها عليك وأخبرتك بما رأيت جميعه.

قال الملك: بل من فيك أحسن.

قال الحكيم: لا حزنك أيها الملك هذا الأمر ولا تخف منه. أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على ذنبيهما فإنه يأتيك رسول من ملك هيمون بعقدين مكللين بالدُّر والياقوت الأحمر قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك.

وأمَّا الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فإنه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك.

وأمَّا الحية التي رأيتها تدبُّ على رجلك اليسرى فإنه يأتيك من ملك صنجين مَنْ يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله.

وأمَّا الدم الذي رأيت كأنه خضب به جسدك فإنه يأتيك من ملك كازرون مَنْ يقوم بين يديك بلباس معجب يُسمَّى حلَّة أرجوان يضيء في الظلمة.

وأمَّا ما رأيت من غسلك جسمك بالماء فأنه يأتيك من ملك كيدور مَنْ يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل.

وأمَّا ما رأيت على رأسك شبيهًا بالنار فإنه يأتيك من ملك الأرزن مَنْ يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلَّل بالدُّر والياقوت.

وأمَّا الطائر الذي رأيته ضرب رأسك بمنقاره فلست مفسرًا ذلك اليوم وليس بضارك فلا توجلنَّ[7] منه ولكن فيه بعض السخط والإعراض عما تحبه.

فهذا تفسير رؤياك أيها الملك. وأمَّا هذه البُرُدُ[8] والرُّسل فإنها تأتيك بعد سبعة أيام جميعًا فتقوم بين يديك.

فلمَّا سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع إلى منزله.

فلمَّا كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرُّسل، فخرج الملك فجلس على السرير وإذن للأشراف وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم، فلمَّا رأى الملك ذلك اشتدَّ عجبه وفرحه من علم كباريون وقال: ما وُفِّقت حين قصصت رؤياي على البراهمة فأمروني بما أمروني به، ولولا أنَّ الله تعالى تداركني لهلكت وأهلكت، وكذلك لا ينبغي لأحد أن يسمع إلاَّ من الأخلاء ذوي العقول، وإن إيراخت أشارت بالخير فقبلته ورأيت به النجاح، فضعوا الهديَّة بين يديها لتأخذ منها ما اختارت. ثم قال لإيلاذ: خذ الإكليل والثياب واحملها واتبعني بها.

ودعا الملك إيراخت وحورقناه بين يديه فقال لإيلاذ: دعْ الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت؛ فوُضِعَت الهدايا بين يدي إيراخت فأخذت منها الإكليل وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها.

وإن إيراخت صنعت للملك بعد ذلك أرزًا بحلاوة فدخلت عليه بالصحفة والإكليل على رأسها، واتفق أن حورقناه لبست تلك الكسوة ومرَّت بين يدي الملك، فالتفت الملك إلى إيراخت فقال: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة التي ليس في خزائننا مثلها.

فلمَّا سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هي وذم رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغيظ فضربت بالصحفة رأس الملك فسال الأرز على وجهه، وكان ذلك تمام تعبير الرؤيا التي عبَّرها كباريون.

فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ وقال: ألا ترى وأنا ملك العالم كيف حقَّرتني هذه الجاهلة وفعلت بي ما ترى؟ فانطلق بها واقتلها ولا ترحمها.

---

[7] توجلنَّ: أي فلا تخافنَّ.

[8] البُرُدُ: جمع بريد وهي الخيل التي تأتي عليها الرسل.

فخرج إيلاذ من عند الملك وقال: لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب؛ فالمرأة عاقلة سديدة الرأي من الملكات التي ليس لها عديل في النساء وليس الملك بصابر عنها وقد خلصته من الموت وعملت صالحة ورجاؤنا فيها عظيم. ولست آمنه أن يقول لِمَ لَمْ تؤخر قتلها حتى تراجعني؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها ثانية. فإن رأيته نادمًا حزينًا على ما فعل جئت بها حيَّة وكنت قد عملت عملاً عظيمًا وأنجيت إيراخت من القتل وحفظت قلب الملك واتخذت عند عامة الناس بذلك يدًا، وإن رأيته فرحًا مستريحًا مصوبًا رأيه في الذي فعله فقتلها لا يفوت.

ثم انطلق بها إلى منزله ووكَّل بها خادمًا من أمنائه وأمره بخدمتها وحراستها حين ينظر ما يكون من أمر الملك، ثمَّ خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين فقال: أيها الملك إني قد أمضيت أمرك في إيراخت، فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب وذكر جمال إيراخت وفضلها واشتدَّ أسفه عليها وجعل يعزي نفسه عنها ويتجلَّد، وهو مع ذلك يستحيي أن يسال إيلاذ أحقًا أمضى أمره فيها أم لا. ورجا لما عرف من عقل إيلاذ أن لا يكون قد فعل ذلك.

ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذي به. فقال له: لا تهتم ولا تحزن أيها الملك فإنه ليس في الهمِّ والحزن منفعة ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه، فاصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبدًا، وإن أحبَّ الملك أن أحدِّثه بحديث يسليه. قال: حدثني.

مثل الحمامتين

قال إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكرًا وأنثى ملآ عشهما من الحنطة والشعير، فقال الذكر للأنثى: إنا إذا وجدنا في الصحاري ما نعيش به فلسنا نأكل مما ههنا شيئًا، فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحاري شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه؛ فرضيت الأنثى بذلك وقالت له: نعما رأيت. وكان ذلك الحب نديًا حين وضعاه في عشهما فانطلق الذكر فغاب.

فلمَّا جاء الصيف يبس الحب وتضمَّر، فلمَّا رجع الذكر رأى الحب ناقصًا فقال لها: أليس كنا جمعنا رأينا على أن لا نأكل منه شيئًا، فلِمَ أكلته؟ فجعلت تحلف إنها ما أكلت منه شيئًا وجعلت تتنصل[٩] إليه فلم يصدقها وجعل ينقرها حتى ماتت.

[٩] تتنصل: تتبرأ.

فلمَّا جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان، فلمَّا رأى الذكر ذلك ندم، ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال: ما ينفعني الحبُّ والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك ولم أقدر عليك، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك ولا أقدر على تدارك ما فات! ثمَّ استمرَّ على حزنه فلم يطعم طعامًا ولا شرابًا حتى مات إلى جانبها.

مثل الرجل وطبق العدس

والعاقل لا يعجل في العذب والعقوبة ولا سيما مَنْ يخاف الندامة كما ندم الحمام الذكر، وقد سمعت أيضًا أن رجلاً دخل الجبل وعلى رأسه طبق من العدس، فوضع الطبق على الأرض ليستريح فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد على الشجرة، فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها وانتشر ما كان في يده من العدس أجمع.

وأنت أيضًا أيها الملك عندك كثير ممَنْ تحب تدعهم وتطلب ما لا تجد.

فلمَّا سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت. فقال: إيها إيلاذ! من كلمة واحدة فعلت ما أمرتك به من ساعتك، وتعلَّقت بحرف واحد كان مني ولم تتثبَّت في الأمر.

فقال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف، هو الله الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله.

قال الملك: لقد أفسدت أمري وشدَّدت حزني بقتل إيراخت.

قال إيلاذ: اثنان ينبغي لهما أن يحزنا: الذي يعمل الإثم في كل يوم، والذي لا يعمل الخير قط؛ لأن فرحهما في الدُّنيا ونعيمها قليل وندامتهما إذا يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها.

قال الملك: لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبدًا.

قال إيلاذ: اثنان لا ينبغي لهما أن يجزنا: المجتهد في البرِّ كل يوم، والذي لم يأثم قط.

قال الملك: ما أنا بناظر إلى إيراخت أكثر مما نظرت.

قال إيلاذ: اثنان لا ينظران: الأعمى، والذي لا عقل له، وكما أن الأعمى لا ينظر السماء ونجومها ولا ينظر البعد والقرب، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح، ولا المحسن من المسيء.

قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي.

قال إيلاذ: اثنان هما الفرحان: البصير، والعالم. فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والبعيد والقريب، فكذلك العالم يبصر البرَّ والإثم ويعرف أعمال الآخرة ويتبين له نجاته ويُهدَى إلى صراط[١٠] مستقيم.

قال الملك: إني لم أشتف[١١] من النظر إلى إيراخت بعد.

قال إيلاذ: اثنان لا يشتفيان أبدًا: مَنْ يكون همُّه جمع المال وادخاره، ومَنْ يأمل ما لا يقدر عليه ويسأل ما لا يجد.

قال الملك: ينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء.[١٢]

قال إيلاذ: اثنان ينبغي أن يتباعد منهما: الذي يقول لا برَّ ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء عليَّ مما أنا فيه، والذي لا يكاد يصرف بصره عما ليس له بمحلل ولا أذنه عن استماع السوء، ولا نفسه عن خاصة غيره، ولا قلبه عما تهمُّ به نفسه من الإثم والحرص.

قال الملك: صارت يدي من إيراخت صفرًا.

قال إيلاذ: أربعة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، والجاهل الذي لا يعرف الخير من الشرِّ.

قال الملك: إنك يا إيلاذ لتُلقَّى الجواب.[١٣]

قال إيلاذ: ثلاثة يُلقُّون الجواب: الملك الذي يعطي ويقسم من خزائنه، والمرأة المهداة إلى مَنْ تودُّ من ذوي الحسب، والرجل العالم الموفق للخير.

قال الملك: أهلكت إيراخت يا إيلاذ بغير حق.

---

[١٠] صراط: طريق.

[١١] أشتفِ: أكتف.

[١٢] الاتِّقاء: التحفُّظ.

[١٣] تُلقَّى: تلهمه وتوفَّق إليه.

فقال إيلاذ: ثلاثة هم الزائغون[١٤] عن الحق: الذي يلبس الثياب البيض ثم ينفخ بالكير[١٥] فيسوِّدها بالدخان، والقصَّار الذي يلبس الجوربين الجديدين ورجلاه أبدًا في الماء، والذي يقتني الفرس الكريم للركوب ثم يلتهي عنه فلا يركبه فيبطر.

قال الملك: ليتني أنظر إلى إيراخت قبل فراق الدُّنيا.

قال إيلاذ: الذين يطلبون ما لايقدرون عليه ثلاثة: مَنْ لا ورع له وهو يرتجي ثواب الأبرار، والبخيل الذي يلتمس ببخله أن ينال منزلة السخيِّ، والفاجر الذي يسفك الدِّماء ويأمل أن روحه من أروح الشهداء.

قال الملك: أنا الذي جنيت على نفسي وجررت البلاء إليها.

قال إيلاذ: أولئك في الناس خمسة: الذي يتعرَّض للقتال وهو أعزل، والبخيل يجمع ماله في منزله ولا أحد معه فيقصده اللصوص فيقتلونه ويأخذون ماله، والكبير يخطب الصغيرة، والقبيح يخطب الجميلة، والمرأة التي تحبُّ ولدها وهو شاطر عارم[١٦] فهي تستر أموره وتخفيها ثمَّ هو يكون تعبًا لها ووبالاً عليها.

قال الملك: قد وضعت الأمر غير موضعه في قتلي إيراخت.

قال إيلاذ: مَنْ يفعل ذلك ثلاثة: الطائر الذي يرفع رجليه نحو السماء خوفًا من سقوطها عليه، والكركيُّ الذي يقوم على رجل واحدة ولا يضع الثانية على الأرض خوف أن يخسفهاً والغني البخيل إذا أكل لا يشبع يخاف على ماله من النفاد. كالخراطين[١٧] التي طعامها التراب تقصد الإقلال من الأكل منه لئلا ينفد ويفنى، وكالكلب الذي يلغ من النهر بلسانه ولا يعبُّ منه حذرًا أن يجف، والخفاش الذي يطير بالليل لا يفعل ذلك بالنهار؛ مخافة أن يصطاده الناس لحسنه وهو أقبح الطير.

قال الملك: لم أحزن قط حزني على إيراخت.

قال إيلاذ: خمسة أشياء إذا كنَّ في المرأة كانت أهلاً أن يُحزَنَ عليها: إذا كانت عفيفة، كريمة الحسب والنسب، عاقلة، جميلة، موافقة لزوجها محبة له.

قال الملك: ليس تأخذني سنة[١٨] ولا نوم من حزني على إيراخت.

---

[١٤] الزائغون: المائلون.

[١٥] الكير: الزُّق الذي ينفخ فيه الحداد.

[١٦] عارم: شرس مؤذ.

[١٧] الخراطين: هي ديدان حمر طوال تولد في الأرض الندية، لا مفرد لها.

[١٨] سنة: نعاس.

قال إيلاذ: اثنان لا يهجعان ولا يستريحان: الكثير المال وليس له خازن ولا أمين، والشديد المرض ولا طبيب له.

ثمَّ إنَّ إيلاذ لَمَّا رأى لملك قد اشتدَّ به الأمر سكت. فقال له الملك: ما بالك يا إيلاذ سكت؟

قال: أيها الملك، إني قد تجاسرت عليك فيما امتحنتك به إرادة أن أعلم ما آل إليه أمرك في إيراخت، وأراني قد تجاوزت طوري[١٩] في ذلك وبان لي من حلمك وعقلك ما أذهلني إذا لم يبد منك مع ما اجترأت به عليك شيء من الغضب ولا تغيَّرت عن حالك، وها أنا شاكر لعفوك وصفحك وتجاوزك عني وإن لم يكن ذلك مني إلاَّ نصحًا للملك واستطلاعًا لأمره، فاعف عني إن شئت أو فعاقبني بما تراه، فإن إيراخت بالحياة.

فلمَّا سمع الملك ذلك اشتدَّ فرحه وقال: يا إيلاذ إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك، وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك أن لا تكون قد قتلت إيراخت؛ فإنها وإن تكن أتت عظيمًا وأغلظت[٢٠] في القول لم تأته عداوة ولا طلب مضرَّة ولكنها فعلت ذلك لغيرة وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأحتمله، ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شكٍّ من أمرها. وقد اتخذت عندي أفضل الأيادي[٢١] وأنا لك شاكر، فانطلق فأتني بها.

فخرج من عند الملك فأتى إيراخت وأمرها أن تتزيَّن، ففعلت ذلك وانطلق بها فلمَّا دخلت سجدت للملك ثم قامت بين يديه وقالت: أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذي أحسن إليَّ، قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلاً بعده، فوسعه[٢٢] حلمه وكرم طبعه ورأفته. ثم أحمد إيلاذ الذي أخَّر أمري وأنجاني من الهلكة لعلمه برأفة لملك وسعة حلمه وجوده، وكرم جوهره، ووفاء عهده.

وقال الملك لإيلاذ ما أعظم يدك[٢٣] عندي وعند إيراخت وعند العامة إذ قد أحييتها بعدما أمرت بقتلها، فأنت الذي وهبها لي اليوم فإني لم أزل واثقًا بنصيحتك وتدبيرك،

[١٩] طوري: قدري.

[٢٠] أغلظت: خشنت وعنفت.

[٢١] الأيادي: النعم.

[٢٢] وسعه: أحاط به.

[٢٣] يدك: نعمتك وإحسانك.

وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيمًا، وأنت محكم في ملكي تعمل فيه بما ترى وتحكم عليه بما تريد، فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك.

قال إيلاذ: أدام الله لك أيها الملك المُلْكَ والسرور، فلست بمحمود عن ذلك، فإنما أنا عبدك. لكن حاجتي أن لا يعجل الملك في الأمر الجسيم الذي يندم على فعله وتكون عاقبته الغمُّ والحزن ولا سيما في مثل هذه المرأة الناصحة المشفقة[٢٤] التي لا يوجد في الأرض مثلها.

فقال الملك: بحق قلت يا إيلاذ، وقد قبلت قولك ولست عاملاً بعدها عملاً كبيرًا ولا صغيرًا فضلاً عن مثل هذا الأمر العظيم الذي ما سلمت منه إلاَّ بعد المؤامرة والنظر والتردُّد ومشاورة أهل المودَّة والرأي.

ثم أحسن الملك جائزة إيلاذ ومكَّنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبابه فأطلق فيهم السيف، وقرَّت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته وحمدوا الله وأثنوا على كباريون لسعة علمه وفضل حكمته؛ لأنه بعلمه خلَّص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة.

---

[٢٤] المشفقة: الحريصة.

الفصل الخامس عشر

باب النَّاسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الذي يدع صنعه الذي يليق به ويشاكله[1] ويطلب غيره فلا يدركه ويرجع إلى الذي كان عليه فلا يقدر عليه فيبقى حيران مترددًا.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد، فنزل به ضيف ذات يوم، فدعا النَّاسك لضيفه بتمر ليطرفه[2] به، فأكلا منه جميعًا. ثم قال الضيف: ما أحلى هذا التمر وأطيب! فليس هو في بلادي التي أسكنها، وليته كان فيها. ثم قال: أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا، فإني لست عارفًا بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها.

قال له النَّاسك: ليس لك في ذلك راحة فإنه يثقل عليك. ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجة مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلة مناسبته للجسد.

ثم قال له النَّاسك: إنه لا يعد سعيدًا مَنْ طلب ما لا يجد، وإنك سعيد الجدِّ إذا قنعت بالذي تجد وزهدت فيما لا تجد.

وكان هذا الناسك يحسن العبرانية، فسمعه الضيف يتكلَّم بها مرَّة فاستحسن كلامه وأعجبه فتكلَّف أن يتعلَّمه وعالج في ذلك نفسه أيامًا. فقال النَّاسك له: ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك وتكلَّفت من كلام العبرانية في مثل ما وقع فيه الغراب: قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

---

[1] يشاكله: يوافقه ويماثله.

[2] ليطرفه: ليقدِّمه له.

مثل الغراب الذي أراد أن يدرج كالحجلة

قال النَّاسك: زعموا أن غرابًا رأى حجلة تدرج وتمشي، فأعجبته مشيتها وطمع أن يتعلَّمها. فراض[3] على ذلك نفسه فلم يقدر على إحكامها وأيس منها وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها، فإذا هو قد اختلط مشيه وتخلَّع[4] وصار أقبح الطير مشيًا.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طُبِعَت عليه وأقبلت على لسان العبرانية وهو لا يشاكلك، وأخاف أن تدركه وتنسى لسانك وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لسانًا. فإنه قد قيل إنه يُعدُّ جاهلاً مَنْ تكلَّف مَنْ لا يشاكله وليس من عمله ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل ولم يُعرَف به أحد من أهله وذوي قرابته. فإن العاقل لا يتعدَّى طوره.

والولاة أيها الملك وأرباب الأمر أولى بالانتباه إلى هذا الشأن ومنع حدوثه بين الناس؛ لأن فيه مضرَّة لهم بما يجرِّئ الأنفس على منازعتهم في منازلهم ويغريها بمقاومتهم في أحكامهم لما فيه من إطماع السفلة في مراتب أهل الطبقة العالية، ومزاحمة اللئيم للكريم، والجاهل للعالم، والخامل للنسيب، والدنيء للشريف، إلى غير ذلك مما يفضي إلى تشوش العالم وفساد الأمور واختلاط الطبقات وضياع المراتب والأقدار، والأمور في ذلك كله تجري على مثال واحد ينتهي إلى الأمر الخطير الجسيم من مزاحمة الملك على ملكه ومضادته فيه.

[3] فراض: درَّب وعوَّد.

[4] تخلع: تفكك.

الفصل السادس عشر

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه.

قال الفيلسوف: أيها الملك ليس أضيع من جميل يُصنَعُ مع غير شاكر ولا أخسر من صانعه. كما أنه لا بذر أنمى من بذر الجميل في قلوب الشاكرين ولا تجارة أربح من تجارته، ومع ذلك فإن المرء جدير أن يصنع المعروف على كل أحد، فإنه إن ضاع المعروف عند الناس لا يضيع عند الله، ولا سيما إلى ذوي الشكر والوفاء كيف كانت منزلتهم، فلعله احتاج إليهم يومًا من الدَّهر فيكافئوه عليه.

غير أن الملوك وغيرهم من ذوي العقول إذا تعمَّدوا بمعروفهم أحدًا يختَّصونه به ينبغي لهم أن يضعوه موضعه ولا يضيعوه عند مَنْ لا يحتمله[1] ولا يقوم بشكره، فينبغي للملوك أن لا يصطفوا أحدًا إلاَّ بعد الخبرة بطرائقه والمعرفة بوفائه ومودته وشكره، فإن مَنْ أقدم على المشهور بالاستقامة والعفة واسترسل إليه من غير اختبار ولا تجربة كان مخاطرًا في ذلك مشرفًا منه على هلاك وفساد، ألا ترى أن الطبيب الرفيق العاقل لا يكتفي في مداواة المريض بالمعاينة فقط، لكنه لا يقدم على علاجه إلاَّ بعد تعرُّف أحواله والجسِّ لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته، فإذ عرف ذلك كله أقدم على معالجته، ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريبًا لقرابته ولا أحدًا من خاصتهم لشرفه إذا كان غير محتمل للصنيعة فإنه إنما شرف بتشريفهم إياه، ولا أن يمنعوا معروفهم وجميلهم عن بعيد لبعده أو خامل لخموله إذا كان عارفًا بحق ما يصطنع إليه مؤديًا لشكر ما أُنعِمَ عليه.

[1] يحتمله: يتقلَّده ويشكره.

وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر أحدًا من الناس حتى البهائم، ولكنه خليق أن يبلوهم ويختبرهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم، فقد يكون الخير عند مَنْ يظنُّ به الشرَّ، والشرُّ عند مَنْ يظنُّ به الخير.

وإن طبائع الخلق أيها الملك مختلفة وليس مما خلقه الله مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين أو يسبح في الماء شيء هو أفضل من الإنسان، ومع ذلك فربما تحذَّر العاقل من الناس فلم يأمن أحدًا منهم وأخذ ابن عرس فأدخله في كمه وأخرجه من الآخر، وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده فإذا صاد شيئًا أبقى له منه نصيبًا. ومن الناس البرُّ والفاجر ومن هؤلاء كل كفور كنود[٢] حتى لقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمَّة وأشدَّ محاماة عن حرمة وأشكر للمعروف وأقوم به، وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الحيَّة والقرد والببر

قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية[٣] فوقع فيها رجل صائغ وحيَّة وقرد وببر[٤] ومرَّ بهم رجل سائح فأشرف على الركية فبصر بالرجل والحيَّة والقرد والببر؛ ففكر في نفسه وقال: لست أعمل لآخرتي عملاً أفضل من أن أخلِّص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فقد قيل لم يؤجر مأجور بأعظم من أجر مَنْ استحيا نفسًا هالكة، ولا عوقب معاقب بأشدَّ من عقاب مَنْ كفَّ عن ذلك وهو قادر عليه ولو بمشقة مما خلا ذهاب نفسه.

فأخذ حبلا وأدلاه إلى البئر فتعلَّق به القرد لخفته فخرج، ثم أدلاه ثانية فالتفت به الحيَّة فخرجت، ثم أدلاه ثالثة فتعلق به الببر فأخرجه فشكرن له صنيعه وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من الركية فإنه ليس شيء أقلَّ من شكر الإنسان. ثم قال له القرد: إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها نوادرخت. فقال الببر: أنا أيضًا في أجمة إلى جانب تلك المدينة. قالت الحيَّة: وأنا في سور تلك المدينة. فإن أنت مررت بنا يومًا من الدَّهر واحتجت إلينا فصوِّت علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من المعروف.

[٢] كنود: الكنود هو الذي يعدُّ المصائب وينسى المواهب.

[٣] ركية: بئرًا ذات ماء.

[٤] ببر: أسد هندي.

فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلَّة شكر الإنسان وأدلى الحبل فأخرج الصائغ فسجد له وقال: لقد أوليتني [٥] معروفًا فإن مررت يومًا من الدَّهر بمدينة نوادرخت فاسأل عن منزلي، وأنا رجل صائغ واسمي فلان، لعلي أكافئك بما صنعت إليَّ من المعروف.

فانطلق الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح إلى وجهته.

فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له حاجة إلى تلك المدينة فانطلق، فاستقبله القرد فسجد له وقبَّل رجليه واعتذر إليه وقال: إن القرود لا يملكون شيئًا، ولكن أقعد حتى آتيك. وانطلق القرد وأتاه بفاكهة طيبة فوضعها بين يديه فأكل منها حاجته.

ثمَّ إنَّ السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة، فاستقبله الببر فخرَّ له ساجدًا وقال له: إنك قد أوليتني معروفًا فاطمئن ساعة حتى آتيك. فانطلق الببر فدخل في بعض الحيطان على بنت الملك فقتلها وأخذ حليها فأتاه به من غير أن يعلم السائح من أين هو، فقال في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء فكيف لو أتيت إلى الصائغ فإنه وإن كان معسرًا [٦] لا يملك شيئًا فسيبيع هذا الحليَّ فيستوفي ثمنه فيعطيني بعضه ويأخذ بعضه وهو أعرف بثمنه.

فأانطلق السائح فأتى إلى الصائغ، فلمَّا رآه رحَّب به وأدخله إلى بيته. فلمَّا بصر بالحلي معه عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك. فقال الصائغ: اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما في البيت.

ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي. أريد أن انطلق إلى الملك وأدله على ذلك فتحسن منزلتي عنده.

فانطلق إلى باب الملك فأرسل إليه أن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي، فأرسل الملك وأتى بالسائح فلمَّا نظر الحلي معه لم يمهله وأمر به أن يُعذَّب ويُطافُ به في المدينة ويُصلَبُ. فلمَّا فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطعت القرد والحيَّة والببر فيما أمرتني به وأخبرتني من قلَّة شكر الإنسان لم يصر أمري إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول، فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته فاشتدَّ عليه أمره فجعلت تحتال في خلاصه، فانطلقت حتى لدغت ابن الملك. فدعا الملك

[٥] أوليتني: صنعت إليَّ.

[٦] معسرًا: ضيق الحال فقيرًا.

أهل العلم فرقوه[7] ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئًا، ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف وما وقع فيه، فرَّقت له وانطلقت إلى ابن الملك وتراءت له وقالت: إنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلمًا.

وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت إليه السجن وقالت له: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان ولم تطعني، وأتته بورق ينقع من سمِّها وقالت له: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق فإنه يبرأ، وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه فإنك تنجو إن شاء الله تعالى. وإن ابن الملك أخبر أباه أنه سمع قائلاً يقول: إنك لن تبرأ حتى يرقيك السائح الذي حُبِسَ ظلمًا.

فدعا الملك بالسائح وأمره أن يرقي ولده فقال: لا أحسن الرقي ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى فسقاه فبرئ الغلام.

ففرح الملك بذلك وسأله عن قصته فأخبره؛ فشكره الملك وأعطاه عطية حسنة وأمر بالصائغ أن يُصلَبَ، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائغ بالسائح وكفره له بعد استنقاذه إياه وشكر البهائم له وتخليص بعضها إياه عبرة لَمَنْ اعتبر وفكرة لَمَنْ افتكر وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أو بعدوا لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه.

[7] فرقوه: عالجوه بعلاج الملسوع.

الفصل السابع عشر

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلاَّ بعقله ورأيه وتثبُّته في الأمور كما يزعمون فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير والرجل الحكيم العاقل قد يصيب البلاء والضرَّ؟

قال بيدبا: كما أن الأعمى لا يبصر إلاَّ بقلبه ولا يمشي إلاَّ بحسه مع المهلة والتَّأني، كذلك ينبغي للإنسان أن يسلك في الأمور بعين العقل والبصيرة والعلم وبالتثبُّت والأناة، فقل أن يعثر على هذا غير أن القضاء والقدر قد يغلبان على ذلك كما قد يعثر البصير ويسلم الضرير، ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه. قال الملك وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا في طريق واحدة. أحدهم ابن ملك، والثاني ابن تاجر، والثالث ابن شريف ذو جمال، والرابع ابن أكَّار[1] وكانوا جميعًا محتاجين وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلاَّ ما عليهم من الثياب.

فبينما هم يمشون إذ فكَّروا في أمرهم، وكان كل إنسان منهم راجعًا إلى طباعه وما كان يأتيه منه الخير. فقال ابن الملك: إن أمر الدُّنيا كله بالقضاء والقدر، والذي قُدِّر على الإنسان يأتيه على كل حال، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور.

وقال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء.

وقال ابن الشريف: الجمال أفضل مما ذُكِرَ.

ثم قال ابن الأكَّار: ليس في الدُّنيا أفضل من الاجتهاد في العمل.

[1] أكَّار: حرَّاث أي زرَّاع.

فلمَّا قربوا من مدينة يقال لها مطرون، جلسوا في ناحية منها يتشاورون. فقالوا لابن الأكَّار: انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعامًا ليومنا هذا.

فانطلق ابن الأكَّار وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر؛ فعرَّفوه أن ليس في تلك المدينة شيء أعزُّ من الحطب، وكان الحطب منها على فرسخ؛ فانطلق ابن الأكَّار فاحتطب طنًا من الحطب وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعامًا، وكتب على باب المدينة: عمل يوم واحد وإذا جهد به الرجل بدنه قيمته درهم، ثمَّ انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا.

فلمَّا كان من الغد قالوا: ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعزُّ من الجمال أن تكون نوبته.

فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة، ففكَّر في نفسه وقال: أنا لست أُحسن عملاً فما يدخلني المدينة؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام، وهمَّ بمفارقتهم، فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة فغلبه النوم فنام. فمرَّ به رجل مصوِّر وبصر به فأعجبه حسنه أن يصوِّره ويكتسب من صورته إذا عمل منها صورًا وباعها؛ فأيقظه وذهب به إلى منزله ليصوِّره. فلمَّا كان المساء أجازه بمئة درهم. فخرج وكتب على باب المدينة: جمال يوم واحد يساوي مئة درهم، وأتى بالدراهم أصحابه.

فلمَّا أصبحوا في اليوم الثالث قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئًا.

فانطلق ابن التاجر، فلمَّا يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل. فخرج إليها جماعة من التُجَّار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع. فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب، وقال بعضهم لبعض: ارجعوا يومنا هذا لا نشتري منهم شيئًا حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوه علينا مع أنا محتاجون إليه وسيرخص.

فخالف ابن التاجر الطريق وجاء إلى أصحاب المركب فابتاع منهم ما فيه بمئة ألف درهم نسيئة[٢] وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى، فلمَّا سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم فأربحوه على ما أشتراه ألف درهم.

[٢] نسيئة: تأخيرًا أي إلى وقت آخر.

وأحال عليهم أصحاب المركب بالباقي وحمل ربحه إلى أصحابه، وكتب على باب المدينة: عقل يوم واحد ثمنه ألف درهم.

فلمَّا كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك.

فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب المدينة فجلس على دكة[٣] في باب المدينة.

واتفق بالقدر أن مات ملك تلك الناحية ولم يخلف ولدًا ولا أحدًا ذا قرابة، فمرُّوا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون، ولم يلتفت إليهم ولم يكترث لما هم فيه. فأنكروا حاله وشتمه البوَّاب وقال له: مَنْ أنت يا لئيم وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك ولا تهتم؟ وطرده البواب عن الباب.

فلمَّا ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه. فلمَّا دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له: ألم أنهك عن الجلوس في هذا الموضع؟ وأخذه فحبسه.

فلمَّا كان من الغد وقد اجتمع أهل المدينة يتشاورون في مَنْ يملِّكونه عليهم ويختلفون بينهم إذ دخل البواب فقال لهم: إني رأيت أمس غلامًا جالسًا على الباب ولم أره يحزن لحزننا كأن الأمر ليس عنده بعظيم وتلوح عليه لوائح العزَّة والشرف، فكلَّمته فلم يجبني؛ فطردته عن الباب، فلمَّا عدت رأيته جالسًا؛ فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينًا.

فبعثت أشراف المدينة إلى الغلام فجاءوا به وسألوه عن حاله وما أقدمه إلى مدينتهم. فقال: أنا ابن ملك فويران. وإنه لمَّا مات والدي غلبني أخي على الملك وقد كان أبي عهد إليَّ به فغصبني إياه فهربت من يده حذرًا على نفسي حتى انتهيت إلى هذه الغاية.

فلمَّا ذكر الغلام ما ذكر من أمره عرفه بعض مَنْ كان يغشى بلاد أبيه منهم وأثنوا على أبيه خيرًا.

ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملِّكوه عليهم ورضوا به.

وكان لأهل تلك المدينة سنَّة إذا ملَّكوا عليهم ملكًا حملوه على فيل أبيض، وطافوا به حوالي المدينة، فلمَّا فعلوا به مرَّ بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب. فأمر أن يكتب: إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الإنسان في هذه الدنيا من خير أو شرٍّ إنما هو بقضاء وقدر من الله عزَّ وجل. وقد اعتبر ذلك بما ساق الله إليَّ من الكرامة والخير.

[٣] دكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

ثم انطلق إلى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع، وولَّى صاحب الجمال إحدى مصالحه.

ثم جمع علماء أرضه وذوي الرأي منهم وقال لهم: أمَّا أصحابي فقد تيقَّنوا أن الذين رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره. وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه، فإن الذي منحني الله وهيأه لي إنما كان بقدر ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد، وما كنت أرجو إذ طردني أخي أن يصيبني ما يعيشني من القوت فضلاً عن أن أصيب هذه المنزلة، وما كنت أؤمل أن أكون بها لأني قد رأيت في هذه الأرض مَنْ هو أفضل مني حسنًا وجمالاً وأشدَّ اجتهادًا وأحزم رأيًا فساقني القضاء إلى أن اعتززت بقدر من الله.

وكان في ذلك الجمع شيخ، فنهض حتى استوى قائمًا وقال: إنك قد تكلَّمت بكلام عقل وحكمة، ولكن الذي بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنِّك، وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك، وقد عرفنا ما ذكرت وصدقناك فيما وصفت، والذي ساق الله إليك من الملك والكرامة كنت أهلاً له لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأي، وإن أسعد الناس في الدُّنيا والآخرة من رزقه الله رأياً وعقلاً، وإنما أحسن الله إلينا بقضائه إذ وفقك لنا عند موت ملكنا وكرمنا بك.

ثم قام شيخ آخر فحمد الله عزَّ وجل وأثنى عليه وقال: إن شأن القضاء والقدر لكما ذكرت.

مثل السائح

وقد زعموا أن أحد السياح حدَّث عن نفسه فقال: إني كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحًا رجلاً من أشراف الناس. فلمَّا بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدَّق بأحدهما وأستبقي الآخر.

فأتيت السوق فوجدت مع رجل من الصيادين زوجي هدهد[٤] فساومته فيهما لأطلقهما فأبى الصياد أن يبيعهما إلاَّ بدينارين، فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار فأبى.

[٤] هدهد: طائر ذو خطوط وألوان كثيرة.

فقلت في نفسي: أشتري أحدهما وأترك الآخر. ثم قلت لعلهما يكونان زوجين ذكرًا وأنثى فأفرِّق بينهما.

فأدركني لهما رحمة، فتوكَّلت على الله وابتعتهما بدينارين وأشفقت إن أرسلتهما في أرض عامرة أن يصادا ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال ولم آمن عليهما الآفات.

فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران فأرسلتهما فطارا ووقعا على شجرة مثمرة، فلمَّا صارا في أعلاها شكرا لي وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلَّصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه واستنفذنا ونجانا من الهلكة وإنا لخليقان أن نكافئه بفعله. وإن في أصل هذه الشجرة جرَّة مملوءة دنانير أفلا ندله عليها فيأخذها؟ فقلت لهما: كيف تدلانني على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟ فقالا: إن القضاء والقدر الذي يتسلط على القمر والشمس فيكسفهما وعلى الحوت في قعر البحر فيصطاد إذ نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشي على البصر، وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز لتنتفع أنت به.

فاحتفرت واستخرجت البرنية[5] وهي مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية وقلت لهما: الحمد لله الذي علَّمكما مما رأى وأنتما تطيران في السماء وأخبرتماني بما تحت الأرض. فقالا لي: أيها العاقل أما تعلم أن القدر غالب على كل شيء لا يستطيع أحد أن يتجاوزه؟

فليعرف أهل النظر في الأمور أن جميع الأشياء بقدر الله وقضائه، وأن الإنسان لا يجلب إلى نفسه محبوبًا ولا يدفع عنها مكروهًا إلاَّ بإذن الله تعالى، فلتثق نفوس أهل الفكر بذلك وتطمئن إليه فإن في ذلك راحة للمبتلي وداعيًا لَمْنْ تؤاتيه المقادير إلى شكر رب العالمين.

---

[5] البرنية: الجرَّة.

الفصل الثامن عشر

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وهو آخر الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

قال الملك: وما مثلهن؟

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة تفرخ في رأس نخلة ذاهبة في السماء فكانت الحمامة إذا شرعت في نقل العشِّ على رأس تلك النخلة لا يمكنها ذلك إلاَّ بعد شدَّة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها، وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا انقاض[1] وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعهَّد ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها، فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعَّدها أن يرقى إليها أو تلقي إليه فراخها فتلقيها إليه.

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة. فلمَّا رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهمِّ قال لها: يا حمامة ما لي أراك كاسفة البال سيئة الحال؟

فقالت له: يا مالك الحزين إن ثعلبًا دُهِيت به كلَّما كان لي فرخان جاءني يتهددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق منه فأطرح إليه فرخيَّ.

[1] انقاض: انكسر، وخرج منه الفرخ.

قال لها مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له: لا ألقي إليك فرخي فارق[٢] إليَّ وغرِّر بنفسك، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي طرت عنك ونجوت بنفسي.

فلمَّا علَّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر. وأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف، فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل، فأجابته الحمامة بما علَّمها مالك الحزين، فقال لها: أخبريني مَنْ علَّمك هذا؟ قالت: علَّمني مالك الحزين.

فتوجَّه الثعلب حتى أتى مالكًا الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفًا. فقال له الثعلب: يا مالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال: عن شمالي. قال: فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك؟ ما أراه يتهيأ لك. قال: بلى قال: فأرني كيف تصنع فلعمري يا معشر الطير لقد فضَّلكم الله علينا، إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح. فهنيئًا لكنَّ. فأرني كيف تصنع.

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه. فوثب عليه الثعلب مكانه فهمزه[٣] همزة دقَّ بها عنقه. ثم قال: يا عدوَّ نفسه ترى الرأي للحمامة وتعلِّمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكَّن منك عدوك! ثم قتله وأكله. ألهمنا الله أن نكون من المؤتمرين لما يأمرون والمنتصحين بما ينصحون.

فلمَّا انتهى المنطق بالفيلسوف إلى هذا الموضع سكت الملك. فقال له الفيلسوف: أيها الملك، عشت ألف سنة وملكت الأقاليم السبعة وأُعْطِيت من كل شيء حظًا وبلغت ما أملته من خير الدُّنيا والآخرة في سرور منك وقرَّة عين من رعيتك بك ومساعدة القضاء والقدر لك. فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم، وحسن منك العقل والنية، وتمَّ فيك البأس والجود، واتفق منك القول والعمل. فلا يوجد في رأيك نقص ولا في قولك سقط ولا عيب، وقد جمعت النجدة[٤] واللين فلا توجد جبانًا عند اللقاء ولا ضيق الصدر عند ما ينوبك من الأشياء.

[٢] فارق: فاصعد.

[٣] همزة: ضغطه وعضَّه.

[٤] النجدة: الشجاعة والشدَّة.

وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور وشرحت لك جواب ما سألتني عنه منها، تزلُّفًا[٥] إلى رضاك وابتغاءً لطاعتك، فأبلغتك في ذلك غاية نصحي واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي، والله تعالى يقضي حقي بحسن النية منك في إعمال فكرك وعقلك فيما وضعت لك من النصيحة والموعظة. مع أنه ليس المنصوح بأولى بالنصيحة من الناصح، ولا الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه، فافهم ذلك أيها الملك، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

[٥] تزلُّفًا: تقرُّبًا.